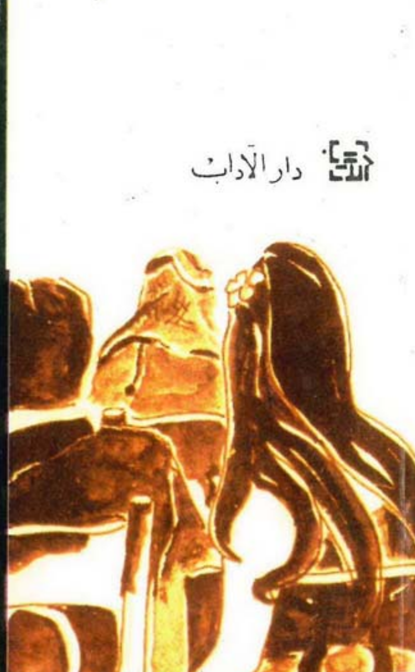
النجوم تحاكم القمر

حنا مينه

رواية



دار الآداب



حنّا مينه

النّجوم تحاكم القمر

رواية

دار الآداب - بيروت

النّجوم تحاكم القمر

الطبعة الثانية
١٩٩٧

إيضاح

هذه رواية ومسرحيّة معاً، فمن شاء أن يقرأها رواية ففي وسعه ذلك، ومن شاء أن يقرأها مسرحيّة ففي ميسوره أن يفعل، وهو مشكور على الحالين.

إنّ التجريب، مع الابتكار، ليس صرعة قصديّة بالنّسبة إليّ، بل هو هدف أسعى إليه مجتهداً، وقد تعدّد، وتنوّع، في رواياتي العشرين الّتي كتبتها حتّى الآن، وصدرت كلّها عن دار الآداب، ويمكن الرجوع إليها، أو إلى بعضها، خاصّة الّذي صدر في السنوات الأخيرة، ليتأكّد ممّا قلته في مناسبات سابقة، عن تقلّص مساحة السرد في رواياتي، ليتّسع مجالها للحوار الّذي أرى فيه تعبيراً أعمق عن الذّات، وهذا النهج ليس اتباعاً للرّواية الّتي دعا إليها توفيق الحكيم، وإنّما هو محاولة في الرّواية، تمزج السّرد بالحوار، وتعطي للشخصيّات أن تقول سريرتها في مكاشفة تنبني على أرحب مدى من الحرّيّة.

ولن أقارب موضوع الرّواية، في هذا الإيضاح، فالغاية منه تستعلن عبر السطور، وكلّ ما أريد التأكيد عليه، هو أنّ هذه المحكمة الاستثنائيّة، التي تنظر في قضيّة استثنائيّة، تخرج، كثيراً أو قليلاً، عن أصول المحاكمات، ولا تتقيّد بأعرافها، مغتنماً هذه المناسبة لتقديم التجلّة، ومعها الاحترام، للقضاء في كلّ مستوياته، ولرجال القانون في كلّ مناصبهم، إذا ما كان هناك، في رواية متخيّلة رغم واقعيّتها، بعض تجاوز في التعبيرات المسُوقة من قبل هيئة المحكمة، والمدّعين، والشهود، وممثّلي النيابة والادّعاء والدّفاع، خلال النظر في أغرب قضيّة، لأغرب حادثة، وأغرب اتهام.

ح. م

ليس من السّهل أن يكون الإنسان عظيماً،
عليه، مقابل ذلك، أن يمشي حافياً في
حقل من المسامير.

م. ر

كان عناد الزكرتاوي يحلم دائماً. كانت هوايته أن يحلم دائماً. وفي سريرته يقول: «أنا هو الحاكم الأبديّ»!، لكنّه، في القلق النفسي الّذي يعذّبه، كان يبحث أبداً عن أحلام جديدة، حيّة، معذّبة أكثر، في الحبّ، والعمل، والحياة، وحتّى في العافية والمرض، وفي جهمة الأيّام الغائمة، الممطرة، وسطوع الأيّام المشمسة، الجافّة، وفي صفرة الخريف وخضرة الربيع.

كان كلّ شيء في متناول يده، ولأنّ الأشياء في متناول يده فهو يملّها. يريدها ألّا تكون كذلك، ويندم إذا لم تكن كذلك. فالرّغبة المضمرة استغلاق كتيم، مثل جدار من حجر، وعلى هذا الجدار، أو أمامه، كانت نفسه تتناذر. تغدو رذاذاً مَوْجيّاً، ينهش الصخر ويرتدّ عنه، نثاراً من زرقة وبياض، وعندئذ يئنّ كجريح، مدمّى من الدّاخل، بسبب من أنّه يُروِّض ولا يُرَوَّض، كان ما ينقصه، وما ينشده، في المبهم من أمانيه، هو الترويض، لكنّه كان معاقباً، بذنب من حياة أخرى، سابقة، يجعله تائهاً، نزقاً، ملولاً، يلهو بأحلامه المتحقّقة، ويحطّمها واحداً بعد آخر، كما يفعل الطّفل بألعابه، ثمّ يبكي عليها، أقلّه يحزن، إلى أن يخترع أحلاماً غير مسبوقة، لا تلبث أن تصبح سابقة، في عبثيّة سيزيفيّة، مصابُهُ فيها أنّه يعيها، إنّما بغير قدرة على الخلاص منها.

وها هو الآن، مركون في الزّاوية اليمنى للمقعد الخلفي، والسيّارة تصعد به طريق كسب اللّولبي، لكثرة ما فيها من أكواع، بعضها حادّ جدّاً، يستشعر وهو يجتازها أنّه يدور على محور حلزونيّ، وسط أشجار الصنوبر، ذات الرّائحة المَرْخِيّة المعطّرة، رائحة الصمغ الّذي يسيل على الجذوع في الصيف، والّذي كان يجمعه وهو صغير، ويفرح به فرحاً غير قليل.

إنّه أغرب مسافر، في أغرب طريق، وأجمله، وكذلك في أغرب رحلة وأعجبها هارباً فيها من ذاته بذاته، دون أن يخبر أحداً، حتّى من أهله، إلى أين هو ذاهب، ولماذا، وما هو الدّافع إلى هذا السفر المجنون، بعد أن جرّب كلّ الأسفار العاقلة، فلم تشفه ممّا به، لأنّه هو لا يعرف ما به، فآثر الفرار من أفكاره، ونفّذ ما اعتزمه برّاً، حين عجز عن تنفيذه بحراً، لأنّ تلك الرّحلة البحريّة كان يأمل أن تكون الرّحلة الّتي لا عودة منها.

كانت آفته هي النسيان. ينسى ما ينتويه، فيقع في ما هو رافضه. وهذا الّذي يرفضه كان محالاً، واستحالته نابعة من أنّه ضدّ طبيعته كإنسان. فقد كان، في مقاومة عنيدة، يسعى إلى إلغاء تفكيره، أو شلّه، أو تحييده، كان يتوسّل إلى دماغه أن يتوقّف عن التفكير، كمن يتوسّل إلى النّوم، وهو تعب، أن ينأى، فإذا به نائم، وإذا به يفكّر، دون أن ينتبه إلى أنّه يفكّر.

حين ركب السيّارة من ساحة الشيخ ضاهر في اللاّذقيّة، حسب أن في مستطاعه أن يفرمل دماغه، أن يوقف حركته كما يوقف جرس ساعة منبّهة، أن يغدو، وهو في ركنه الخلفي من السيّارة، هامد الحركة، نفساً وشعوراً، كواحد من أمتعته الّتي وضعها في صندوق السيّارة، طالباً من السائق أن يتّجه به إلى كسب، في ذلك اليوم

الرّمادي، الماطر والمثلج معاً، وهو نادراً ما يقع، في مدينته الساحليّة الّتي لا تثلج السماء فيها، لأنّ البحر، في رطوبته الدّائمة، العالية والكثيفة، يحوّل الثّلج إلى سائل مائيّ، يبدأ بالانصباب، حبالاً موصولة بين الفضاء والأرض، أو قطرات كبيرة، عنيفة، ثاقبة، لا يترنّق فيها الجوّ بسهولة، وعكر السهل المندفع في الشوارع يترافق مع قصفات رعديّة ترجّ المدينة رجّاً، وتدوّي متدحرجة بين الغيوم، مشتعلة برقاً يساقط صواعق ناريّة حارقة في الحقول، أو منزلقة على صفحة البحر الصاخب، غاطسة في وهاد اليمّ عند أطراف الأفق، أشبه بنيازك شُهبيّة انفصلت عن أفلاكها، والتمعت فأضاءت، ولم تلبث أن غارت في اللّجة، أو الفلاة، أو تبدّدت فابتعلها الفضاء.

- جنون! قال السّائق.

- نعم جنون! قال عناد الزكرتاوي في نفسه.

- السّفر في مثل هذا الطقس إلى كسب مغامرة.

- نعم هو مغامرة وأنا تقصّدتها. أضاف عناد الزكرتاوي في نفسه.

- قد لا نستطيع الوصول إلى كسب بسبب الثّلوج.

- ...

- وكلّ ذلك بسبب الصّخور والأتربة الّتي جرفتها السيول وسدّت الطريق.

- ...

- أنا لا أضمن وصولك إلى كسب إذن.

- ...

- وعليك أن تدفع أجري كاملاً في هذه الحال.

...

- «الشرط في الأوّل ولا القتال على البيدر.»

- ...

ـ ألا تسمعني يا سيّدي؟
ـ أسمعك.
ـ ولماذا لا تردّ علي؟
ـ لأنّني لا أفهم ما تقول.

التفت السّائق إلى وراء فلم ير سوى رأس أشيب الشعر، يبرز من ياقة معطف أسود، مزرّر ومضموم إلى العنق، في جلسة استرخاء، يتكوّر فيها الجسم على المقعد الخلفيّ، في الزّاوية اليمنى منه، دون حراك، دون انفعال، دون نأمة، سوى هذه الكلمات الوحيدة: «إنّني لا أفهم ما تقول!» ثمّ صمت، وصمت، وصمت، ضاق به السّائق بعد أن اجتاز المنعطف الّذي يؤدّي إلى «أوغاريت» فعاد يقول محتجّاً:

ـ لكنّني أتكلّم العربيّة.
ـ . . .
ـ ألا تفهم العربيّة!؟
ـ . . .
ـ تريد أن تخبلني!؟
ـ . . .
ـ أنا مخبل خلقة!
ـ . . .
ـ سأوقف السّيارة وأعود بها إلى اللاّذقيّة إذا لم تتكلّم.
ـ . . .
ـ إذن لن تتكلّم؟
ـ . . .
ـ هَهْ! أوقفت السّيارة.
ـ . . .

ـ سأعود بها إلى وراء.

ـ . . .

ـ سأدوّر وأعود إلى اللاّذقيّة. (وفعلاً أدار المقود، في اندفاع غاضب).

لكن في هذه اللّحظة تكلّم عناد الزكرتاوي. تكلّم بهدوء. بحسم، بأمر وحده يستطيعه، عندما يتكلّم آمراً، ويعرف أنّ الآخر سيطيع. قال:

ـ تابع طريقك إلى كسب.

قال السّائق:

ـ وإذا لم أتابعه؟

قال عناد وهو على الوضع الّذي كان عليه، وفي عينيه تلك النظرة الملتمعة بالذكاء الحادّ أو العته العدوانيّ:

ـ بلى! ستتابعه.

قال السّائق:

ـ وإذا رفضت؟

ـ أنت لن ترفض، وأنا سأدفع قدر ما تطلب.

ـ ستدفع أجرة «التوصيلة» والعودة معاً، لأنّني، في هذا الجوّ الزفت، سأعود بالسيّارة فارغة.

ـ سأدفع الأجرة الّتي تطلبها كلّها.

قال السّائق وهو يركّز جلسته وراء المقعد، ويهمّ بالانطلاق إلى أمام:

ـ إذن لماذا لا تتكلّم؟ لماذا لا تردّ علي؟

ـ لأنني لا أرغب في الكلام الآن.

ـ ومتى ترغب في الكلام وهذا وقته؟

ـ حين يطيب مزاجي!

ـ المزاج يعتدل في السّفر، وفيه يحلو الكلام.

قال عناد:

ـ وأنا أتكلّم. منذ انطلقنا وأنا أتكلّم.

نظر السّائق إليه في مرآته بعد أن أزال الغبش عنها، وقال مستغرباً:

ـ مع من تتكلّم؟

ـ مع نفسي!

أضاف بنبرة آمرة:

ـ ركّز انتباهك على الطريق ودعني.

قال السّائق في نفسه: «هذه ألعن سفرة مع ألعن راكب. أنا لا أعرف اسمه، ولا لهجته، ولا صفاته. إنّه من اللاّذقيّة وليس منها. وهو عاقل وغير عاقل. شعره الشّايب، غير المحلوق منذ وقت طويل، المسترسل على صدغيه ومؤخّرة رأسه، ونظراته الفوسفوريّة، ولامبالاته بالمطر والرّعد، وقبوعه في زاوية المعقد، دون حركة، دون سؤال أو جواب، يجعلك تظنّه مجنوناً، لكنّه عندما يتكلّم يبدو عاقلاً. المسافر معي لا يملّ. أسلّيه طول الطريق. أتكلّم وأظلّ أتكلّم. آخذ وأعطي. أعوّض بكلامي عن تأخّري في السّفر. أظلّ في أحسن حالاتي، رغم بعض النرفزات، وبعض الشتائم. هذه لا بدّ منها للسائق. أنا سائق عتيق، لكنّني أبداً لم أسمع من مسافر أنّه يتكلّم مع نفسه، ويكتفي بذلك، رغم إلحاحي عليه واستدراجي إيّاه للكلام.»

وقال عناد الزكرتاوي في نفسه: «كيف أُفهم هذا السّائق الأرعن، أنّني اليوم في إجازة من التفكير والكلام؟ وكيف أشرح له أنّني اخترت

هذا الجّو بالذّات للسفر، لأنّه يغري بالتبلّد والاسترخاء، ويبعـد عنّي الفضوليّين الّذين يدسّون أنوفهم في مـا لا يعنيهم، سائلين: إلى أين؟ وكيف؟ ولمــاذا؟. خـرجت من البيت تحت المـطر، وركبت السيّـارة والمطر متواصـل، وها أنـا أنجح في مـا أردت، لأنّ أحـداً لم يـرني، وأحـداً لم يتعرّف إليّ، وأحـداً لم يسألني، وكنت أنعم بـالهدوء الّـذي أرغبه، لولا أنّ هذا السّائق حشـريّ، ثرثـار، مشاكس، يكـاد يفسد عـليّ خلوتي مع نفسي، ويضـطرني إلى الكـلام اضـطراراً، ويتهـدّدني بمصاعب الطريق كي يبتزّني بأكـثر ما يسـتطيع، غـير مدرك أنني عـلى استعداد للدفع، ولمواصلة الرّحلة، تحت المطر، وفي قلب العاصفـة، وخلل الضباب، وعبر الثّلوج أيضاً، في هذه المغـامرة الّتي تستثـيرني، لأنّها كانت حياتي بدايةً، وستكـون حياتي نهايـةً، ولأنّني أستثيرهـا كي تعنف وتعنف، وبقدر ما يشتدّ عنفها أستشعـر الرّاحـة، واستوثق من أنّني أنـا هو أنـا، ذلك الجـوّاب لـلآفـاق، والمتشهي للعـزلـة، في آن معاً.»

قالت له نفسه:

ـ أنت، أيّهـا المتفلسف الخائب، تكـذب من حيث تـظنّ أنّـك لا تكذب.

قال لنفسه:

ـ بمـاذا كذبت عليـك، أيّتهـا الخبيثـة، الـوسـواسـة، المنسربـة في مطاوي الذّات!؟

ـ كذبت عليّ مرتين: الأولى حـين وعدتني، قبـل الرّحلة، بـأن لا تكلّمني خـلال الـرّحلة، والثـانيـة حـين أقسمت أنّـك لن تفكّـر من خلالي، وها أنت تفكّر من خلالي.

ـ حسناً! سأقلع عن التفكير.

ـ لا أحد يستطيع الإقلاع عن التفكير.

ـ سأغمض عينيّ وأسدّ أذنيّ، فلا أرى ولا أسمع ولا أفكّر.

ـ مركز التفكير ليس في العين أو الأذن أو الحواس. . إنّه في الدّماغ!

ـ سأعطّل دماغي.

ـ كيف؟

ـ آمره أن يتعطّل.

ـ أنت قادر، وكلّ إنسان قادر، إذا حزم أمره، أن يعطّل ما هو خارج ذاته، أم داخلها فلا. الدّماغ يَأمر ولا يُؤمر.

ـ وإذا كنت، في ما يخصّني، أنا السيّد؟

ـ الإنسان سيّد ما هو خارجه وعبد لما هو داخله.

ـ وكبح الشّهوات؟

ـ هذا تحكّمٌ في النّزوات.

ـ بل هو تحكّم في الغرائز.

ـ أنت تكذب.

ـ وأنا أحتجّ على اتّهامي الدّائم بالكذب. . غرائزي ملك يدي.

ـ غرائزك ملك ماهيّتك.

ـ وماهيّتي جزء منّي.

ـ ماهيّتك هي كلّك، والكلّ ليس في مقدوره أن يلغي الكلّ.

ـ هذا تجريد. أنا واقعيّ، تعميميّ، أرفض التجريد.

ـ لولا التجريد ما كان التعميم، وهذه بدهيّة. . علّتك، يا صاحبي، أنّك تحاول نقض البدهيّات، وإلغاء الغرائز، وكبت العواطف، وقتل الأحاسيس، لكنّك لن تحصل إلاّ على قبض الرّيح. أنت قادر أن تفعل ذلك لبعض الوقت، لكن لست قادراً أن تفعله طول الوقت. كن مع طبيعتك تسترح.

ـ أنا مع طبيعتي ولكن بعقلانيّة.

ـ وهل من العقلانيّة أن تهرب من ذاتك إلى ذاتك؟

ـ التجربة، على كلّ حال، مفيدة.
ـ لكن ما هو أعظم فائدة أن تتعلّم من تجاربك.

قال عناد الزكرتاوي لنفسه بغير صوت:

ـ كفى! لطالما جرّبت، ولطالما تعلّمت، لكن ذلك كلّه لم يفدني.. أنا مسكون من الدّاخل ومنه أهرب.

قالت له نفسه:

ـ ومن أين تهرب وإلى أين؟ ممّن وإلى من؟ المسكون من الدّاخل يظلّ مسكوناً من الدّاخل إلى أن يصالح داخله.

ـ أنا لن أصالح داخلي. لا أستطيع.. هل تفهمين؟ خلقت للاستئناف، وسأظلّ مستأنفاً. الصلح لن يقع، لأنّه لا يمكن أن يقع، مادام ذلك ليس في يدي.

ـ في يد من؟

ـ في يد الّذين في رأسي.. المخلوقات الّتي في رأسي.. هذه علّتي!!

ـ وعلّتك لا دواء لها.. كيف تهرب من الّذين تحملهم معك؟

ـ أنا لا أحمل أحداً معي.. أنا وحيد كما ترين. أسافر في المطر. أستبطن المطر. أتّخذه ستارة، كي لا يراني أحد، ولا يكتشفني أحد، وأحسب أنّني نجحت، بدليل خروجي من المدينة متنكّراً بثوب من الماء، متلفّعاً بالرّيح، متجلبباً بالضباب.

ـ وأنا!؟

ـ أنتِ أنا، فكيف يتخلّص أنا من أنا؟

ـ إذن أنت هو خالق مخلوقاتك، والخالق يحمل مخلوقاته معه حيثما رحل.. إنّه في الرّأس، فهل سمعت بإنسان يسافر دون رأسه!؟

قال عناد الزكرتاوي حاسماً النّقاش:

ـ أنا هو الإنسان الّذي يسافر برأسه ودون رأسه. . لقد أفرغته هناك، في المدينة.

في هذه اللّحظة تقوّضت أعمدة الفضاء قهقهَ الرّعد فتطاير البرق، وسقطت في مكان ما، قريب، صاعقة حارقة، فصاح السّائق:

ـ لطفكَ يا الله!

وقال وهو يلتفت التفاتة خاطفة إلى المقعد الخلفي:

ـ واحد منّا من الخطاة.

ـ . . .

أضاف:

ـ أقول لك: واحد منّا، نحن الاثنين، من الخطاة، وهذا عقاب الله يلاحقنا ولا مفرّ، لنعد إلى اللاّذقيّة.

ـ . . .

ـ أنا أكلّمك فهل تسمعني؟

ـ . . .

أوقف السيّارة وصرخ:

ـ ألا تسمعني!؟

قال عناد الزكرتاوي وهو على لامبالاته:

ـ تابع طريقك.

عاد السّائق يصرخ:

ـ كيف أتابع طريقي وهو مسدود بالحجارة؟

ـ انزل وارفعها ثمّ تابع إلى كسب.

ـ نحن في منطقة القسطل، وأمامنا ثلوج متراكمة، لن نستطيع تجاوزها للوصول إلى كسب.

ـ سنتجاوزها مادام السّير لم يتوقّف.

ـ الشّاحنات الكبيرة غير سيارتي الصغيرة هذه.
ـ أنا لا شأن لي بسيّارتك.. لا تكن ماكراً. انـزل وارفع الحجـارة من الطريق.

نـزل السّائق وأزاح بعض الأحجـار ثمّ تابـع، وهو يفكّـر: «بـأيّ سلطان يتكلّم هذا المخلوق!؟

كان يستشعر الآن مشاعر متناقضة حيـال الرّجـل الغريب بـالنّسبة إليه. قـال في نفسه: «إذا رميته من السيّارة سيتجمّد من البرد فأتحمّل المسؤوليّة.. وإذا قتلته فهناك المشنقة، مادام انطلاقي كان من الكراج وبشكل رسمي.. وإذا تابعت الطريق، سالكـاً الممرّات الّتي فتحتهـا الشّـاحنـات في الثّلوج، فقـد أغـرز في الثّلج، أو أكسر «الأشبـان» وأصاب بنكبة.. لكنّ الرّجل قال إنّه سيدفع. نعم! أكّد أنّه سيدفع! ودون تحديد للمبلغ الّذي أطلبه.. ثمّ إنّه غريب الأطوار، فقد يكون مجرماً هارباً، وقد يكون مجنوناً فـارّاً من مشفى المجانـين، وقد يكـون مسلّحاً يقتل بدم بارد. صمته، لامبالاته، صوته الآمر، إصراره عـلى متابعة الطريق، يقينه عـديم الشّك بـالوصـول إلى كسب، كلّ ذلـك يجعـل منه إنسـاناً غـير عادي، إنسـاناً خـطراً، شرّيراً، معتـوهـاً، أو ببساطة مغامراً ساقه القدر إليّ، أو ساقني إليه.. اللّعنة على حظّي!»

بعـد قليل وصلت السيّـارة إلى مفرق الفـرنلق. أمامهـا الآن كوع حادّ وخطر. وعليه أن يندفع مصعداً لئـلا تنقطع السّرعـة. إنّها بليّة! هذه هي البليّة، وقال السّائق بغير صوت: «للقرد! الإنسان يمـوت مرّة واحـدة، وسنموت معـاً، وأنا لست جبـاناً. ابن حـارة الشحّـادين لا يمكن أن يكون جباناً. العمى! حارة الشحّادين استعصت على فـرنسا ذاتهـا، فهـل يستعصي، علـيّ، أنـا ابن تلك الحـارة، الـوصـول إلى كسب!؟»

كذلك فكّر والتفت إلى المقعد الخلفي قائلاً:
ـ إذا تخرّبت السيّارة ستدفع ثمن إصلاحها.

قال عناد الزكرتاوي:
ـ سأدفع!
ـ وإذا صادفتنا حجارة ستنزل وترفعها من الطريق معي.
ـ سأنزل وأرفعها معك.
ـ وإذا غرّزت في الثّلج فستدفعها بكتفك كما أفعل أنا.
ـ سأدفعها بكتفي كم تفعل أنت.
ـ وإذا انقطعنا في الطريق، وبتنا ليلتنا في السيّارة، فستدفع الأجرة، ذهاباً وإيّاباً، مضاعفةً.
ـ وإذا انقطعت بنا السيّارة سأدفع الأجرة مضاعفة.. شروطك الأخرى؟
ـ أن تقول لي من أيّ طينة أنت.
ـ أنا من تراب مثلك.
ـ ليس مثلي.. أنا أختلف عنك.
ـ لست مثلك.. وأنت تختلف عنّي.
ـ أنا أتكلّم وأنت صامت.. صمتك قتلني.. لماذا لا تردّ عليّ!؟ لماذا لا تتكلّم معي!؟
ـ قلت لك أنا أتكلّم مع نفسي.
ـ وماذا قالت لك نفسك؟
ـ إنّك ثرثار وابن عاهرة!

ضرب السّائق المقعد برأسه وزمجر:
ـ تشتمني!؟ تشتمني أنا؟ أنا ابن حارة الشحّادين!؟
ـ وأنا ابن حارة الصليبة.. ولا أشتمك بل أداعبك، وإذا لم تغلق

فمك فسأشتمك حقيقة لا مزاحاً.. والآن كفّ عن ثرثرتك وانتبه إلى الطريق أمامك.. هذا أمر!

ـ أيّ أمر هذا؟ طظ في كلّ الأوامر! أقول لك أنا ابن حارة الشحّادين وتقول لي: أوامر!! وتشتمني فوق ذلك!؟

ـ أنا لا أشتمك. أنا أسخّن دمك البارد حتّى لا تتجمّد. أعني أستثيرك. أخضّك، أنرفزك يا ابن آدم.. فهمت؟

ـ لم أفهم!

ـ أنا لا أتكلّم اللّغة الأرديّة.

ـ لم أفهم أيضاً.

ـ مصيبة إذن. أنت، يا ابن حارة الشحّادين، مصيبة ابتلاني الله بها اليوم، فأغلق فمك وتابع طريقك.. قلت لك أريد الوصول إلى كسب بأيّ شكل.

ـ والشتيمة!؟

ـ اشتمني أنت أيضاً.

ـ وماذا تفعل إذا شتمتك؟

ـ لا شيء!

ـ كيف لا شيء؟

ـ هكذا! لا شيء.

ـ أيّ إنسان أنت؟ وماذا تفعل في كسب في هذا الجوّ اللّعين؟

ـ سأنتحر هناك.. ما رأيك بالانتحار؟

ـ أعوذ بالله... أنت تضحك عليّ!

ـ إذا أردت أن لا أضحك عليك فلا تتكلّم.

ـ أنا لا أستطيع إلاّ أن أتكلّم.. أنا سائق. هل رأيت سائقاً لا يتكلّم!؟

ـ أنا أعرف أن الحلاّقين يتكلّمون كثيراً.

ـ السائق ابن عمّ الحلاّق.

ـ وأنا ابن عمّ أبي الهول.

ـ ومن هو أبو الهول هذا؟

ـ أبـو الهول في منـطقة الاهـرامـات، والاهـرامـات في القـاهـرة، والقاهرة في مصر، ومصر في أفريقيا، وأنت ابن. . .

ـ لا تكمّل!

ـ أردت أن أقول إنّك «ابن حلال»!

ـ هذه أوّل كلمة حلوة وعـاقلة أسمعها منـك! أبشر إذن! ستصل كسب باسم واحد أحد. وإذا كنت أضايقك بكلامي فلن أتكلّم.

كـانت السيّارة قـد خلّفت مفرق الفـرنلق وراءها. أخـذت تصعّد الآن في أكـواع حادّة وخـطرة، وكان الثّلج كثيفـاً، يغـطّي الـطريق، والأشجار، والأحجار، وكلّ المنطقـة الّتي تجتازهـا السيّارة، والسّـائق عـزّو الواوي يحـاول بمهـارة، أن يسلك أثـر السيّـارات الّتي سبقتـه، وخـاصّة الشّـاحنات، لكن «إشبـهان» السيّارة كـان يرتـطم، أحيـانـاً بالثّلوج، أو فتات الصّخور، وعندئذ تثور ثـائرة عـزّو فيصيح: «دين هذه السّفرة!» أو يدور مُرتقياً كوعاً صعباً فيشتم: «أخت الّـذي عمل هذا الطريق!» أو تتكثّف الثّلوج على زجاج السيّـارة الأمامي فيضـطر إلى التوقّف لإزالتها وهـو يصيح: «أم الثّلج والـذي خلقه»، وخـلال ذلك كلّه يحافظ عناد الزكرتاوي على صمته، كـأنّ ذلك لا يعنيـه، أو كـأنّ شيئاً في هـذه الدّنيـا لا يعنيه، الأمـر الّذي يهيـج أعصـاب عزّو فيزمجر: «أعجبك هذا!؟ تخرّبت السيّارة وانخرب بيتي!» وإذ لم يسمع جواباً فقد التفت إلى وراء وقال غاضباً: «ماذا يهمّك أنت؟ مـاذا يهمّك يا ابن السما؟ والله وبالله، وبكسر الهاء، لأجعلنّك تدفع ثمن كلّ عطل وضرر لحق بالسيّارة. أنـا عزّو الـواوي، ومن حارة الشحّـادين. هل

تعرف ماذا يعني هـذا؟ أنت لا تعرف الـواوي، ولم تسمع بـه.. نعم أم لا؟ قل كلمة، كلمة واحدة، لا تهبّبني!»

وكي لا يهبّ عزّو الواوي كما هدّد وتوعّد، قـال عناد الـزكرتـاوي أخيراً:

- سمعت صوت الواوي من بعيد!

فضرب عزّو رأسه بمقود السيّارة وقال:

- أيّ واوي وأيّ صـوت هـذا؟ تشتمني مـرّة أخـرى؟ في كسب نتحاسب!

لكنّـه عندمـا وصل كسب، وتـوقّف أخيراً أمـام «فندق المختـار». نسي تهديده، لأنَّ عناد الزكرتاوي دفع له كـلّ ما يـريد، وفـوق ذلك حلواناً، لأجل بطحة من العرق، فانبسطت أسارير عـزّو لأنَّ السيّارة سليمة، ولأنّه أخذ الأجرة مضاعفة، فقال وهو يودّعه:

- لا تؤاخذني يا معلّمي. أنت من حارة الصليبة حقيقـة. الدّراهم مثل المراهم، حـطّها عـلى الجرح يشفى، وأنت بكـرمك شفيت قلبي وجرحي، متّى تنزل إلى الـلاّذقيّة؟ أوع تفعلهـا وتنتحر! العمى! لمـاذا الانتحار؟ لطفك يا لطيف.. بخاطرك وإلى اللّقاء في سفـرة قادمـة يا معلّمي. اسأل عن عزّو الواوي فقط، تجدني أمـامك «حـاضر نـاظـر» ولكن عليَ شرط أن تتكلّم، أن تشتمني وأن تتكلّم، أنا، يا معلّمي، لا أطيق الصّمت، لا أطيق السكـوت ولـو كـان من ذهب، هكـذا خلقني ربّي، فماذا أفعل!؟

قال عناد الزكرتاوي بهدوئه المعتاد ونبرته اللاّمبالية:

- لا شيء!

ثمّ دخـل فندق المختـار حيث سبقته إليـه أمتعته، وفي بهـو الفندق كان «ناهابيت» ينتظر، وقد مدّ يده مصافحاً وهو يقول:

ـ تأخّرت يا هو. . أنا هنا من الظهر. . فكَّرت أنّك لن تأتي.
قال عناد الزكرتاوي:
ـ ها أنا أتيت. . هل البيت جاهز؟ وهل كلّ شيء كما اتفقنا؟
قال «ناهابيت»:
ـ كلّ شيء تمام التّمام، ولكنّ البيت غمرهُ الثّلج.
ـ هذا أفضل!
ـ وكيف تصل إليه!؟
ـ هذا من شأني. .
ـ والأغراض؟
ـ احملها أنت. .
ـ هذا عيب يا هو. . «ناهابيت» لا يحمل الأغراض، هذه شغلة الحمار.
ـ احملها على ظهرك، أو على الحمار، وأنا أدفع لك وللحمار. . هيّا.

قال عناد الزكرتاوي وأخرج من إحدى الحقائب زجاجة عرق وبيجامة، قدّمهما إلى «ناهابيت» قائلاً:
ـ ها أنت مبسوط الآن؟
ـ تمام التّمام!
ـ وهل سكّرت فمك كما أوصيتك؟
ـ تمام التّمام!
ـ وهل سيظلّ مسكّراً كما اتفقنا؟
ـ تمام التّمام!

قال عناد الزكرتاوي في نفسه «اللّعنة على تمام التّمام» هذه. . ناهابيت أرمني عتيق، وسكّير، وثرثار، لكنّه وحده الّذي يملك البيت

الّـذي أريده، لأنّـه بعيد، منعـزل، مغمور بـالثّلج، ولأنّ نـاهـابيت مغفّل، لم يسألني حتّى عن اسمي، وهذه فضيلة نادرة هذه الأيّام.»

قال ناهابيت:

ـ الأجرة كما اتّفقنا. أنا رجل «دوغري» يا هو، والبيت كلّه لـك، لكنّ الدّفع الآن، قبل أن نمشي.

أنا استأجرت الطابق الأرضي فقط.

ـ وماذا أفعل بالطابق الثّاني؟ أؤجّره؟

ـ لا! لا تؤجّره لأحد.. هذا شَرْطي.. أريد أن أكون وحدي.

قال ناهابيت:

ـ تدفع أجرة الطّابقين إذن.

ـ نحن لم نتّفق على هذا يا بارون ناهابيت.. وفي الشّتاء لا يوجـد مصطافون.

ـ يوجد يا «حبيبي»، فإذا لم يستأجره أحد أسكنه أنـا. (قال ذلـك بالتركيّة).

ـ أنت تستغلّني.. سأدفع، ولكنّي أقول لك إنّك تستغلّني، وهذا لا يجوز.

ـ ادفع وسيكون كلّ شيء تمام التّمام..

دفع عناد الزكرتاوي ما طلبـه «ناهـابيت». كان مضـطرّاً للانفـراد بالبيت، وكان ناهابيت يعرف هذا، لـذلك طلب مـا يريـد، وحصل على ما يريد، وجاء بحمار حمّل عليه الأمتعـة، وقال لعنـاد الزكـرتاوي وهو يتقدّمه:

ـ امش ورائي. أنت رجل كويّس، والبيت جيّد، والحطب كثير، والمدفأة مضبوطة، وأنا سأسكّر بوزي، وأزورك كلّ يوم.

صاح عناد الزكرتاوي:

ـ لا . . ليس كلّ يوم. . ولا في أيّ يوم. لا تقل عنّي كلمة لأحد، ولا تأتِ إلى البيت إلّا إذا طلبتك. . مفهوم يا ناهابيت!؟

قال ناهابيت:

ـ مفهوم بابا. . كلّه تمام التّمام!

ـ لكي يكون كلّه «تمام التّمام» انسَ أنّني موجود هنا.

ـ هذا عجايب بابا. . أنت هارب من السّجن؟

ـ أنا هارب من النّاس!

ـ من أيّ ناس؟

ـ من النّاس الّذين في رأسي!

ـ أنت عاقل أم مجنون بابا؟

ـ أنا عاقل ومجنون. . وأنا أكره الكلام. لا تتكلّم أكثر يا ناهابيت. أنزل الأغراض عن الحمار ومع السّلامة.

أنزل ناهابيت الأمتعة. دلّه على المطبخ ومكان الحطب. توقّف قليلاً في غرفة الصّالون. تبرّع بإشعال النّار في المدفأة. أراد مساعدته في فتح الصّندوق الخشبي. اعتذر عناد الزكرتاوي وقال:

ـ اترك هذا لي، مع السّلامة!

قال ناهابيت:

ـ هات كأس عرق يا هو. . الدّنيا برد.

ـ ليس عندي عرق. أنا لا أشرب العرق بل الكونياك. الكونياك مفيد في البرد.

ـ نعم! نعم! الكونياك كويّس. في أرمينيا كونياك مشهور. عندك كونياك أرمني؟

ـ عندي كونياك فرنسي.

ـ أنت خواجه يا هو. عندنا، في كسب، لا يوجد كونياك حتّى عند الآغا. أعطني كاس كونياك ـ كأس كبير ـ الدنيا برد. الدّنيا

ثلج.. هل معك سلاح؟ لا؟ أنا أعطيك «مرتين» مع «الفشك» هـذا ضروري بـابـا. نحن الأرمن نحبّ السـلاح. في بيت كـلّ أرمني «مرتين» و«موزر» و«طبنجة» وخنجر.. هذا لازم. الأتـراك وراء هذا الجبل، وأنت تعرف. أنت وحيد. والبيت بعيد. والثّلج كثير، وهناك الضّبع، والذئب، وأحياناً الحرامي، ماذا تفعل إذا جاء الحرامي!؟

ـ أسقيه كأساً من الكونياك!

ـ والضّبـع!؟ والذئب!؟ «المـرتـين» ضروري، والأجـرة بسيـطة، ولكن أين الكونياك؟

أعـطاه كأسـاً كبيرةً مليئـةً من الكونيـاك. كرعهـا نـاهـابيت دفعـة واحدة. مسح فمه وشاربيه بقفا كفّه وقال:

ـ تعـال معي. «المرتـين» و«الفشك» فـوق.. لا تقل هـذا لأحد. الأرمني لا يقـول عنـده سـلاح، لكنّـه لا يعيش بغـير سـلاح. هــذا ضروري مثـل المرأة. أكـثر من المرأة. أنت سمعت بمـذبحة الأرمن؟ سمعت! هـذا كويّس. تعـال معي، ولكن هذا سرّ. إذا قلت لأحـد عن هذا السّر نصبح «دوشمان»[1]. في اللّيل أقفل الباب. ضـع وراءه عصـا السنديـان. نِم «والمرتـين» بجانب الفـراش. وفي «بيت النّار» رصاصة. اسمع مني «أوغلوم»[2] اسمع من ناهابيت ناهابيت يعرف.

في الـطّابق الأعلى كـان لوح من الخشب وراء البـاب. كان لـوحـاً عاديّاً لا يلفت النّظر. نزعه ناهابيت من مكانه وقال:

ـ هذه هي «المرتين». وهذا هـو «الفشك» أنـا أسلّمك سـلاحي. يعني أسلّمـك روحي. وأنت ستـدفـع. أنت «زنكـين»[3] ونـاهـابيت

---

(١) عدو.

(٢) يا ابني!.

(٣) غنيّ... وكلّها كلمات تركيّة.

فقير. ادفع الّذي تريد. هذا لا يهمّ. نحن في بيت لا في بازار. ناهابيت لا يبازر. أنت ممنون بابا!؟

دفع عناد الزكرتاوي مبلغاً إضافيّاً صغيراً. تناوله ناهابيت مسروراً.. وعندما هبط إلى الطابق الأرضي، ومدّ عناد يده ليودّع ناهابيت، قال هذا الأخير:

- كلّ شيء تمام التّمام!؟

- كلّ شيء تمام التّمام!؟

- إذن أعطني كأس كونياك آخر. الدنيا برد. وعمّك ناهابيت رجل عجوز، والعجوز يبرد.

قاطعه عناد ضجراً:

- سأعطيك كأس كونياك آخر على شرط.

- وناهابيت يقبل الشرط.. ما هو؟

- أن تشرب كأس الكونياك وتذهب فوراً، دون أيّ كلمة.. ثمّ لا تأتي إليّ أبداً.

- مفهوم «أوغلوم».. هات كأس الكونياك بسرعة، ولا تقوّص إلاّ عند اللّزوم. أنا علّمتك كيف تقوّص عند اللّزوم.. كويّس!؟

- كويّس جدّاً.. هذا هو كأس الكونياك! اشرب.. ولكن دون كلام.. دون أيّ كلمة.. أنا تعب ويجب أن أستريح.. تفهم ما أقول؟

شرب ناهابيت كأس الكونياك دفعة واحدة وقال وهو يضحك:

- أفهم أغلوم أفهم.. ناهابيت يحبّك، وأنت عندك كونياك.. والدّنيا برد..

قاطعه عناد بحدّة:

- أعرف أنّ الدّنيا برد، ولكن أنت مع السلامة.. مع السلامة حتّى أسافر.. لا تعد إليّ أبداً.. سمعت؟

ـ سمعت أوغلوم سمعت. . ولكن. .

ـ اذهب دون لكن. . انتهى الكلام.

حين أغلق عناد الزكرتاوي الباب وراء ناهابيت زفر زفرة مديدة. قال في نفسه:

«اللّعنة على ناهابيت وعزّو وعليّ وعلى الدّنيا. ما أتعس هذا اليوم!؟ لماذا رماني حظي بعزّو الواوي وناهابيت!؟ كلّ منهما أسطوانة: كلام! كلام! كلام! لماذا، يا ربي خلقت كثيري الكلام!؟ ولماذا، يا ربّي خلقتني أحبّ الصّمت! أنا، أحياناً، أتكلّم كالآخرين. أمرح. أثرثر، لكنّني، أحياناً أخرى، ألوذ بالصمت. أدفع ليرة عن كلّ كلمة إذا أعفوني من قولها. اليوم كان يوم الصّمت، فابتلاني الله بعزّو الّذي لسانه لولب، وبناهابيت الّذي له حنك ضفدع، مع تحطيم اللّغة الّذي حطّم رأسي. أكاد لا أصدّق أنّني نجوت منهما. وأكاد لا أصدّق أنّني نجحت في الهرب من اللاّذقيّة. كسب غير الشام، وهذا البيت المنعزل غير المكتب الآهل. وأنا منذ السّاعة وحيد، حرّ، صامت، مستمع! لا كلام مع أحد. لا حديث مع النّفس، لا تفكير بالأمس والغد. استرخاء تامّ. بلادة كاملة. كسل ملوكي. هدوء. نار. موسيقى. شراب. نوم، ولا شيء غير ذلك. لا قلم ولا ورق. بتّ أكره القلم والورق. لكن لا بدّ من القراءة. لديّ كتب جيّدة. مادام في الدّنيا كتاب جيّد فالعيش جيّد، ومادام فيها موسيقى جميلة فالعيشُ جميل. تخفّفت من متاعبي الآن. أنزلتها عن كتفي ببساطة مدهشة. أفرغت رأسي. غسلته. طهّرته عقّمته. رأسي، الآن، فارغ كطاسة فضيّة. نفسي بيضاء كهذا الثّلج. أعصابي باردة كالماء في هذا الجبل. روحي هانئة كشجرة غار. نزواتي منفيّة، والمرأة مستبعدة، والحبيبة رعى ماعزها كلّ السوسن الأخضر! لقد فررت من الأفكار، والذكريات، والصّور، والتأمّلات: البريء

منها والدنس، الطاهر والدّاعر، وتلك الّتي كانت هنا، في القلب، خرجت منه كنسمة، وبالبياض تسربلت، وكسحابة ارتفعت إلى الأعالي، وبلطف دفعتها الريح الرهوة باتّجاه المغيب، حيث أصبحت وصيفة للشمس، حمراء مثلها، قانية مثلها، متوهّجة بأرجوانيّة الغسق مثلها، ومثلها، عند الغروب، ستغطس في البحر، وتتحوّل، في قيعانه، بين ورود الشّارون، إلى وردة شارونيّة، وعندما تصعد إلى السّطح، ستكون عروس بحرٍ، ما من مثلها بين العرائس».

صعد، بعد ذلك، إلى الطابق الأعلى. كان الجبل، المتسلّق ظهر الفضاء، أمامه. وكانت البيوت المتناثرة، المسيّجة بالخضرة، تتسلّق الجبل الّذي يتسلّق الفضاء. وكانت سطوحها القرميديّة، بلونها المرجاني، تكتسي بالثّلج، ومن مداخنها تنفث دخاناً أبيض، يرتفع ويرتفع ويلج السّحاب فيصير سُحُباً، ثمّ تهبط السّحب من الذرى إلى السّفوح فتتشكّل ضباباً، والضياء الّذي ينعكس على الثّلوج، تنعكس الثّلوج فيه، فيتّخذ لوناً ذا بياض عاجيّ، وثمة، في البقع الصخريّة المنبسطة، توشيحات بنفسجيّة، والسكون عام، شامل والغيوم العالية، فوق «الجبل الأقرع» تتراوح بين سواد ورماد، واللّيل يهبط، رويداً رويداً، على مصيف كَسَب المعلّق بين أرض وسماء.

ارتدّ عناد الزكرتاوي عن النّافذة. كانت هناءته الآن مضاعفة. فتنه كلّ هذا البهاء. دخل في البهاء. صار بهيّاً من الدّاخل، لكنّه قبل أن يغلق باب الطّابق العلوي خلفه، انتزع لوح الخشب الّذي وراءه، وأخرج البندقيّة المخبّأة فيه، مع جندل من الرّصاص، ففتح مغلاقها، وألقمها رصاصة كما أوصاه ناهابيت وفكّر: «لمن ستكون هذه الرّصاصة؟» همنغواي انعتق من الحياة بواحدة مثلها. كان همنغواي شجاعاً. هو أيضاً يريد أن يكون شجاعاً. أن ينعتق من الحياة قبل أن تعتقه. لقد وضع ناهابيت بين يديه ما كان يبحث عنه.

كان بحثه شعوريّاً ولاشعوريّاً في آن، فجأة اهتدى إلى الآلـة الّتي يحبّها ويخشـاهـا! متى ، إذن، يقــول للدّنيـا: وداعــاً!؟ «ليس الآن، ليس الآن» ردّد في نفسه انحدر على الدرج الخشبي الدّاخلي، فلمّا صـار في الـطّابق الأرضي، هفّت عليه رائحـة خشب الصنوبـر، المصنوع منه السّقف، بفعل الحرارة الّتي كانت قد بدّلت الجوّ، فاقترب من المـوقد وألقى فيـه بعض جذوع السنـديان اليـابسة، وانصرف، بعـد ذلك، لفتـح الصنـدوق والحقيبــة، وتـرتيب زجــاجـات المشروب، وعلب المحفوظات.

لقد عارك الحياة طويلاً «لا صلح معها» كان يقول: «لا صلح مـع الحيـاة ما دامت غـير عـادلة مـع الآخرين، مثلهـا معي. أنا لا شيء وهم كــلّ شيء. هم، هـم، هم! الـعــدل لهم، ومـن أسف أنّــني سـأموت والحسرة عـلى الطفـل الجائـع، والـطّفلة المتسـوّلـة، والمـرأة المضطهدة، والرّجل الباكي من الدّاخـل، بسبب الفقر والـظلم، تلفّني كفناً من الدّاخل، لا يراه ولا يدري به أحد»

صنـع لنفسـه فنجـانـاً من شـاي «ليبتـون» وضـع فيـه مقــداراً من الـروم، كي يطرد من جسمـه ذلـك الـبرد والتعب والعـذاب النفسي الّـذي عانـاه في اجتياز الـطريق، بين الـلاّذقيّـة وكسب، مـع سـائق أرعن، ومـع تلك المماحكـة والابتزاز والحـوار الغريب والـطريف مـع صـاحب البيت الثعلب، الّذي يخشى أن يعـود إليه، مـا دام قـد شمّ رائحة الكونياك لديه. إنّه لا ينكر أنهما شخصيّتان نموذجيتان لقصّتـين قصـيرتين، وأنّـه تعلّم من عزّو الـواوي كيف يتخلّق السّـائق بـأخـلاق المهنة الّتي عنوانها السباب، حتّى ولو لم يكن هنـاك داعٍ إليه، وضرب الرّأس في المقود، تعبيـراً عن غيظ مكتوم، كمن يضربُ نفسـه كي لا يضرب الآخـر الّـذي معــه، وتعلّم من «نـاهــابيت» كيف يستـدرج صـاحب الحاجـة، ويخضعه لإرادتـه، بمداورة لـطيفـة ولكن نـافـذة،

وكيف يفكّر الأرمني، وهو في أعالي الجبال، بمزيد من التحصّن والاحتياط، لأنّ الأتراك «هناك»، ولأن مذبحة الأرمن تستبطن الشعور، وتلقي بظلّها المأساوي مهماً تباعد بها الزمن.

تجربتان في يوم واحد. ولكن ما الفائدة!؟ ولماذا التجارب وعنده منها ما يزيد ويفيض؟ إنّه، في هذا المنتأى، هارب منها، وها هيّ تلاحقه. تنْكتب على ظهره؛ تنغرز في مسامه، تتراءى له في الغيمة المضبّة، والشمس المشرقة، والقنّة العالية، والفضاء الرّماديّ، وهذا البيت المتوحّد، وهذه الغابات من الصنوبر، المكلّلة بالثّلوج، والمزهوّة بالرسوخ والارتفاع. هنا لا قنص، لا مطاردة، لا تجارب. لقد كفّ عن قنص التجربة، وصار في وضع هي الّتي تطارده فيه، بينما هو يهرب منها. لذيذ هذا الشاي، وهذا الرّوم، وهذا الدّفء، وفاتن منظر النّار، وعطر الصّنوبر، والموسيقى الهادئة، والبندقيّة المركونة في الزاوية، ترزّه منها نظرات مبهمة، يمتزج فيها نداء إلى المقاومة بنداء إلى الاستسلام، وتعطيه، الأصحّ توحي إليه، برغبة في البقاء ورغبة في الانعتاق. لكنّه، في هذا المنعزل، يرفض الرغبتين كلتيهما. لا يفكّر فيهما. يرفض أن يفكّر فيهما، يرفض التفكير أصلاً وفرعاً، فقد خلّف وراءه، في مدينته الغافية على هدهدة الموج، كلّ تلك الأشياء الّتي تستدعيها الذّاكرة، وتتمرأى فيها الخواطر. هو هنا للاشيء. للاشيء بكلّ القوّة والإصرار اللّذين يزعم أنّه مازال يمتلكهما.

كان البيت مرتباً ترتيباً حسناً. تتوفّر فيه كلّ حاجيات العيش، وكلّ قدرة التنظيم المأثورة عن المرأة الأرمنيّة. وكانت صالة الطابق الأرضي نظيفة، فسيحة، ذات شميم مَرْخيّ، وهي أقرب إلى الطول، فيها مكتب ومقاعد و«درسوار»، وحول المدفأة فرشت البسط، فوقها جلود الخراف، وهي تغري بجلسة مريحة، كسول، يتخدّر فيها الجسم والعقل بفعل الدفء والخمر والموسيقى، وهذا كلّ

ما يتمنّاه، وكلّ ما جاء لأجله، وكلّ ما يأمل أن يدوم ويدوم، حتّى ينسى، وينسى، وينسى.

لقد سرّه أنّ النّار، كالخمرة، كطيف المرأة، تتحدّث بصمت. وها هو يغرق في الصّمت، وها هو الصّمت يدخل فيه، والموسيقى الهادئة تضفي على هذا الصمت صمتاً آخر، من نوع لم يألفه، لذلك يعجز عن التعبير عنه. . إنّه سعيد وكفى! سعيد لأنّه قرّر الفرار من المدينة وفقد قراره. مسرور لأنّ الطنين في رأسه تلاشى، فهو خال خلوّ ماء البحر من الزرقة مع أنّه أزرق. «لقد قُيّض لي أخيراً ـ قال في نفسه ـ أن أحقّق واحداً من أعزّ أحلامي: أن أكون وحيداً وحدة تامّة، وأين!؟ في بيت يلفّه الهدوء، وتسوّره أدغال الصنوبر، وتنفرش الأرض من حوله بالبياض، ولا يعلم به أحد سوى صاحبه، وقد انقطع ما بيني وبين النّاس، كلّ النّاس، أجساماً وأطيافاً، ولديّ من الخمور والمعلّبات واللّحوم الباردة، ما يؤمّن حاجتي شهوراً، أستريح فيها بدناً وروحاً، في عالم خاصّ، هو عالمي أنا، لا يعكّر صفوه لغو، أو تنداح في سكينته دائرة، أو يرنّق مطره كدر، أو يدلّ عليه أثر. الوحدة عبادة. أنا أتعبّد الجمال الآن. أعيش في قدس أقداسه. أصلّي، صامتاً، في محراب الطبيعة، ومن رؤاي أخلع عليها تهاويل مؤنسنة».

كان شغوفاً بموسيقى فاغنر. لكنّه، في ليلته الأولى هذه، آثر موسيقى يوهانس الأرغنيّة. جاء بزجاجة الكونياك، وبقدح، وطبق من الأجبان، وجلس قرب المدفأة، على جلد الخروف، جلسة بوذيّة، لا ليدخل النرفانا، بل ليعيش جوّها الروحيّ العذب، ناشداً السّلام السماوي حيث الرّاحة الأبديّة، مع أنّه حيّ ما يزال.

في الخارج ليّل اللّيل. غطّى بعباءته الكون. زحف الزّمن بزلّاجته التقويميّة. عوّى ابن آوى. تبعه عواء ذئب. فرغت الكأس فملأها ثانية. فرغت فملأها ثالثة.

جاعت النّار فأطعمها. دبّت النشوة في الأوصال. ابتهل الأرغن. دبّت النشوة أكثر. انشرح الصّدر تماماً. توالج عطر الحطب بعطر الموسيقى بعطر السلاف. استشعر تحليقاً ولا تحليق، وسمع أصواتاً بغير كلام:

قالت البندقيّة:

ـ أنا أنتظر.

قالت الكأس:

ـ دعها تنتظر!

قالت النّار:

ـ هذه ابنة عمّي فلا تجفُها.

قالت الموسيقى:

ـ النّار تخدعك والبندقيّة تغريك فلا تستمع إليهما.

عوى ابن آوى في البعيد: إنّه ينادي أنثاه!

قال في نفسه: «أنت لا أنثى لك ولا ذكر. أنت هارب من الأنثى والذّكر!»

صَفَرَتِ الريح في الخارج: ماذا تقول الرّيح؟

«أنت لم تأتِ إلى هنا لتسأل أو لتجيب: أنت والصمت، وهذه بغيتك!»:

قالت الكأس:

ـ أنا في الصمت نديمك!

قالت النّار: «أنا في الحكاية شهرزادك!»

«أنا لا شهرزاد لي.. نفيت شهريار من ذاتي!»

قالت الخمرة:

ـ إنّما أنا شهرزاد أُدعى . . أنا الفرح والحبّ والصبوة!

عوى ذئب في الخارج: هذا نائب سيّد الغابة.

«وأين سيّد الغابة؟»

قصف الرّعد فاضطرب الفضاء فوق البحر القريب: الـبرق والمطر يتلاقحان!

قالت عروس البحر: أنا ثمرة هذا اللّقاح!

«لذلك أنت ابنة زنى!»

قال عود الصنوبر وهو يرفعه في يده ليلقيه في النّار:

ـ لا حلال ولا حرام في الطّبيعة: إنّها الفطرة الأولى!

قال جلد الخروف:

ـ أنا بساط الرّيح!

قال بساط الرّيح:

ـ لن أرتفع بك في الفضاء قبل أن تترك خطاياك على الأرض.

«وما هي خطاياي!؟»

قالت الموسيقى:

ـ بالخطيئة حبلت بك أمّك، وبها ولدتك، وبها تحيا.

«إذن لست مذنباً».

قالت السكّين إلى جانبه:

ـ أنت هو الذنب وأنا العقاب.

«لا أحد يعاقب دون ذنب».

زأر سيّد الغابة احتجاجاً: أنت الذّنوب كلّها!

قالت البندقيّة:

ـ في فوّهتي الخلاص من كلّ هذه الذنوب.

قال السّقف:

ـ احذر الإغراء!

قال الباب:

ـ أعبر عتبتي تجد نفسك في أحضان أمّك: الطّبيعة!.

«ولكن في الطّبيعة الرّعد والمطر والرّيح والبرق، وكذلك الـوحوش من كلّ الأصناف.»

قال الثّلج الّذي يتراكم على النّافذة:

ـ وفيها النقاء أيضاً! تعال إلى نقائي!

«يكفي أنّ نقاءك يُسيّجني ويعزلني عن العالم.»

قالت النّار:

ـ تعال إذن إلى طهري!

«لا أريد أن أحترق»

قالت الكأس:

ـ اليوم خمر وغداً أمر.. لا تبالِ.

قال الصّمت:

ـ أنا هو الوحدة.. ابقَ في أحضاني.

«من أجل هذا جئت»!.

قالت الوحدة:

ـ انعم إذن بسكينتي.

قال السّكون:

ـ تأمّل ذاتك تعرف نفسك.. معرفة الذّات بداية الحرّيّة.

قالت الحرّيّة:

ـ أنا لا أكون حيث يكون السّجن النفسيّ.

«هذه خلوة وليست سجناً».

قالت الخلوة:

ـ أنا السّجن والسجّان والحارس.

اهتزّ البيت واستنار بالوميض:

ـ اخرج! اخرج! عد إلى الطّبيعة.. عد إلى أمّك حوّاء، ومثلها تصرّف بعفويّة وشجاعة.

قالت الأرض من حوله:

ـ لا تحاول! أنا هو القيد الّذي في رجليك!

ـ أعرف. من التّراب خلقت وإليه أعود!

قالت البندقيّة:

ـ وأنا هو الطّريق السّهل إلى هذه العودة.

في هذه اللّحظة انساب لحن الأرغن، خفيفاً، ناعماً، حلواً، ملائكيّاً، وقال يوهانس من قلب المعزوفة: «المجد لله في العلى وعلى الأرض السّلام وفي النّاس المسرّة» وعند هدهدة الختام الأرغنيّ، انداح رفيف نغميّ عذب، وساد الصّمت، ونعم عناد الزكرتاوي بجلسته الماتعة، فقال:

ـ ما أجمل أن يكون المرء في نشوة العزلة، وأن يتكلّم ولا يتكلّم، ويسمع ولا يسمع، ويندغم في الطّبيعة، ويحلّق على أجنحة حلمه الأعظم.

لكنّه، بعد قليل تساءل: «ما هو الحلم الأعظم»؟ وفوراً أجاب: «بالنّسبة لي، هو أن أعيش هنا، أو في كوخ من أغصان الصنوبر، في قلب غابة لا سبيل إلى مخلوق إليها» وملأ كأسه من جديد، وأضاف: «أين هي مثل هذه الغابة؟ ومن يأتيني بما أحتاجه من طعام وكتب وبريد، مادام أحد لا يعرف مكاني؟ إنّني، في هذه السنّ، تجاوزت

حي بن يقظان، لكنّني، بالرّوح، أرغب أن أكونه، أو أعود، مثله، فمن يحقّق لي هذه الأمنية؟»

ولم يجب الصّمت. الصّمت لا يجيب. «ما سمعته ـ قال في نفسه ـ إيحاءات اللّيل والموسيقى والكأس. إنّني سعيد كما لم أكن يوماً، سامر كما لم أكن ليلة، وهذه النّار سميري، وقد حدّثتني كما كتاب، وأنارت وجهي كما شمس، وفي رمادها دفنت شجوني، وعلى جدران هذه الغرفة علّقت متاعبي، كلّ متاعبي.. أنزلتها عنّي دفعة واحدة، وببساطة مذهلة. شكراً لكلّ شيء. والآن إلى النّوم، دون أحلام، أو بأحلام طفل. لقد استعدت طفولتي!»

هكذا انقضت ليلته الأولى. كان قرير العين إلى حدّ التجلّي. في العزلة تجلّت روحه لروحه، وفي الفراش احتوته ذراعا غمامة زرقاء، والظّلمة سربلته بطمأنينة ريش يمامة، فأغفى وموسيقى يوهانس تنساب في أذنيه كالكلمة الطيّبة، فلمّا أفاق تذكّر هناءته، استرخى مستمتعاً بكسل. فائق اللّذة، عانق رغبته الّتي تحقّقت، نسي أنّ الأشياء من حوله حادثته وتحدّثت إليه، صار كلّ ذلك حلماً، دخل هو نفسه في الحلم، حلّق معه، تعالى عن أوضار هذا العالم، قال لها: وداعاً!

أوّل ما فعله، عندما نهض من الفراش، هو رفع البندقيّة من زاويتها. أحسّها أفعى، بعين مفردة باردة، تنظر إليه باستقامة وثبات، فارتقى السلّم عجلاً، وركنها في مكانها خلف اللّوح الخشبي. استشعر الرّاحة، فاستدار إلى النّافذة ففتحها، وعندئذٍ هبّ عليه نسيم بارد وجافّ، سرّه أنّ الآثار الّتي أحدثها في مجيئه إلى هذا البيت، ومعه ناهابيت وحماره، قد زالت، وبذلك أمّحى كلّ مَعْلم يشي بوجوده هنا، أمّا الطّيور والعصافير الثّلجيّة، فقد حذّرها، بنوع من رجاء، أن تكتم سرّه، وتتقبّل فتات الخبز الّذي نثره لها، تحيّة وتكرمة.

في الطّابق الأرضي فعل ما فعله في الطّابق العلوي. فتح النّافذة. أزال الثّلج عن خشبها وبلّورها. نثر المزيد من فتات الخبز. تأمّل كلّ ما حوله. بهره البياض الثّلجيّ، بهرته أشعّة الشّمس البنفسجيّة المنعكسة على هذا البياض، جاءت صنوبرات الغابة الصغيرات، انحنت له انحناءة الاحترام والتحيّة الصّباحيّة، أشرأبّت زهور الثّلج النّادرة تحت نافذته، ومن سطح بيته القرميديّ تطايرت عصافير الدّوري، وفي الأبعاد، من مداخن البيوت، تصاعد الدخان الرّمادي وانفلش حلقات في الجوّ.

اغتسل. أفطر. أشعل النّار. جلس على جلد الخروف. أصغى بكلّ جوارحه إلى موسيقى شوبان. فتح كتابه، غاص في كتابه، سافر مع كلماته، استشعر الدّفء، السّعادة، النضارة، ترشّف القهوة الّتي أعدّها لنفسه، دخّن، ترك الحلقات السّحابيّة الرّصاصيّة تتعالى، تتحلزن، تلفّه، تغيّبه. ألقم النّار، تشمّم عطر الصّنوبر المنبعث من خشب السّقف، أعطى نفسه للبعد، للبعد البعيد، للإبحار مع «موبي ديك»، ومدّ يده، دون شعور، كأنّه يتّقي البلل الموجيّ، المتناثر رذاذاً صخّاباً على جوانب مركب القبطان أخاب، وهو يشقّ الماء في طلب الحوت الأبيض.

ثلاث ليال. ثلاثة نهارات. كلّ شيء يسبح في أثيريّة الهدوء التامّ من حوله، لكنّه، في صباح النّهار الرّابع، فوجئ مفاجأة غريبة جدّاً، أكثر من ذلك: صُدِمَ! وللوهلة الأولى حسب أنّه جُنّ. راح يتذكّر اليوم، الشهر، السنة، رحلته، عزّو الواوي، ناهابيت الأرمني، البيت الّذي هو فيه، اللاّذقيّة الّتي فرّ منها، البحر الأبيض المتوسط، عائلته، أصدقاءه، موتاه وقبورهم، كتبه وأسماءها. لكنّه، رغم هذا التّذكر الواعي، ظلّ يشكّ في أنّ لوثة أصابته. ظلّ يحدّق في النّار،

وفي الشُعَل اللّهبيّة الذهبيّة، المتأجّجة والمتصاعدة منها، وظلّ يرقب الأشياء من حوله في ذهول، غير مصدّق ما يجري، أو ما يرى.

كانت الشعلات النّاريّة تنطلق حزمة واحدة كبيرة بحجم المدفأة، فإذا ارتفعت تفرّقت. راحت كلّ شعلة تستقلّ بنفسها، تنفرد عن أخواتها، تتّخذ مساراً انطلاقيّاً لولبيّاً إلى أعلى، فإذا بلغت مدى اندفاعها تفتّحت وردة حمراء، ومن قلب هذه الوردة الحمراء يخرج رجل أو تخرج امرأة، وبوثوق تنفصل هذه المخلوقات عن منابتها اللّهبيّة، وتتخطّى المدفأة، مبتعدة إلى أقصى القاعة الكبيرة، المستطيلة، حيث تقف صفّاً وراء صف، وهي تحدّق فيه تحديق من يعرف الّذي يرى إليه، بينما هو يجهل من هي، وماذا تريد، ولماذا تخلّقت، وكيف تخلّقت، وهل هي صديقة أم عدوّة، ولماذا تتباين كلّ هذا التباين في الملامح، وتتنّوع كلّ هذا التنوّع في البشرات والأحجام، وتفترق افتراقاً مميّزاً في اللّباس، وتتّخذ سحناتها، الجميلة أو القبيحة، سماتها المختلفة، في التشكّل الوجهي، وفي النّظرة المتراوحة بين ابتسام حيّي، وعبوس جهميّ، بين رضا وغضب، بين صداقيّة وعدوانيّة، بين استرخاء وتشنّج، بين استقامة في الوقفة، أو ميل إلى هذا الجانب أو ذاك؟

كان عناد الزكرتاوي يعرف بعض هذه الوجوه، ويجهل بعضها الآخر. يتذكّر هذا أو تلك وينسى أنّه رأى يوماً هذا أو ذاك أو تلك. فكّر أن يطفئ النّار ليكفّ اللّهب عن التشكّل مخلوقات آدميّة. مدّ يده فتجمّدت. بحث عن قدح الماء حوله فوجده فارغاً. وكذلك كانت زجاجة الكونياك. أمّا حطب الصّنوبر فكان يتقافز، غصوناً وقِطَعاً، ويُلقي بنفسه في الموقد فتزداد النّار تضرّماً، والشّعلات ارتفاعاً، والتّناسل البشري من النّار تكاثراً. . اتّسعت غرفة الصّالون طولاً وعرضاً، والرّائحة الصّنوبريّة المرْخِية انتشاراً. لم يعد يرى

الباب والنّوافذ، وانشقّ السّقف فتدلّت منه منصّة خشبيّة عندميّة اللّون على شكل قوس، حسبها، للوهلة الأولى، باراً، ففكّر، أيّة طقسيّة احتفاليّة تجري، لكنّ المنصّة تبعتها مقاعد، ووراء القوس الخشبيّة برزت ثلاثة من الكراسي ذات المساند المرتفعة للظهر، وتدلّى قفص اتّهام حديديّ، استقام على يسار القوس، واستنارت القاعة بصنوبر وهّاج، يتيح الرّؤية جيّداً، ظنّه، في البدء، شعاع شمس، لكنّه تذكّر أنّ السّماء غائمة، مضبّبة، وأنّ الثّلج يحيط بالبيت من جوانبه الأربعة، كأنّما هو قائم وسط بساطرخامي ناصع البياض، وأنّ أشجار الصّنوبر المكلّلة بالثّلج هي شجرات ميلاد عليها نديف من القطن الأبيض، وهو محاصر في البيت وخارجه.

حاول النّهوض فلم تستجب ركبتاه. لم يكن جباناً، غير أنّه استشعر الآن قشعريرة باردة في عموده الفقريّ رغم دفء النّار. قال في نفسه: «إنّني في حلم!» وقال: «محال أن يكون هذا كلّه حقيقيّاً، وأنّه يحدث في اليقظة!» وقال: «ليت البندقيّة إلى جانبي، إذن لأطلقت النّار وقتلت كلّ هؤلاء الأوغاد!» وقال: «هذه مسرحيّة ولاشكّ، وإنّ التّمثيل لن يلبث أن يبدأ!» وقال: «إذا لم تكن هذه لعبة مسرحيّة فإنّها تهيّؤات لعينة ولّدتها الوحدة الّتي رغبت فيها!» وقال: «عليّ أن أتدبّر طريقة للفرار، فأنسلّ بشكل ما، وأخرج إلى الفضاء ثمّ أركض فأختفي في الغابة!» وقال: «عليّ أن أصرخ، وبذلك أستيقظ إذا كنت نائماً، أو يسمعني أحد ما في الجوار فيهرع لنجدتي!» وقال: «ربّما كان هذا جحيم دانتي، أستعيده في ومضة الذكرى!» وقال: «إذا لم يكن جحيم دانتي فإنّه عالم الآخرة، الّذي طوّف فيه شيخي المعرّي».وظلّ يقول، أو يفكّر، دون أن يقول، أو يتكلّم بغير صوت. أيقن، بعد ذلك، أنّ هذا كابوس من كوابيس

أفاعي الفردوس فصاح: «ربّاه، عفوك، إنّي جانٍ كافر/جوّعت نفسي، وأشبعت الهوى الفاني» فجاءه صوت من أقصى القاعة:

ـ كفى تعذيباً لنفسك أيّها المازوخيّ الشقيّ.

وسمع صوتاً آخر يصيح:

ـ إنّه ساديّ هذا المتنكّر، فقد عذّبني إلى درجة الجنون، ثمّ أماتني ميتة كريهة ومجانيّة. لقد قتلني!

لكن صوتاً نسائيّاً ردّ عليه:

ـ اخجل يا ديمتريو، أنت من عذّب نفسه، وأنت من مات جباناً في الحبّ لأنّه لم يعرف شجاعة القلب المحبّ يوماً. أنا راجعة، وهذه هي المعزوفة الّتي عزفتها قبل أن أولد من جديد، والّتي عزفها ديمتريو، قبل أن يولد من جديد أيضاً، وكانت شارة التّعارف بيننا. لقد كنت مستعدّة أن أترك زوجي وألحق به، وكانت ليّ الشّجاعة أن أفعل ذلك، أن أضحّي لأجل حبيبي، لأنّه «شطر من كياني أضعته/فلمّا تلاقينا اهتديت إلى أصلي». أمّا هو، هذا الشّطر الضائع، فقد آثر أن يبقى ضائعاً، وهام مجنوناً، إلى أن وُجد ميتاً وكمانه في يده، على شاطئ البحر، كدليل على خلود النّفس بخلود الموسيقا.

تصاعدت، كأنّما من عالم سحيق سحيق، أنغام تلك المعزوفة. كان وتر الكمان، في البدء، يعلن بشارة البهجة. كان النّغم سحبة قوس مديدة، مرحة، تشيع سروراً. كان زقزقة شحرور، أو سقسقة ينبوع يندفع ماؤه على الحصباء، ثمّ مرّت القوس. في نشوة اللّقيا، على الأوتار الخمسة، فانداح نغم جماعيّ، لجوقة قبّرات تسبّح، في السَّحَر، خالقها. بعد ذلك صدح القرار الموسيقي، ناشداً جوابه، فشاعت أساةٌ شوبانيّةٌ هي نجوى حنين الغريب إلى وطنه، وتبعها أنين حزين ضارعٌ للحبيبة الغائبة، وأفعمت رندحة كنسيّة بيزنطيّة جوّ

القاعة، حيث خيّم الصّمت، تتسامى في مداه ابتهالات عذبة، بكت لها بعض النّساء، وأنصت الرّجال، ثمّ رقّ اللّحن وشفّ، وراحت النّغمات المتناثرة، الموحية، السّاحرة، تحلّق فوق الحشد المنبهر، وهي تتلاشى وتتلاشى في أفق بحريّ يغيبها ويحتويها في أعماقه الّتي دون قرار، وعيون أربع، لراجعة وديمتريو، تغزل لمعاناً بعضه شوق لاعج، وبعضه الآخر ترنيمة وداع.

عندما انتهت المعزوفة، رجع الجمع من رحلة الاندماج البعيدة، الآسرة، وعلا اللّغط والضجيج، وكادت الصفوف تضطرب، لولا أنّ رجلاً نَصَفاً خرج من بينها، بزيّه البحري. زيّ الريّس المهيب، المطاع، فعرف فيه عناد الزكرتاوي الرّيس محمد بن زهدي الطروسي، وصاح متوسّلاً:

ـ أنقذني يا ريّسي، يا من نحتّه من أندر المعادن، فاستوى بطلاً فاق الأبطال جميعاً، واستهوى أفئدة النّساء وقلوب الرّجال... أنا..

قاطعه الطروسي متكلّماً بأوّل صوت مسموع:

ـ من أنت!؟

ـ ألا تعرفني!؟

ـ ولماذا جئت لو لم أكن أعرفك؟

قالها واتّجه إلى حشد الرّجال والنّساء سائلاً:

ـ ألا تعرفونه، أنتم أيضاً؟

أجاب الحشد بصوت واحد:

ـ نعرفه! نعرفه!

قال الطروسي بهدوء الآمر الواثق:

ـ مادمتم تعرفونه فأصغوا إليّ.. أنا واحد منكم، وربّما كنت أقدمكم لولا واحد بينكم، هو عمّنا أبو فارس، الأكبر عمراً، والأكثر

تجربة، والأشد نزاهة ونَصَفة، لـذلك أرشّحـه لرئـاسة هـذه المحكمة الّتي لا قَبْلها، ولا بعدها، من نوعها، فماذا تقولون؟

هدر الجمع:

ـ موافقون!

قال الطروسي:

ـ وأرشّح ريّسنا المقدام صالح حزّوم مستشاراً في الميمنة.

ـ موافقون!

ـ وأرشّح الخال برهوم مستشاراً في الميسرة.

ـ موافقون أيضاً!

ـ والأستاذ كامل كاتب محكمة.

ـ موافقون، موافقون!

ـ بقي أن ينتدب محامي الأدّعاء نفسه من بينكم.

صاح كرم المجاهدي.

ـ أنا أمثّل الادّعاء!

تداخلت أصوات الحشد:

ـ نوافق!

قـال نـايف الفحـل مـاسـح الأحـذيـة، وهليش لصّ المـرفـأ، ولاونديوس الواعظ:

ـ نحن لا نوافق.

ردّ الطروسي:

ـ الأكثريّة وافقت انتهى الأمـر. لكن من يرشّـح نفسه للدّفـاع!؟ انتبهوا! المهمّة ليست سهلة!

تقدّمت امرأة فارعة، ورديّـة الوجنتـين، قويّـة الشخصيّة، سـاكنة الجمال وقالت:

ـ أنا أتولّى الدّفاع.

تعالت الأصوات:

ـ ولكن من هي؟ ما اسمها؟ نحن لا نعرفها.

قالت المرأة:

ـ أنا بطلة «مأساة ديمتريو».. أنا «راجعة» صاحبة المعزوفة المجهولة، وحبيبة ديمتريو الّذي قُتل.

قال الطروسي:

ـ أذكر هذا الاسم.. ألست الّتي كنت قبل أن يكون هذا الزمن؟ ألست حبيبة ديمتريو الّذي يقال إنّه قتل!؟

ـ نعم! أنا هي، ولكن مَنْ قتل ديمتريو!؟ إنّني أطالب بدمه، وأعرف قاتله، لذلك أتولّى الدّفاع عن الزكرتاوي.

ـ ولكنّهم، يا راجعة، سيتناهشونك بأنيابهم.. هؤلاء المدّعون بينهم غير قليل من الحثالة!

قالت راجعة:

ـ ستكون نابي هي الأحدّ، وأظافري الطويلة مشارط في أعناق من يتجرّأ عليّ، ويتّهم الزكرتاوي.

قال الطروسي:

ـ سمعتم ما قالت، فما هو رأيكم؟

خرجت من بين الصفوف امرأة في عينيها ما يشبه الحَوَل وقالت:

ـ أنا ضدّ هذه المتبرّجة، ذات الأظافر المصبوغة بالأحمر، الّتي ستدافع عن قاتل حبيبها!

ردّ عليها رسّام يحمل فرشاته وأصباغه:

ـ كفّي عن هذا الهراء. أنت عدوّ بغيض، لأنّك كاتبة فاشلة.. ما رأيكم يا إخوتي؟

ـ صحيح ما تقوله. نحن لا دخل لنا في لون الأظافر.. نوافق على «راجعة» بعد أن عرفنا من هي، ولماذا ستدافع عن الزكرتاوي.

قال الطروسي:

ـ الآن وصلنا إلى المهمّة الأصعب.. مهمّة النائب العام، من يرشّح نفسه؟ لاحظوا أنّنا نعمل في جوّ من الديمقراطيّة. الحرّيّة مكفولة للجميع، المدّعي، والمتّهَم، ومحامي الادّعاء، ومحامي الدّفاع.

قالت المرأة شبه الحولاء، الّتي يتقوّس حاجبها الأيسر عندما تتكلّم:

ـ أنا أقوم بمهمّة الادّعاء العام!

قال الرّسام مرّة أخرى:

ـ أنت لا تملكين نزاهة الادّعاء العام. أنت مغرضة. ما رأيكم يا إخوتي؟

ردّ الحشد:

ـ أنت تقول الحقّ. نرفض نيابة هذه المرأة الحسود.

سأل الطروسي:

ـ من يمثّل الادّعاء العام إذن؟

أجاب الجميع:

ـ كاترين الحلوة.. لأنّها أسطورة الماء واليابسة، وهي عليمة بالبحر والبرّ وقوانينهما.

قال الطروسي:

ـ انتهينا.. هيئة المحكمة هي الّتي توافق على الشهود. لنبدأ. ارفعوا هذا الرّجل وضعوه في قفص الاتّهام. اجلبوا له كرسيّاً، لأنّه سيتعب جدّاً إذا ظلّ واقفاً.

قال أبو فارس:

ـ نسيت تسمية مُحْضر المحكمة يا ريّس!

قال الطروسي:

ـ يا له من نسيان! أقترح تسمية زكريا المرسنلي محضراً للمحكمة.

قال زخريادس الخمّار معترضاً:

ـ أنا لا أوافق! زكريا غريمي قتلني بضربة ساطور وأنا في الخمّارة، وبعد ذلك هجم من كان معه فحطّموا الخمّارة. سرقوا، نهبوا، خربوا بيتي، وبعد أن دمّروا كلّ شيء هرب زخريادس من وجه العدالة، لأنّه مجرم. كيف يجوز أن يكون مجرماً ومحضراً للمحكمة في وقت واحد؟

قال الطروسي:

ـ المحكمة ستنظر في قضيّتك يا زخريادس. هذه محكمة استثنائيّة. محكمة من شكل آخر، كلّ من فيها حتّى رئيسها، مُتَّهَم ومُتَّهِم في وقت واحد. أنا بحّار ولست رجل قانون. ماذا يسمّون محكمة كهذه يا إخوتي؟

قال كرم المجاهدي:

ـ المحكمة الاستثنائيّة هي مجلس عدلي يا ريّس، وهذا المجلس أحكامه مبرمة، فلا استئناف ولا تمّييز ولا نقض، إذن هذه محكمة استثنائيّة في ظروف استثنائيّة.

قال عناد الزكرتاوي الّذي جرّه حارسا المحكمة إلى قفص الاتّهام وأغلقا باب القفص الحديديّ دونه:

ـ أنا أطعن في صلاحيّة هذه المحكمة. أوقفوا هذه المهزلة. انصرفوا. انصرفوا كلّكم. دعونيّ في وحدتي. أنا لست جانياً أو مجرماً. أنا الّذي خلقتكم من ذاتي الأدبيّة، فهل تبلغ القحة بكم أن تحاكموا خالقكم من ذاته الأدبيّة!؟

ردّت أصوات الجمع:
- إنّما نحاكمك لأنّك خلقتنا، أو لأنّك تعذّبنا فتماطل في خلقنا.
- أنـا لم أعذّب أحـداً. كنت عادلاً مـع الجميـع. الّـذين خلقتهم والذّين لم أخلقهم. أطلقوا سراحي.

غمغم الّـذين احتشدوا في القـاعة، وهم يشـيرون بـأصـابـع رمحيّـة اتّهامية إليه:
- بـلى! أنت عـذّبتنـا. أنت أجـرمت في حقّنـا. نحن ضحـايـاك. نطالب بإعدامك أيّها السفّاح. هيّـا! لتبدأ المحكمـة عملها. لتحـاكم هذا المجرم وتحكم عليه بالإعـدام، وتنفّذ الحكم فـوراً، وفي السّاحـة العامّة، لأنّه قتل ديمتريو!

احتجّت محامية الدِّفاع:
- سيّدي الرئيس! أيُّها المستشارون! لا يمكن إجراء محاكمـة عادلـة تحت تأثير هذه الغوغائيّة الشنيعة. لا يجوز أن يُدان موكّلي إلاّ من قبل محكمة ذات صلاحيّـة.. هذه المحكمـة غير صـالحة.. إنّني أطعن في صـلاحيتهـا. كـذلـك أرفض الحكم المسبق. كـلُّ مُتَهَمٍ بـريء حتّى يُدان. موكلي بريء إذن، ولا يحقّ لأحد أن يدينه، أو يقرّر عقـوبته، في أيّ غـابة نحن؟ أنتم قضـاة أم جلاّدون؟ أنتم مـدَّعـون أم شهـود ادّعاء؟ لتكفّ هذه الأصوات. ليأمـر سيِّدي رئيس المحكمـة بإخـراج كلّ هؤلاء المشاغبين من قاعة المحكمة. في هـذه الحال، وفي جـوّ من الهـدوء والتروّي والنـزاهة، يـأخذ العـدل مجراه. وفي مثـل هذا الجـوّ أستطيع القيام بواجبي في الدّفاع، وإلاّ فإنّني أنسحب من المحكمة.

علت الضـوضاء من جـديد. دقّت أعقـاب الأقـلام عـلى المنـاضـد الخشبيّة من كلّ جهـة. طلبـت المـدّعية العـامّة الكـلام، وطلبه ممثّـل الادّعاء، وضرب القاضي بمطرقته طـالباً السّكـوت أو تحويـل المحكمة

إلى جلسة سرّيّة. عندئذ ساد الصّمت رويداً رويداً، وقال رئيس المحكمة أبو فارس:

ـ نحن لا نقطف الرّؤوس البشريّة كما تقطف رؤوس اللّفت النباتيّة. سندرس طلب الدّفاع بشأن عدم صلاحيّة المحكمة، ونحن مع الدّفاع أنّ كلّ مُتّهَمٍ بريء حتّى يدان، لكنّ المحكمة تحتجّ على وصفها بالغابة. هذه قاعة عدل وليست غابة ذئاب، ونحن قضاة لا جلّادون. إنّني أحذّر الدّفاع، ولدينا المادّة القانونيّة الّتي تدين كلّ من يتهجّم على هيئة المحكمة، وسنطبقّها بصرامة. ليكن هذا معلوماً.. والآن ستختلي هيئة المحكمة لتقرّر ما إذا كانت تملك الصلاحية للنظر في التّهم الموجّهة إلى موكّلك يا سيِّدتي، ولكن قبل اختلاء المحكمة للبتّ بموضوع الصلاحية، أعطي الكلام للنيابة العامّة.

نهضت كاترين الحلوة وقالت:

ـ سيّدي الرئيس، بصفتي ممثّلة النّيابة العامّة، أرى أنّ المحكمة قانونيّة، وذات صلاحيّة، وهي مجلس عدليّ بتفويض من الشّعب، صاحب السّلطات كلّها، لذلك أطلب رفض طعن المتّهم الماثل في قفص الاتّهام، وطلب المحامية الّتي هدّدت بالانسحاب. إنّني، يا سيّدتي المحامية، أتّهمك بالخروج عن قانون أصول المحاكمات، وآمل أن تستندي في دفاعك على هذا القانون لا على جمالك..

ـ أحتجّ! أحتجّ!

صاحت محامية الدّفاع. أضافت:

ـ هذا تجريح سيّدي الرّئيس. إنّني أطالب النيابة العامّة بالاعتذار العلنيّ.

قال رئيس المحكمة:

ـ الدّفاع على حقّ. ألفت انتباه النّيابة العامّة إلى الابتعاد عن التّجريح، والملاسنة، وتوجيه الكلام إلى غير هيئة المحكمة. أما

الاعتذار العلنيّ فإنّ المحكمـة تصرف النّظر عنـه. الكلام الآن لممثّـل الادّعاء الشّخصي.

قال ممثّل الادّعاء كرم المجاهدي:

ـ شكـراً سيّـدي الـرّئيس. إنّني أضمّ صـوتي إلى صـوت النيـابــة العـامّة. تهـديد الـدّفاع بـالانسحاب غـير مبرّر. إنّـه ترهيب مجّـاني، مصدره الإعجاب الشّديد بـالنّفس، وبكلمة أخـرى مصدره نـرجسيّة مقيتـة. نحن من بلد ولسنـا من بلد. مـا أريـده هـو أنّنـا لسنـا من بلد بعينه. إنّنا نمثّل جميع البلدان، وجميع القوميّات، وجميع الأعراق، وما يقوله الدّفاع من أنّ المُتَهم بريء حتّى يُدان خطأ. القاعدة المعمول بها هي: «كلّ مواطن مدان حتّى تثبت براءته» إذن فإنّ عناد الزكرتاوي، المـاثـل أمـامكم في قفص الاتّهـام، مــدان إلى أن يثبت العكس. إنّ التّهمة ثابتـة عليه. . ولـديّ، هنا (يضرب عـلى الإضبارة المـوضوعـة أمامه على الطّاولة بيده) الأدلّة الّتي تدنيه. إنّه مجـرم عن سابق تصـوّر وتصميم، فقـد خلق لنفسه مملكـة. وتوّج نفسـه ملكاً عـلى مملكتـه، وراح يقتـل من يشاء، ويغـرق من يشـاء، ويشرّد من يشـاء، وجـزاء هذه الأفعال الإجراميّة الموت؛ الادّعاء يـطالب بإعـدام هذا المجـرم، وأسمح لنفسي بسؤال المدّعين: ماذا تطلبون؟

المدّعون:

ـ الموت للمتّهم!

ـ لماذا؟

المدّعون:

ـ لأنّه مجرم! مجرم! مجرم! وهو الّذي قتل ديمتريو!

أصوات:

ـ وما هي جريمته؟ بل مـا هي جرائمـه؟ وكيف يتّهم بقتل ديمـتريو إذا كان لم يقتله كما قال الدّفاع؟

المدعون:

- جرائمه كثيرة! وسنذكرها واحدة واحدة عندما نُدعى للشهادة.

صاحت محامية الدّفاع:

- أنا أحتجّ! أكرر احتجاجي! أطلب حقّ الكلام.

قال رئيس المحكمة:

- الكلام لجهة الدّفاع. ولكن بإيجاز. بإيجاز شديد. المحكمة لما تبدأ. كلّ ما يقال حتّى الآن هوامش، لا تدخل في صلب الموضوع، مادامت النيابة العامّة لم تلق بمطالعتها الاتّهاميّة بعد، ومادامت المحكمة لم تبتّ بموضوع صلاحيتها أيضاً. هذه فوضى! مرّة أخرى أنبّه الحاضرين إلى ضرورة التزام الصّمت، وإلاّ أخرجتهم من القاعة. الادّعاء تجاوز حدوده، وأحذّره من تكرار هذه الفعلة.

قالت راجعة محامية الدّفاع:

- تجاوز الحدود، سيّدي الرّئيس، يسيء إلى هيئة المحكمة الموقّرة. لقد تجاوز الادّعاء حدوده، وحرّض على الشّغب، فانتشرت الفوضى. في هذه النقطة يؤيِّد الدّفاع رئاسة المحكمة، ويطالب بتسجيل المخالفة التّحريضيّة في محضر الجلسة. أمّا كوني نرجسيّة فهذا هراء. الادّعاء خرق الأصول. استبق الأحداث كي يستر طاووسيّته. إنّ كرم المجاهدي طاووس يفرد ذيله خيلاء، ومكانه، لو أردنا تحرّي الحقيقة، قفص الاتّهام، لأنّه غرّر بفتاة قاصر، بطالبة جامعيّة هي بيروشكا! لقد اغتصبها، وفي هذا الكتاب (رفعت رواية الرّبيع والخريف) قصّة تغريره واغتصابه. أمّا ما يزعمه عن «كلّ مواطن متّهم حتّى تثبت براءته» فهو قول معكوس باعترافه هو نفسه. لذلك أسأله: «في أيّ بلد يحدث هذا؟»

رئيس المحكمة:

ـ السؤال مرفوض.

الدّفاع:

ـ أصرف النّظر عنه. لكنّني أقول للادّعاء إنّ لدي، ههنا في الإضبارة أيضاً، ما يثبت أنّ موكّلي بريء. لقد كرّس حياته لأجل العدالة الاجتماعيّة، فهل نشدان العدالة جريمة؟ لقد سجن خمس مرّات لنضاله ضدّ الانتداب الفرنسي، وسجن أربع مرّات لكفاحه ضدّ الإقطاع، وعاش في المنفى، بسبب ظروف قاهرة، عشر سنوات، وكلّ ذلك، بالإضافة إلى كلّ ما كتبه على مدى خمسين عاماً من حياته، يهدف إلى تحقيق العدالة الاجتماعيّة، فهل أنتم، أيّها الحاضرون في هذه القاعة، ضدّ العدالة الاجتماعيّة؟

أصوات:

ـ نحن مع العدالة الاجتماعيّة.

ـ إذن موكّلي بريء؟

ـ بريء، بريء، بريء!

صرخ ممثّل الادّعاء

ـ أحتجّ! أحتجّ!

رئيس المحكمة:

ـ الاحتجاج مرفوض. أنت البادئ والبادئ أظلم.

المتّهم يصرخ من قفص الاتّهام:

ـ سيّدي الرّئيس! سيّدي الرّئيس ألتمس من محكمتكم الموقّرة أن تستجيب لطلبي في توكيل الأستاذ مُرّان الطّوراني للدّفاع عني.

ضجّة في القاعة، الرّئيس:

ـ أفهم من هذا أنّك تسحب توكيلك من محاميتك؟

المتّهم:

ـ معاذ الله يا سيّدي.. إنّها محامية بارعة. وهي موضع ثقتي الكاملة، لكنّني أرغب في توكيل الأستاذ مران الطّوراني للدّفاع عني أيضاً.

في هذه اللّحظة تبرز من بين الصفوف مريم السودا:

ـ وأنا أتبرّع بالانضمام إلى الادّعاء إذن.

أصوات:

ـ ولكنّك جاهلة يا مريم!

مريم:

ـ إذا كانت المرأة جاهلة فإنّ الرّجل أجهل.

أصوات أخرى:

ـ هذه محكمة وقوانين، وليست خناقة في حارة يا مريم!

مريم:

ـ لا عذر لأحد في جهل القانون. هذا أوّلاً، وثانياً فإنّ مرّان الطّوراني آخر من خلقهم المتّهم، وأنا أوّل من خلقهم، وهكذا نتعادل في معرفة قضيّة المتّهم بداية ونهاية.

يتشاور الرّئيس مع مستشاريه ويعلن:

ـ قُبِلَ طلب توكيل مُرّان الطّوراني للدّفاع، وطلب مريم السّودا للادّعاء.

أصوات:

ـ يحيا العدل!

نايف الفحل:

ـ أيّ عدل يا ناس!؟ هذه زوجتي، عدوّتي، وهي لا تصلح إلاّ للطبخ والنّفخ، وهي فوق ذلك عاقر!

مريم السّودا:

ـ هذه حجّة الرّجل وكذبته دائماً. الرّجل، سيّدي الرّئيس، عنتر في مجتمع الذكور، وما على المرأة سوى طاعته. يقول لها: اجلسي تجلس. انهضي تنهض. انحني تنحني. دوري إلى اليمين تدور. دوري إلى اليسار تدور. ارقصي ترقص. .

نايف الفحل مقاطعاً:

ـ أنا لم أطلب منها أن ترقص أبداً.

مريم السّودا:

ـ أنا رأيت رجلاً يضرب زوجته حتّى تبكي، ثمّ يعزف على الشبابة ويأمرها أن ترقص فترقص. كانت هذه هوايته، وكان يكرّر الضّرب والتّرقيص مرّات عديدة في اليوم. . ثمّ إنّني ولود، وزوجي هو العاقر.

النّائبة العامّة:

ـ ما تقوله مريم السّودا صحيح سيّدي الرّئيس. اسأل نساء هذا البلد. وحتّى اسأل نساء العالم، الضّرب شغّال، والتّرقيص شغّال، وفي كلّ مكان من العالم. رغم أنّ المرأة أخذت بعض حقوقها عندنا، وأكثر حقوقها في العالم. أمّا من هو العاقر بينهما فليس من صلاحيتنا. . نحن محكمة ولسنا عيادة أو مختبراً للأمور التّناسليّة. لنغلق هذا الموضوع، فهو قديم قدم آدم وحوّاء، مع سابقة حسنة لحوّاء، هي إنهاء بلادة آدم، والهبوط معه من الجنّة إلى الأرض، حيث الكفاح الّذي هو لذّة الحياة.

أصوات نسائيّة:

ـ تحيا النيابة العامّة!

أصوات رجاليّة:

ـ تسقط النيابة العامّة!

مطرقة الرّئيس تتدخّل:

ـ سكوت! لاّ أحد يتكلّم. هيئة المحكمة تنسحب للمذاكرة.

تنسحب هيئة المحكمة، ويختلط الحاضرون، وتعلو الضجّة، ويجلس عناد الزكرتاوي على مقعده ورأسه بين يديه، وتخمع مريم السّودا وهي تمرّ أمام نايف الفحل متحدّية، سائرة إلى النّائبة العامّة كاترين الحلوة لمصافحتها وتهنئتها، بينما المُحضر زكريا المرسنلي يصيح بالحشد:

ـ هدوء! هدوء! هذه محكمة يا أوباش! محكمة بحقّ وحقيق. سمعت عبعوب مرّة يقول: «في غياب العصا يختلط الحابل بالنّابل، والنّاشف بالتّابل..»

أصوات:

ـ أنت تكذب يا زكريا.. عبعوب لم يقل هذا. اقرأ «الياطر» تعرف..

زكريا:

ـ أنا لا أقرأ ولا أكتب يا إخواني، أنا زكريا الّذي ركبته شكيبة، وبعد ذلك صارت تطلع عليه امرأة وتنزل امرأة..

أصوات:

ـ أنت دابّة إذن يا زكريا!

أصوات أخرى:

ـ بل هو حمار بحري يا إخواننا، نصفه حيوان ونصفه إنسان، وهو ببغاء فوق ذلك، يردّد ما يقوله عبعوب دون أن يفهم شيئاً..

زكريا المرسنلي:

ـ أنتم مخطئون يا أبناء الإبرة. . أنا أفهم كلّ ما يقوله عبعوب.

صوت:

ـ ما هو الحابل والنّابل إذن؟

ـ الحابل هو الّذي بين رجليك!

ـ والنّابل!؟

ـ هو الّذي في مؤخّرتك!

ـ أنت سفيه وعاهر يا زكريا.

زكريا:

ـ محكمة!

يسود الصّمت. تدخل هيئة المحكمة. يأخذ الجميع أماكنهم. يدخل الشّهود، يجلسون إلى يمين القوس. قفص الاتّهام إلى اليسار وإلى جانبه، في الصف الأوّل للحضور، يجلس محاميا الدّفاع، برداء أسود فوق الثّياب، تتدلّى منه، في نهاية شريط أسود أيضاً، قطعة فرو بيضاء، كذلك يجلس محاميا الادّعاء، في مقدّمة الصف الأوّل إلى اليمين، إلى جانب النيابة العامّة. يرفع رئيس المحكمة، أبو فارس، المطرقة الخشبيّة ويضرب ثلاث ضربات. يتنحنح بعدها ويعلن:

ـ باسم الشّعب. .

«عناد الزكرتاوي: أيّ شعب هذا!؟»

ـ تُعلن هيئة المحكمة. .

«عناد الزكرتاوي: أيّة محكمة عجيبة هذه!؟»

ـ أوّلاً: صلاحيتها للنظر في الدّعوى الّتي بين يديها.

«من الّذي أقام هذه الدّعوى وبأيّ حقّ!؟»

ـ ثانياً: اختيار الشّهود من ذوي الأخلاق الحميدة والسّمعة الحسنة.

«هذا ادّعاء باطل. . بين الشهود جزّار وبقّال وطبيب دجّال!»

- ثالثاً: السّير في الدّعوى حسب الأصول، والاستعانة بالخبراء.

المتّهم عناد الزكرتاوي يصرخ:

- كلّ هذه البنود باطلة. الشّعب، أقصد القرّاء، غير موجودين هنا، أطلب إحضار قرّائي.

رئيس المحكمة:

- بين الخبراء نقّاد، وهم قرّاء لأنّهم نقّاد، هل تجادل بهذه البدهيّة أيضاً؟

المتّهم الزكرتاوي:

- أجادل؟ نعم أجادل! أطعن أيضاً! القرّاء غير النقّاد. القرّاء يقرأون بقلوبهم البريئة، وبعض النقّاد يطبقون نظرياتهم الرّديئة، وفي رؤوسهم، غالباً، أحكام مسبقة وجاهزة!

رئيس المحكمة:

- أنت ترفض النقّاد إذن؟ هذا يخالف ما كنت تصرّح به للصحف والمجلّات.

المتّهم:

- أنا لا أرفض النقّاد جميعاً. بيني وبين أكثرهم علاقات احترام متبادل. أرفض الّذين يتعتعون بالكلام من السّكر، والّذين يعزلون النّصّ، وأولئك الّذين يرسمون خطوطاً ودوائر ويتسقّطون المفردات باسم البنيويّة أو الألسنيّة، وكذلك الّذين في قلوبهم مرض. أريد قرّائي. الّذين ذكرتهم لا يقرأون ما في الكتب، بل ما هو تحت جلودهم الصّفراء، لدي أدلّة على ذلك. .

الرّئيس مقاطعاً:

- كفى! احتفظ بأدلّتك إلى حين الدّفاع.

المتّهم:

- أنـا لست في موقف دفـاع. أنتم الّذين اتّهمتمـوني، وأنتم الّذين وضعتموني في موقف الدّفاع، وهذا ظلم! أليس ظلماً هذا يا أبنائي؟

أصوات:

- بلى! إنّه ظلم يا أبتاه!

الدّفاع:

- نطلب تسجيل هذا الجواب سيّدي الرئيس.

الادّعاء:

- هـذه أجوبـة باطلة سيّـدي الرّئيس. الكتلة البشـريّـة الّتي تـراها أمامك تندفع مع التيّار لا مع الحقّ. مرّة تصرخ: «إنّه مجرم!» ومـرّة: «إنّـه بريء» وهـا هي تناقض نفسهـا بنفسها. إنّها الـدّعـاوة. الكتلة البشريّة تحرّكها حماسة الكلمـة، فتقول الشيء وضـدّه في وقت واحد. حـين أقامت هـذه الكتلة البشريّـة دعواهـا أمـام محكمتكم المـوقّـرة، اتّهمت هـذا المـاثـل في قفص الاتّهـام بـالـظلم، وفجـأة لعبت بعض الكلمات المـزوّقة بعقـولها فقـالت إنّه مـظلوم. نـطلب عـدم تسجيـل الجـواب الأخير في محضر الجلسـة، لأنّ الـدّفـاع سيستغلّه، سيشهـره كـالسيف في وجوهنـا. الدّعـاوة سـلاح خـطر. ريـح هـوجـاء تقلب السكينة إلى عاصفة، وأنتم أدرى بتأثـير «البروبـوغندا» عـلى الدّهمـاء سيّدي.

المتّهم صارخاً:

- أنـا مظلوم! مـظلوم والله! مظلوم يـا سيّدي! هؤلاء أبنـائي. أنا خلقتهم. أنـا من جئت بهم إلى الـوجـود. ألم تسمعهم ينـادونني «يـا أبتاه!؟» الابن لا يقاضي والده.

الادعاء:

ـ بلى! الابن، في هذا العصر، يقاضي والده، والأخ يقتل، منذ قابيل وهابيل، أخاه!

المتّهم الزكرتاوي:

ـ إذن هو عصر فاسد! بل هو عصر مجيد وسافل كما قيل فيه، وها نحن نعيش سفالته. أمّا مجده فسيأتي. . ألن يأتي مجده يا أبنائي؟

أصوات:

ـ بلى! سيأتي مجده يا أبتاه. فإذا لم يأتِ في هذا العصر، سيأتي في العصور القادمة.

الادّعاء بانفعال:

ـ انتظروا إذن العصور القادمة. . العصور الّتي تأتي ولا تأتي، لأنّها عبثيّة، وطويلة جدّاً جدّاً!

أصوات:

ـ ونحن سننتظرها جدّاً جدّاً!

الادّعاء:

ـ ستملّون.

أصوات:

ـ لن نملّ.

ـ ستيأسون.

ـ لن نيأس. المناضل هو من لا ييأس. هكذا علّمنا أبونا.

الادّعاء:

ـ أبوكم الآن في قفص الاتّهام، وغداً على حبل المشنقة، تمهّلوا تروا. هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإنّ المتّهم أبونا كلّنا، لكنّكم أنتم أبناؤه الضّالّون، ونحن أولاده الأوفياء (يخرج كرم المجاهدي من

مقعده ويتقدّم نحو المتّهم) هل تنكر بنوّتي أيّها الرّجل؟ هل تنكـر بنوّة رئيس المحكمة والمستشارين والنيابة العامّة والدّفاع أيضاً؟

المتّهم:

ـ لا أنكر شيئاً. سجّلوا: لا أنكـر شيئاً. وكـما قال المتنبّي: «فيـك الخصـام وأنت الخصم والحكم» أنتم أبنائي العـاقّون. أنتم خصـومي وحكّامي، فماذا أفعل؟ لقد تعبت! تعبت إلى درجـة الانهيار! (يبكي) إنّني أبكي على نفسي وعليكم.. حاكموني كما تريدون!

رئيس المحكمة بصرامة:

ـ كفى! لننـهِ هذا «الـدّيالـوج» الثُناني.. لنـوقف هـذه الاتّهـامـات المتبادلة. لا وقت لـدينا للمهـاترات.. لتتفضّـل النّائبـة العامّـة وتُلْقِ مطالعتها.

تقف النّـائبة العـامّة كـاترين الحلوة فتّتجـه إليها الأنـظار، تـراقبهـا ريبة وحذراً. ترزّ مسامير الحسد في يديها ورجليها، حين هي مرفوعـة على صليب الاتّهام كقاتلة، وحده القدر شاء لها أن تقوم بدور الادّعاء بـاسم المقتولـين حتّى من ضحايـاها أنفسهم. النّـار لاتـزال تشتعـل. زكـريا المـرسلي، وهـو حافي القـدمين، معصـوب الـرّأس، يغـذّيهـا بالحطب، فتتعالى خصلات اللّهب، شللاً حمراً لشعور أبالسة تقنفذها الرّيح، وتصعد بها إلى أعلى. إنّه التّناسل، التّناسل الدّائم، مخلوقات بعد مخلوقات، ترتسم أجساماً ينفخ الدّفء فيها الرّوح، فتتحرّك فوق المدفأة وتنفصل عنها لتستقلّ بذواتها، وتتّخذ لها أماكن عن يمين ويسار قوس المحكمة الّذي يتصدّره أبو فارس بـوقاره وهيبتـه وطاقتـه وجَلَده غير المعروفة عند سواه. وجهه الموشّح بالطّيبة موشّـح بالقسـوة أيضاً. ملامحه المهيبة، الّتي تليق برئيس محكمة، تنضح بطبيعيّة أصيلة، كـأنّه خلق، منـذ خلق، قاضيـاً مهمّتـه أن يحكم بحسم ولكن بعـدل بـين المتقاضين. عناد الزكرتاوي جالس بعد أن أذن له الرّئيس بـالجلوس.

يحدّق في النّار بأكثر وأشدّ ممّا يحدّق في الحاضرين، ترتسم على جبينه الهرم غضون تدلّ على تفكير متّصل كأنّما يعصر ذاكرته، دون جدوى، ليتعرّف إلى الوجوه الجديدة للكائنات الّتي تتخلّق أمامه. الادّعاء متوفّز. كرم المجاهدي يقلّب أوراقاً أمامه. مريم السّودا تنسج الكفن الّذي هو وزرة بيضاء لمحكوم بالإعدام، يتدلّى من حبل المشنقة. الدّفاع في حال من الهدوء، بين الاسترخاء والسّخرية. راجعة تستحضر في فضاء القاعة مكتب والدها، ذا الأبّهة. مُرّان الطّوراني يرسم مسوخاً كاريكاتوريّة بأنوف طويلة، محدّبة، وعيون مشروطة عموديّاً، وشعور غوليّة من عالم ألف ليلة وليلة. جوّ القاعة مشبع بدخان أزرق، يتمازج مع رماديّة النّهار المكفهرّ فيتولّد عنه لون رصاصيّ قاتم. الحاضرون، مدّعين وشهوداً، يقوم تمايز واضح بينهم الآن. إنّهما طرفان نقيضان، ولكلّ طرف جوقته الهتّافة المستعدّة، كالوتر المشدود، لأن تعزف لحنها بأصوات كوراليّة ما إن ترى ضرورة لذلك. وحدها كاترين الحلوة، المنتصبة بقامتها الفارعة، وجمالها الحادّ، المدخول بسحر اليابسة والماء، تمسح الجميع بنظرات سريعة نافذة، فيها حرارة وبرودة في آن، غايتها السيطرة قبل الكلام، كأستاذة محاضرة في جامعة هنديّة، يلعب فيها الإيماء سحر الكلمة، لتهدئة ضوضاء الطّلّاب وتنويمهم قبل أن تهجم على موضوع محاضرتها فيهم.

ـ سيّدي الرّئيس!

قالت وهي تدلّ بفتنتها، مستخدمة صوتاً موسقاً، واثقاً، منطوقاً بتجويد، معتدل الجرس، في محاولة جادّة ومتقنة لإظهار حياديّتها، باعتبارها ممثّلاً عدلاً للحقّ العامّ.

ـ سادتي المستشارين، سيّداتي وسادتي المحلّفين!

«وددت لو أُعفى من المهمّة الموكولة إليّ. لا لجبن في النّفس، أو

خَوَر في المواجهة، أو شَكٍّ في القدرة على النّزاهة الكاملة، إنّما لأنّني، في هذه القاعة، أشهد أغرب محاكمة لأعجب ادّعاء. غرابة المحاكمة أنّها عائليّة، بين خالق ومخلوقاته، بين أب وأولاده، وعجيبة الادّعاء أنّه ادّعاء بظلم وقع ولم يقع، صادر عن كائنات رأت النّور، وكائنات تنتظر دورها لتراه، والمتّهم مسؤول عن الّذين استولدهم من رحم الغيب، ومنحهم الحياة، وعن الّذين لم يستولدهم بعد، لأنّ حينهم لم يحن بعد، ولهذا فالقضية مكتنفة بالشهبات، والقاعدة الفقهيّة تقول: «ادرأوا الحدود بالشبهات».

أصوات:

ـ هذا تحيّز إلى جانب المتّهم. هذا دفاع وليس اتّهاماً. أوقفوا جنيّة البحر هذه. امنعوها من الكلام الملتبس الّذي هو إلى جانب المتّهم، بينما كان يجب أن يكون ضدّه، لكنّه في التباسه المتعمّد، يرمي إلى التبرئة، يمهّد لها، ويستبعد الإدانة في مراوغة ثعلبيّة.

أصوات أخرى:

ـ هذا عَدْل. النيابة العامّة مخوّلة الدّفاع عن الحقّ العامّ، ومن صلاحيتها أن تتبنّى قرار الاتّهام أو ترفضه. إنّها تطرح الوقائع وتترك للمحكمة والشّهود أن يروا رأيهم في القضية المعروضة عليهم. دعوا عروس البحر تكمل مطالعتها، ارفضوا القَدْح الموجّه سناناً ضغائنيّاً إليها. ليس هناك التباس في الكلام، أو مراوغة ثعلبيّة. اطردوا المتحاملين المشاغبين من القاعة.

مطرقة الرّئيس، خلال ذلك كلّه، ماتنفكّ تضرب على خشب القوس، وعندما استتبّ الهدوء، قال أبو فارس:

ـ الزموا الصّمت جميعاً. الّذين مع والّذين ضدّ. لا تقاطعوا النّائبة العامّة، افسحوا لها المجال كي تقول ما تشاء، والمحكمة، وكذلك

الشهود، لديهم الأهليّة والضّمائر الحيّة، وهم قادرون على تمييز الالتباس، لا في الكلام وحده، بل في البنية الّتي وراءه.

أصوات:

ـ هذا هو الصّواب. هذه روحيّة العدل. الأعمال بالنيّات، والنّوايا تستعلن ولو تستّرت بأرديّة مانعة للكشف. اسمعوا وعوا. المطالعة في طور التّمهيد، فلا تتسرّعوا في الحكم على ما في السّريرة بعد.

أصوات أخرى:

ـ هذه مصادرة لحقّنا في التّنبيه. نحن نلفت هيئة المحكمة والشّهود إلى الزيف.. المكتوب يقرأ من عنوانه، والمطالعة تعرف من توطئتها. قولتنا واحدة: اعزلوا كاترين الحلوة وانتدبوا سواها.

مطرقة الرّئيس تعلو وتهبط، وصوته الجهوري يدوّي في القاعة.

ـ حذار! حذار ثلاثاً! من يقاطع يطرد، يُلْقَ خارجاً بين المنبوذين.. لتكمل النيابة العامّة مطالعتها.

الادّعاء:

ـ نلفت نظر المحكمة الموقّرة إلى نقطة أصول. ينبغي العودة إلى أصول المحاكمات قبل إكمال مطالعة النيابة العامّة.

الرّئيس:

ـ نحن نراعي الأصول.

ـ الادّعاء يحتجّ. هناك خروج خطير عن الأصول، ربّما بسبب النّسيان. كان على المحكمة أن تبدأ باستجواب المتّهم أوّلاً.

الرّئيس:

ـ نستجوبه بعد مطالعة النيابة العامّة. نراعي الأصول مادام الادّعاء متمسّكاً بها. مع أنَّ هذه المحكمة لها أصولها الخاصّة، غير المكتوبة في أيّ كتاب، وغير المنصوص عليها في أيّ قانون.

الادّعاء:

- لا محاكمة دون قانون أصول المحاكمات. نحن، في هذه النقطة، نراعي الأصول الّتي قرّرت المحكمة أنّها تخوّلها صلاحيّة النّظر في الدّعوى الّتي بين يديها. بالإضافة إلى ذلك فإنّ الادّعاء يقدّم مساعدة قانونيّة للنيابة العامّة، والدّفاع لا يعترض، أو لا يستطيع أن يعترض، على ادّعاء الادّعاء، مادام هذا الادّعاء قانونيّاً.

الدّفاع:

- لا اعتراض لدينا على استجواب المتّهم قبل سماع النيابة العامّة، مع أنّنا نعرف النيّة المبيّتة وراء ألاعيب الادّعاء.

الرّئيس:

- ما رأي النيابة العامّة؟

- لا اعتراض لديها. الادّعاء يثير نقطة أصول قانونيّة. وقد تفيد النيابة من استجواب المتّهم، فتضيف اتّهاماً جديداً إلى مطالعتها، لم يلحظه قاضي الإحالة.

الرّئيس:

- المحكمة لا تمانع في استجواب المتّهم إذن.. قف يا عناد الزكرتاوي وأجب على الأسئلة الموجّهة إليك باختصار وصدق: اسمك الثّلاثي وتاريخ ولادتك ومكانها.

- عناد عاطف الزكرتاوي، تاريخ الولادة ١٩٢٠، المقداميّة

الادّعاء:

- المتّهم يماري. هذا ليس اسمه، والمقداميّة ليست مكان ولادته، وتاريخها غير صحيح.

الرّئيس:

- والمهنة؟

ـ رسّام!

الادّعاء:

ـ هذا غير صحيح أيضاً. الادّعاء يطلب تسجيل الأجوبة حرفيّاً، و. .

الرّئيس مقاطعاً بحسم ولكن بهدوء:

ـ على الادّعاء أن يكفّ عن محاولاته. كاتب المحكمة يسجّل كلّ كلمة بحرفيّتها، وفي وسع الادّعاء قول ما يشاء في مرافعته.

الادّعاء:

ـ سنفعل ذلك سيّدي الرّئيس، وفي وقته المحدّد، لكنّنا نلفت النّيابة العامّة إلى أنّ المتّهم يكذب في كلّ كلمة يقولها.

النّيابة العامّة:

ـ لا حاجة لهذا اللّفت. إنّنا نسمع، ونعرف، ونقدّر، وهذا الاستجواب شكليّ بحت، لكنّنا وافقنا عليه كي نزيد الادّعاء اطمئناناً، فماذا يريد بعد من مقاطعة الرّئاسة؟ ولماذا خروجه على الأصول، هو الّذي يزعم أنّه يتمسّك بها؟

الدّفاع:

ـ لتسمح لنا الرّئاسة بأن ننصح الادّعاء بالهدوء وترك الانفعال. هذا يضرّ بصحّته، ويجعله يبدو وكأنّه يجلس على أعصابه، أو الأصحّ يجلس على نابض يدفع به إلى أعلى وأدنى، دونما مبرّر.

الادّعاء باهتياج:

ـ هذه لغة مرفوضة هنا. التّجريح مرفوض، ولديّ المبرّر الكامل لما أقول سيّدي الرّئيس، المتّهم يكذب!

الدّفاع:

ـ هـذا قذف مسبق. الادّعـاء يشمّـر عن سـاقيـه الجميلتـين قبـل الوصول إلى النّهر.

الادّعاء:

ـ أحتجّ على هـذه السّخريـة، وأطلب تسجيل احتجـاجي. المتّهم يكذب! نعم يكذب! إنّه مزيّف ومتنكّر، ولدينا الأدلّة على ذلك.

أصوات:

ـ نعم! نعم! المتّهم مزيّف ومتنكّر، ونحن «نعرف أصله وفصله!»

أصوات:

ـ لا! لا! هذا افتراء. المتّهم صادق وواضح. ونحن أيضـاً «نعرف أصله وفصله».

الرّئيس يضرب بمطرقته:

ـ هدوء! الزموا الهدوء! دعوا هذا التّهريج كلّكم. صـدر المحكمة رحب فلا تجعلوه يضيق. أحذّركم من التّمادي، ومن محاولات التّـأثير عـلى سـير المحـاكمـة.. هـل تعـرف التّهم المـوجّهـة إليـك يـا عنـاد الزكرتاوي؟ وهل تقرّ بأنّك مذنب؟

المتّهم:

ـ لا أعرف التّهم الموجّهة إليّ، وأنا غير مذنب.

الرّئيس:

ـ إذن لتتفضّل النّيابة العامّة بإكمال مطالعتها.

النّيابة العامّة:

ـ ولـد المتّهم عام ١٩٢٦ في الشّـادوفيّـة وليس في المقـداميّـة، إذن هناك، في هذه النّقطة، مغالطتان: أولاهما أنّ تاريخ الولادة، المسجّل في الهـويّة الشّخصيّـة، هـو ١٩٢٦، وثـانيهـما أنّ مكـان الـولادة هـو الشّـادوفيّة، وفي هـذا التلاعب غشّ واضـح، وأنـا أسمّيـه احتيـالاً،

القصد منه تضليل المحكمة. أمّا ما هو أخطر فإنّه التنكّر، بهدف التملّص من تبعات الوقائع، فالمتّهم ليس عناد الزكرتاوي. عناد الزكرتاوي غير موجود، لا في الهويّة الشّخصيّة ولا على الكتب، وهذا انتحال شخصيّة، ثابت بالأدلّة، ويكفي للتّدليل عليه، أن أقدّم للمحكمة الموقّرة رواية «بقايا صور» ففيها اعترافات المتّهم الكاملة، بشأن الاسم وتاريخ الولادة ومكانها، وهذه الاعترافات تشكّل تزويراً يعاقب عليه القانون، لكنّني لن أتوقّف عند مسألة التّزوير، وإذا كنت قد أوردتها فلكي أبرهن، منذ البدء، أنّ المتّهم يحاول، وبإصرار، خداع المحكمة، كما خدع قاضي التّحقيق، كي يتفلّت من العقاب الّذي ينتظره.

«سيّدي الرّئيس! سادتي المستشارين!.. إنّ المتّهم الماثل أمامكم مجرم خطير، فقد قتل ديمتريو، وكذلك البحّارة الّذين نزلوا لإنقاذ الرحموني، في «الشّراع والعاصفة» وقتل زخريادس الخمّار في «الياطر» وأمات صالح حزّوم غرقاً في «حكاية بحّار» وأغرق ثلاثة من الريّاس في «الدقل» و«المرفأ البعيد»، وقتل حليش ومفيد الوحش في «نهاية رجل شجاع»، وتجدون الأدلّة في هذه الكتب الّتي أمامي، والّتي سأضعها بين يدي محكمتكم الموقّرة، كما أقْدَم المتّهم، تحت ستار النّضال لأجل العدالة الاجتماعيّة، على نشر «الأفكار الهدّامة» وإثارة «الصّراع الطّبقي»، والانضمام إلى حزب محظور، وكلّها أفعال يعاقب عليها قانون الجمعيّات العثماني، كذلك قام المتّهم بالافتراء، وتشويه السّمعة، والقدح والذّم، وأحسب أنّني، لو أردت تعداد ضحاياه، في «مأساة ديمتريو» و«حمامة زرقاء في السّحب» وغيرهما، فإنّ قراءة المطالعة ستستغرق السّاعات، لذلك أكتفي بهذا التلخيص الشّديد والمكثّف، وأضع تحت تصرّفكم نصّ المطالعة، وفيها، بتفصيل، جميع التّهم، وجميع الأدلّة، وأشير إلى المواد القانونيّة الجرميّة بأرقامها،

ودلالاتها، تاركة لعدالة المحكمة، ونزاهتها المطلقة، وجدارتها المعترف بها، أن تحكم بما تراه، بعد سماع شهود الإثبات والنّفي، وأقوال الادّعاء والدّفاع، والرجوع إلى القناعة الوجدانيّة، المتشكّلة من كلّ ذلك، والمستندة إلى الموادّ الجرميّة.

تضيف النّيابة العامّة:

سيّدي الرّئيس! إنّ المتّهم الّذي يظهر المسكنة لا النّدامة، وينكر معرفته بالتّهم الموجّهة إليه، ويصرّ على أنّه غير مذنب، مجرم عريق في الإجرام، وقد حاول الهرب من وجه العدالة، فجاء إلى هذا البيت المنعزل، المقطوع الصّلة بالعالم، متنكراً اسماً ووجهاً، كي لا يهتدي إليه أحد، ولشدّ ما أنّبه ضميره، في الماضي والحاضر، حتّى بلغ به الأمر أنّه فكّر كثيراً بالانتحار، للخلاص من تبكيت هذا الضّمير، فعمد إلى محاولات انتحاريّة تراجع عنها، في اللّحظة الأخيرة، لأنّه لم يملك الشّجاعة على تنفيذها. ولديّ، هنا، دليلان ثابتان على هذا القول: أوّلهما زجاجة الحبوب المهدّئة هذه (ترفعها بيدها) الشّديدة التّأثير، الّتي وضعها على الكومودينة قرب سريره، مع كأس من الماء، بعد أن أقفل الباب، وتمدّد مستلقياً على ظهره، كي يشربها دفعة واحدة، وينتحر على طريقة الّذين انتحروا بالحبوب المهدّئة، ولابدّ أنّه قرأ عنهم، والدّليل الثاني هو البندقيّة المخبّأة خلف الباب، وراء غطاء من خشب، في الطّابق الأعلى من هذا البيت، وقد أنزلها إلى هذه القاعة ليلة وصوله، بذريعة الدّفاع عن نفسه، وفي أعماقه إضمار خفيّ بقتل نفسه، ثمّ جبن كالمرّة الأولى، وأعاد البندقيّة إلى مكانها، خوفاً من مجرّد رؤيتها، وإنّي لألتمس من محكمتكم الكريمة أن تأمر بإحضارها وتتحرّز عليها، كدليل جرمي، لمحاولة انتحاريّة، على طريقة الكاتب الشّهير أرنست همنغواي، لم يقيّض لها النّجاح.

وإذا كان المتّهم لم ينتحر حتّى الآن، فإنّه لم ينقطع، ولن ينقطع،

عن التّفكير في الانتحار، وعن إعلان ذلك في كتاباته ومقابلاته الصّحفيّة، وهذه تهمة جديدة تضاف إلى التّهم السّابقة، ومنها تهمة الاجتراء على الجنس في روايته «الياطر»، وعقوق الأبوّة، في ثلاثيّته «بقايا صور» «المستنقع» «القطاف» الّتي قدّم فيها أمّه كقدّيسة، ووالده كضلّيل، متحلّل من كلّ مسؤوليّة عائليّة واجتماعيّة.

ختاماً، وبالاستناد إلى كلّ ما تقدّم، تطالب النّيابة العامّة بإنزال العقوبة الأشدّ بالمتّهم، وهي الإعدام شنقاً حتّى الموت، دون رحمة، ودون الأخذ بأيّة أسباب تخفيفيّة غير متوفّرة، وبتر هذا العضو الفاسد من جسم المجتمع، حماية له من الإجرام وباقي الشّرور.

الادّعاء، مريم السّودا:

ـ ليأذن لي، سيّدي الرّئيس، أن أضيف إلى مطالعة النّيابة العامّة، وما اندرج فيها من تهم، تهمة أخرى، هي موقف المتّهم من المرأة، وأن أتقدّم بلائحة شهود الإثبات، الّتي وضعناها، زميلي كرم المجاهدي وأنا، بالتّضامن والتّكافل، مع الاحتفاظ بحقّنا في تقديم أسماء شهود آخرين، حسبما يرى الادّعاء ذلك ضروريّاً، وفي حينه.

الدّفاع، راجعة:

ـ إذا كان المكتوب يُقرأ من عنوانه، فإنّ الإنسان يعرف من سماته. ممثّلة الادّعاء الغُرابيّة نيّة وضميراً، لديها أسبابها في موقفها المسعور هذا، فهي لا تكتفي بالتّهم العديدة الّتي ساقتها النيابة العامّة للمتّهم، بل تريد أن تغرقه في مخاضة من التّهم الأخرى، وبينها تهمة موقفه من المرأة. الدّفاع يؤيّد الادّعاء في مناقشة هذه التّهمة، لإسقاط أقنعة شمعيّة عن وجوه كثيرة، بينها أقنعة نسائيّة ورجاليّة، طالما تخفّى وراءها أصحابها لتوجيه الافتراءات إلى المتّهم، مدفوعين بعقد نفسيّة تتطلّب المعالجة في أيّما عيادة خارج هذه القاعة. إنّنا، عند مناقشة

موقف الموكّل من المرأة، سنقول كلاماً، ونسوق أدلّة، تسودُّ لها بعض الوجوه، وبعض الضمائر، بأشدّ ممّا هي سوداء. .

الادّعاء يقاطع. . مريم السّودا تصرخ:

ـ هذا تشويه لئيم، ينطوي على تجريح أشدّ لؤماً. إنّني، وللمرّة الثانية، أعلن تضامن الادّعاء مع النّيابة العامّة، وفي كلّ أقوالها.

النّائبة العامّة، كاترين الحلوة:

ـ لكنّ النّيابة العامّة غير متضامنة مع الادّعاء. إنّه استغلال بشع ومرفوض.

رئيس المحكمة:

ـ ليلزم الادّعاء والدّفاع حدودهما. الردح الثّنائي ليس هذا مكانه.

الادّعاء، كرم المجاهدي:

ـ ما قالته زميلتي ليس ردحاً. تنبيه الرئاسة موجّه إلى محامية الدّفاع. نعم! هناك تهمة بيّنة، هي موقف المتّهم من المرأة، ونحن نصرّ على توجيهها، وسنورد نصّاً لأحد الكتّاب، اتّهم فيه الزكرتاوي، بأنّه شوّه صورة المرأة في بعض رواياته.

أصوات نسائيّة:

ـ المتّهم لم يشوّه صورة المرأة. نحن النّساء، وبيننا من تمسّها هذه الافتراءات، نؤكّد العكس. المتّهم رفع حتّى العاهرة إلى مستوى الكرامة الإنسانيّة، وهذا ثابت في كتبه: الياطر، مأساة ديمتريو، الأبنوسة البيضاء وغيرها. إنّ المرأة، في هذه الرّوايات، رائعة البهاء.

صوت رجل:

ـ أنا الكاتب الّذي أتّهمَ المؤلّف ولديّ الدّليل.

صوت امرأة:

ـ ومتى كان هذا الاتّهام؟ في حالة السّكر أم في حالة الصّحو؟ إنّ

هذا الكاتب، أيّها الحاضرون الشّرفاء، متحامل، وكحولي لعين، وسأروي، عندما أُدعى للشهادة، وقائع تعتعة ضُبط فيها، وهو في أحد الفنادق، عارياً، لأنّ الفندق ضجّ من سكره وعهره، ورفض تقديم المزيد من الخمرة إليه، فتعرّى وخرج من غرفته كما ولدته أمّه. كي يخرج النّزلاء، ويضطّر صاحب الفندق إلى تقديم العرق له. كان ذلك في بلد أعرفه، وسأذكره. وقد طرد من الفندق عقاباً على فعلته، وأبى المتّهم أن يتدخّل لحمايته، أو يقدّم له مالاً إضافيّاً، وهذا هو سبب نقمته عليه. . إنّه كاتب يبتزّ بكتابته، وهو بالوعة خمرٍ إذا ما قُدّم له الخمر مجاناً.

الكاتب صارخاً:

ـ هذه المرأة تخرّف. أنا أعرفها!

المرأة:

ـ وأنا أعرفك. أعرفك جيّداً، وقد أخطأ الادّعاء بتقديم اتّهامك مستمسَكاً. إنّني أطلب من الدّفاع أن يطلبني للشهادة عند مناقشة هذه النّقطة، فلديّ، أنا أيضاً، قصص تثبت من يشوّه من، أليس كذلك أيّها الكاتب!؟ ولكن أين أنت!؟ لماذ تواريت عن الأنظار!؟ سيّدي الرّئيس، أرجوك أن تطلب إحضاره موجوداً عند مناقشة موقف المتّهم من المرأة.

النّائبة العامّة، كاترين الحلوة:

ـ ليس للنّيابة العامّة اعتراض على أقوال هذه المرأة، لكنّ الاعتراض، إذا ما سمحت المحكمة الموقّرة لي بالكلام، موجّه إلى الخروج عن القضيّة الأساسيّة، عن الخطّ الرّئيسي، إلى خطوط جانبيّة، ثانويّة، بقصد تعطيل سير الدعوى.

الدّفاع، مُرّان الطوراني:

ـ شكراً للنّيابة العامّة على موقفها. الدّفاع على خصام معها، لكنّ النّائب العام مطالب بالدّفاع عن الحقّ العام، وهي، النّيابة العامّة، دافعت عن هذا الحقّ، لا لأنّ ذلك واجبها فحسب، بل لأنّ التّهمة تمسّها شخصيّاً ومباشرة. إنّها، بعد كلّ شيء، امرأة، وقد أحسنت بردّ الافتراء الموجّه إلى المرأة، بل إلى شخصيّات المتّهم النّسائيّة.. غير أنّ المسألة ليست هنا، وليس هذا مجال الكلام عليها، ففي ذلك استباق للأمور، السؤال الّذي أطرحه هو: هل الشّخص المشار إليه، الّذي أقحمه الادّعاء في القضيّة، هو كاتب فعلًا؟ ما رأيكم أيّها الحاضرون؟

أصوات:

ـ السّؤال في محلّه تماماً.

الدّفاع، مُرّان الطوراني:

ـ أمّا في باقي التّهم الموجّهة إلى الموكّل، فهي ناحلة نحولاً شديداً، حتّى لو توكّأت عليها لانهدمت، وسيهدمها الدّفاع واحدة واحدة، وفي الوقت المناسب. كفى إضاعة للوقت، وأرجو الرئاسة أن تباشر النظر في القضيّة المرفوعة إليها، مع احتفاظ الدّفاع بحقّه في توجيه ما يراه مناسباً من أسئلة.

المتّهم واقفاً، ممسكاً بقضبان قفص الاتّهام:

ـ فيمَ يتخاصم هؤلاء المتخاصمون؟ وعَلَامَ هذه الضجّة المفتعلة؟ ولماذا يردّ الدّفاع على الادّعاء؟ إنّني، في حياتي، كنت أقرأ ما يكتب عنّي بجدّيّة، ولشدّ ما ابتسمت أمام الافتراءات، إشفاقاً على المغترّين، ثمّ تناسيتهم. أنا لا أدافع عن كتبي، رواياتي هي الّتي تدافع عن نفسها، فإذا لم تستطع ذلك، فهي رديئة، لا ينفع فيها أيّ دفاع عنها. مهزلة! كلّ ما يجري هنا مهزلة! أوقفوا هذه المحاكمة

المهزلة.. عودوا إلى النّار الّتي خرجتم منها أيّها الأبالسة، دعوني في وحدتي وهدوئي.

أصوات:

ـ ما يقوله المتّهم صحيح، أوقفوا هذه المحكمة!

أصوات أخرى:

ـ ما يقوله المتّهم غير صحيح، تابعوا المحاكمة.

الأصوات الأولى:

ـ وعلى أيّ شيء تحاكمونه!؟

الأصوات الأخرى:

ـ على مماطلاته وأضاليله.. إنّه يسجننا في رأسه منذ أعوام طويلة.. السّجن، دون سبب، دون محاكمة، وحتّى دون تحقيق، جرم يعاقب عليه القانون، لذلك نطلب، وبإصرار، تجريم المتّهم.. دعوه ينل جزاءه، هذا الّذي ينثر لنا الوعود، ثمَّ يخلف بها. إنّنا نريد أن نرى النّور، وهذا من حقّنا، والمسألة، بعد، ذات خيارين فقط: إمّا أن يخلقنا كما خلق غيرنا، أو يطلق سراحنا كما أطلق سراح غيرنا.

رئيس المحكمة:

ـ ولكن من أنتم؟ نحن نحاكم المتّهم لأنّنا ضحاياه. فقد رسمنا كما يريد هو، لا كما نريد نحن. جسّدنا شخصيّات من لحم ودم على هواه، لا على هوانا. جاء بنا لا ندري لماذا، وسيّرنا كائنات كرنفاليّة بين النّاس دون استشارتنا. قتل بعضنا وأحيا بعضنا الآخر وغيّب البعض الثالث، فلماذا فعل هذا؟ إنّنا نريد أن نعرف، ولهذا نحاكمه، باعتبارنا موجودين، أمّا أنتم ففي عالم الغيب بعد. أنتم غير موجودين إلاَّ في رأسه. أنتم كائنات منسوجة من النّوايا والأفكار،

ونحن لا نملك صلاحية محاكمة النّاس على نواياهم أو أفكارهم، أنتم خواطر ونحن ننظر في الأفعال فقط، وعلى أساسها نصدر أحكامنا.

أصوات:

ـ هذا خطأ! خطأ! خطأ! نحن وأنتم سواسية هنـا. كلّنا من النّـار انبعثنا، والنّار مـازالت تشتعل، ومنهـا ينبثق كلّ من هـو موجـود، أو كـلّ من سينوجـد في هـذه القـاعـة، وعـلى المحكمـة ألّا تتهـرّب من مسؤوليّتها تجاهنا. لديكم اتّهاماتكم، ولدينا اتّهـاماتنـا. وسيكون ظلماً لنا أن يُنظر في أمركم ويُنبذ أمرنا. نحن لسنا طرفـين متنافسـين، لسنا أعداء، ولن نتعارك، إلاّ إذا كان العـراك بسبب تجاهلكم لنا، لابـدّ من نُشوبِه بيننا، وعندئذٍ تكونون البادئين به، والبادئ أظلم دائماً.

الرّئيس:

ـ ما رأي النّيابة العامّة؟

كاترين الحلوة:

ـ هذه، سيّدي الرّئيس، مشكلة جديدة وجدّيّة تواجهنا. نحن هنا تعبـير بالكلمـة وبالفكـر. مخلوقات استـولـدَنـا المتّهم كلّنـا من الـرّحم نفسهـا، ومخلوقات مـاتزال كلّهـا أجنة فيهـا. لكن تواجـدنا، في هـذه القـاعة، فعـل إيقاظ، سـواء من الكتب أو من الرّأس. لقـد أيقظنـا حادث غريب من سباتنا في مطاوي الصّفحات وتلافيف الدّماغ. هذه حقيقة قد تقبل النقاش، لكنّها لا تقبل الـدّحض. ولعلّنا أن نكـون، نحن الّـذين استوينـا بشراً، ولعبنـا أدوارنا عـلى مسرح الحيـاة، أقـلّ ظلامة من الّذين ينتظرون ما صرنا إليه. الانتظار فعل معاناة مريـرة، عرفناها كلّنا، حين كنّا ندقّ بقبضاتنـا على صـدغيِ المتّهم، نناشـده، بل أكثر، نطالبه، أن يخرجنا من العدم إلى الوجود، فلمّا تحقّق ما كنّـا نصبـو إليه، وتمّت ولادتنـا بالتّـالي، ونمونـا، جسداً وروحـاً، أخذت

أسئلة معذّبة تضجّ في دواخلنا: من أين جئنا؟ ولماذا جئنا؟ ولماذا لم نُسْتَشَرْ في هذا المجيء؟ ولماذا لا نُستشار غداً في الذّهاب؟ المتّهم يتلاعب بمصائرنا، بعد أن تلاعب بتشكيلنا، إذن هو مسؤول، وهو متّهم، وقد نصبنا له هذه المحكمة، وغايتها المساءلة، كي نستنبط أجوبة نحكم عليه بموجبها، إذا ما كان مداناً، وإذا ثبتت إدانته بالأدلّة والقرائن. هكذا، سيّدي الرّئيس، هي الحياة: نتدافع في الحضور إليها، ونتدافع في الرّحيل عنها، وهؤلاء الّذين يتدافعون لرؤية النّور، ستُعشي الشّيخوخة أبصارهم فيتدافعون نحو الظّلمة، نحو النّهاية، الّتي هي قدرنا وحقيقتنا، مادامت النّهاية هي الّتي تصنع البداية، كي يأتي بعدنا الّذين ينتظرون رحيلنا، ويأتي بعدهم، الّذين ينتظرون رحيلهم، وهذا هو مبدأ السيرورة والصيرورة معاً. وبكلمة: من حقّ الأجنة أن تولد، ومن حقّ هؤلاء الّذين يتعذّبون في أتون الانتظار، أن يسألوا المتّهم: إلى متى انتظارنا؟ والأسئلة الموجّهة إلى المتّهمين تكون في قاعات المحاكم لا خارجها، وعلى هذا فإنّ تواجد الّذين لم ينوجدوا بعد، يعتبر من صلب اختصاص هذه المحكمة إذا ما كان العدل غايتها، والنّيابة العامّة لا تشكّ في أنّه غايتها تماماً.

تصفيق حادّ. ضجّة، أصوات: «يحيا العدل! يحيا العدل!» مطرقة الرّئيس تعلو وتهبط، أصوات أخرى: «نرفض! نرفض! نرفض! هذا ليس عدلاً، ليس عدلاً! العدل في فصل القضيّتين: قضيّتنا وقضيّتهم، النّيابة العامّة متحيّزة. اعزلوا كاترين الحلوة بسبب تحيّزها.

الطروسي:

ـ هدوء! الزموا الهدوء! ساحات المحاكم معروفة، وساحات المعارك معروفة، فمن شاء العراك فليخرج من القاعة. اخرجوا من هنا أيّها المشاغبون الأوغاد، أو اصمتوا إلى أن يأتي دوركم في الكلام.

هيئة المحكمة، والنّيابة، والادّعاء، والدّفاع، هي من اختياركم. أنا الّذي رشّحت وأنتم الّذين وافقتم على التّرشيح، هل نسيتم!؟ أم أنّكم تتعمّدون إثارة الفوضى، لخلق الاضطراب في جوّ المحكمة!؟

صوت رجل، نايف الفحل:

ـ نحن لا نزرع الفوضى، لكنّنا لسنا بحّارة في مركبك يا طروسي كي نتلقّى الأوامر منك. أنت من أنت؟ ما هي صفتك؟ بأي حقّ تنذر وتتوعّد؟ وهل تعرف مكانات الّذين تنذرهم وتتوعّدهم؟ إنّنا أصحاب أسبقيّة في الوجود، إذن الأمر لنا، والطّاعة عليك.

الادّعاء، مريم السّودا:

ـ سيّدي الرّئيس! الادّعاء يلتمس إلقاء هذا الوغد، نايف الفحل، على المزبلة. إنّه فحل في الاسم لا في الفعل. أنا زوجته وأعرف. هذا الخرقة المبلّلة خائب في كلّ شيء إلاّ في الشّغب، وليس للمشاغبين مكان هنا.

الرّئيس يضرب بالمطرقة:

ـ كفّي، يا مريم، عن الرّدح، وكفّ، يا نايف، عن الفَشْوَرَة. أنا أبو فارس قبل أن أكون رئيس محكمة، وأنا أعرفكما جيّداً. أنتما تنقلان نكد البيت إلى المحكمة.

مريم السّودا:

ـ أنا أعرف، سيّدي الرّئيس، هذا التّكتوك، أكثر ممّا تعرفه أنت. إنّنا ننام في فراش واحد، و. . .

الرّئيس مقاطعاً:

ـ مفهوم يا مريم مفهوم. لا حاجة للتفصيل. ليست المحكمة مكاناً ملائماً لفضح الأسرار الزّوجيّة.

مريم السّودا:

ـ هذه النّاحية ذات علاقة بالقضيّة الّتي تنظر فيها محكمتكم الموقّرة سيّدي.

الرّئيس:

ـ المحكمة لا دخل لها في ما يجري في فراش الزّوجية.

مريم السّودا:

ـ وإذا كان لا يجري في هذا الفراش شيء؟

الدّفاع، مُرّان الطّوراني:

ـ تكون هذه هي الطّامة الكبرى!

الرّئيس:

ـ ونكون أمام حالة استثنائيّة!

الدّفاع، مُرّان الطّوراني:

ـ ليست حالة استثنائيّة بالقدر الّذي نتصوّر. هناك أسرّة زوجيّة كثيرة لا تئزّ نوابضها ليلاً أو نهاراً. حالة خِصاء شبه عامّة. ونحن، سيّدي الرّئيس، مخصيّون بأشكال مختلفة، ومن أطراف مختلفة..

الرّئيس:

ـ عن أيّ أطراف يتحدّث الدّفاع؟

ـ عن الألسنة! نحن، سيّدي الرّئيس، مخصيّون من تحت، وهذا الأبسط، ونحن مخصيّون من فوق، من الأفواه، وهذا الأخطر. نحن ببغاوات، أو صيّرونا ببغاوات، نردّد ما نتلقّن، والتلقين لا يخرج عن منولوج واحد: المجد للكلمات.. والبقيّة معروفة!

الادّعاء، كرم المجاهدي:

ـ هذا كلام خبيء، هذا ترميز فظيع، إنّه يقصد..

الدّفاع، مُرّان الطّوراني، مقاطعاً:

ـ نعم هذا ترميز، أو يدخل، بطريقة ما، خانة الرّمز، لكنّه غير

فظيع كما يتصوّر الادّعاء. الفظاعة، يا زميلي المستفظِع، أن نضع على أعيننا، كما على عوراتنا، أوراق توت مستفظعة.. وإنّي لأسأل: إلى متى نضع «حزام العفّة»، أو نتقبّل «حزام العفّة» كيلا «نزني» بالكلمات؟

الادّعاء، كرم المجاهدي:

- الزّنى مرفوض في كلّ أشكاله.

- إلاّ في قول ما يجب أن نقول، كيلا نزني بالتّواطؤ.. أي بالصّمت!

الرّئيس:

- ومن الّذي يفرض الصّمت على الدّفاع؟

الدّفاع، مُرّان الطّوراني:

- الأشباح يا سيّدي، وكذلك الرّقابة الدّاخليّة. نحن المجبرين على أن نراقب أنفسنا بأنفسنا، نتشدّد في رقابتنا خوفاً!! الخوف، إذن، هو العدوّ، هو سيّد الموقف، هو التّابع والظلّ، وهو رباط الفمّ واليد والقلم.. موكّلي تمرّد على هذا الواقع، أو لنقل إنّه تمرّد قليلاً على هذا الواقع، وها هو في قفص الاتّهام، ونحن جميعاً نتآمر عليه، لا لكي نربط قلمه فقط، بل لكي نكسره أيضاً. إنّنا كَسَرةُ أقلام عتاة، فقد ربطنا، وحتّى كسرنا، نصف أقلام متّهمين مثل موكّلي، وبعد أن فعلنا ذلك بكثير من الرّضا، ومن راحة الوجدان، نعقد المحاكم كي نحاكمهم؟ ولكن علامَ نحاكمهم؟ على أنّهم حلموا، حلموا فقط، بالخروج من القرون الوسطى ومحاكم التفتيش!! لقد منعناهم حتّى من الحلم، وهو مشروع في كلّ العصور، إلاّ في عصرنا هذا، وعالمنا هذا، وبذلك أتممنا تدجينهم، ثمّ ابتدعنا بدعة عصماء، هي دفع مخلوقاتهم إلى محاكمتهم، لأنّهم لم يخلقوها كما تريد، وإنّي لأسأل: كيف لهم أن يخلقوها كما تريد، إذا كانوا هم، خالقوها،

محرومين من حرّيّة الخلق، على النّحو الّذي يريدون!؟ إنّ ما تبقّى لهم هو الرّمز، ولكنّ الادّعاء يستفظع الرّمز، يرغب في اعتقاله ومحاكمته هو أيضاً، وهذا عجيب جدّاً!

رئيس المحكمة يسأل المتّهم:

ـ ما رأيك في ما يقوله محاميك؟ هل اتّخذت الرّمز، مضطراً، سبيلاً للتّعبير؟

ـ نعم سيّدي الرّئيس. أنا اتّخذت الرّمز دريئة، لكن غيري يتّخذه تقيّة. المعدن السّائل في جوف الأرض، لا تستطيع القشرة الأرضيّة منعه من أن يتفجّر بركاناً. الكلمة، في تفجّرها، بركان، وليس في وسع القوانين والقرارات والبلاغات، كما ليس في وسع الكمّامات وأحزمة العفّة والسدادات الرّصاصيّة، الحيلولة دون أن تنفجر الكلمة، وتتبركن، وتندفع، في هدفها التّعبيري، في خطّ مستقيم أو خطّ متعرّج، ولعلّكم تذكرون «كليلة ودمنة» وصاحبها عبد الله بن المقفع. لقد استنطق الحيوان، وأنا استنطقت الإنسان، وبحذر يقيني الأذى، لكنّ الكاتب لا يعدم وسيلة الإيصال لمن يريد حقّاً إيصال أفكاره إليهم... ثمّ ماذا كانت النتيجة؟ إنّها كما ترون!

الرّئيس:

ـ إذن أنت تعترف بخرق القوانين والأعراف؟

المتّهم:

ـ أنا أعترف بشيء واحد: إنّني استأنفت ضدّ الواقع، أمام محكمة الرأي العام.

وما هو دافعك إلى هذا الاستئناف؟

ـ طبيعة مهنتي ككاتب... على الكتّاب أن يستأنفوا ضدّ الواقع، أن يرفضوا هذا الواقع، أو يضعوا أقلامهم في أحذية السّلطة الّتي تصبح عندئذ محابرهم.

ـ عن أيّ سلطة تتحدّث؟
ـ عن السّلطة في كراكاس.

الادّعاء،كرم المجاهدي:

ـ هذا ترميز سيّدي الرّئيس. المتّهم يستخدم الرّمز في تضليل المحكمة، وهذا جرم مشهود يقترفه ولا يبالي. وقد سبقه موكّله إلى هذا، فليس «حزام العفّة» إلّا رمزاً، وكان على المتّهم، وموكّله بالتالي، ألّا يلجآ إلى هذا، لأنّه تحريض على الأمن، يعاقب عليه القانون. الادّعاء يحتفظ بحقّه في استجواب المتّهم عناد الزكرتاوي.

الدّفاع، مُرّان الطوراني:

ـ تحريض على الأمن!؟ في أيّ بلد هذا التحريض!؟ أسأل المتّهم، سيّدي الرّئيس، إذا أردت.

المتّهم الزكرتاوي:

ـ في كراكاس سيّدي. الأمر تماماً كما قلت. أنا أتّهم السّلطة في كراكاس بأنّها ذكيّة أكثر ممّا يجب، فهي تنصّ على احترام الحرّيّات العامّة في قوانينها وتدعها نائمة هناك.. رغم الحربين العالميتين اللّتين مرّتا على البشرية وأيقظتاها.

الادّعاء، كرم المجاهدي:

ـ أنا أحتجّ سيّدي. أحتجّ بشدّة. هذا ترميز، وسخرية، واستغفال لنا جميعاً.

الدّفاع، مرّان الطوراني:

ـ وماذا أيضاً!؟ هل تريد رأس موكّلي وحده، أم رأسي معه، وبهذه السّرعة؟ ثمّ ماذا بقي لديك من الإسهالات الجرميّة؟ وما رأيك في حبوب الإمساك؟

رئيس المحكمة يضرب بمطرقته:

ـ أنا لا أسمح بهذا. المحكمة لا تقبل بهذا. إنّه تجريح ثنائي، وابتعاد عن موضوع الدّعوى.

أصوات:

ـ بل إنّه في صميم الدّعوى!

أصوات أخرى:

ـ بل إنّه خروج على الدّعوى!

مطرقة الرّئيس تعاود الطّرق، والنيابة العامّة تطلب الكلام.

كاترين الحلوة:

ـ كنّا، سيّدي الرّئيس، في موضوع مهمّ، أرى من المفيد العودة إليه. إنّه قضيّة الّذين في رأس هذا المتّهم، والّذين خارجه. أي الّذين رأوا النّور والّذين لم يروه بعد..

المتّهم صارخاً من قفص الاتّهام:

ـ لا أحد في رأسي ولا أحد خارجه. رأسي قرعة فارغة حتّى من اللّب، فماذا تريدون بعد؟ أنا أنكركم، أنكركم جميعاً، واتبرّأ منكم جميعاً، يا أولاد الأفاعي!

رئيس المحكمة:

ـ ليهدأ المتّهم! إذا كان يريد أن يستريح من هذه المحاكمة فليدعنا ننظر في دعواه بسرعة، وننتهي منها بسرعة، هذا لصالحه.

المتّهم:

ـ عن أيّ صالح تتحدّث يا سيّدي؟

صوت:

ـ عن صالح مريم السّودا وحقوقها الزوجيّة!

صوت آخر:

ـ وعن خراعة نايف الفحل وعجزه عن القيام بواجباته الزوجيّة!

صوت ثالث:

ـ عالجوه بحبوب «البروفيرون»!!

صوت رابع:

ـ أو بالعسل!

صوت خامس:

ـ أو بخلاصة نبات «الجنشن» الصيني.

صوت سادس:

ـ أو «بهرموجيربيون» شديد الفعاليّة!

مريم السّودا:

ـ وأنا مستعدّة للدّفع!

نايف الفحل:

ـ لا تتعبوا... باطل الأباطيل باطل!! جرّبت جميع هذه الوصفات.

أصوات:

ـ جرّبها مرّة أخرى!

ـ لا فائدة! المستيقظ، مع مريم السّودا، ينام.

مريم السّودا:

ـ هذا ترميز أيضاً سيّدي الرّئيس. زميلي كرم المجاهدي اكتشف اللّعبة من أوّلها. صارح المحكمة بنواياهم السيّئة. هذا، كما يقولون، كلام للجارة كي تسمع الكنّة، اضبط إذن! إنّهم يقولون الأشياء بالرّمز، ولكن ما هو الرّمز؟ إنّه، حسب رأي زميلي، المعادل الموضوعي، وسيشرح، في مرافعته، معنى المعادل الموضوعي. إنّني أطلب أن تسجّل الكلمات كلّها، وبحرفيّتها، في محضر الجلسة، لأنّنا

سنتوقّف عندها طويلاً، وعلى أساسها سنطلب تقديم هؤلاء المرمّزين إلى المحكمة المختصّة.

الرّئيس يتشاور همساً مع مستشاريه ويقول:

- الترميز، يا مريم، غير ممنوع، وأنت من المرمِّزين أيضاً، لكن دون وعي، فما رأيك لو طلب الدّفاع بدوره إحالتك على المحكمة المختصّة؟ هنا محكمة يا مريم، والمتقاضون أحرار في قول ما يشاؤون، إذا ما بقوا في إطار الدعوى المنظور فيها. لو كففت عن هذه الحواريّة الزوجيّة، بينك وبين نايف الفحل، لأرحت واسترحت... الكلام للنيابة العامّة.

كاترين الحلوة:

- عندنا، في البحر، تجري المحاكمات بهذا الشّكل.. هناك، في مملكة أبي، يظلّون في صلب الدّعوى، وشعار الجميع «الكلام المفيد هو ما قلّ ودلّ!» إنّهم يثرثرون هنا والمتّهم يتعذّب. هناك، في قفص الاتّهام إذا تسيّبت الأمور أكثر، اختلّ توازن قصر العدل المشيّد على دعائم من المرجان، والقائم في قاع البحر الأحمر. السّؤال هو: نحاكم الّذين في رأس المتّهم، كما نحاكم الّذين خرجوا منه؟ النيابة العامّة تطلب سماع الجميع، ومحاكمة الجميع، المتّهم ومخلوقاته، ونحن منهم. والسّبب بسيط: إنّنا نتّهم المؤلِّف هذا كخالق، وهو بدوره يتّهمنا كمخلوقات، ولديه الحقّ، والنيابة حريصة على إحقاق الحقّ، وعلى محاكمة، أو مساءلة، الجميع دون استثناء.

أصوات:

- هذا هو التحيّز الّذي تنبّأنا به!

أصوات أخرى:

ـ لتكفّ الضفـادع عن النّقيق. هذا هـو التجرّد عن الهـوى الّذي تنبأنا به قبلكم.

مطرقة الرّئيس:

ـ هدوء. لا تسيئوا إلى إنسان اليابسة أمام إنسـانة البحـر. سمعتم ما قالت! التسيّب غير موجـود هناك، ولا يجب، كـذلك، أنّ ينـوجد هنا.

أصوات:

ـ لا تفرّطوا في التسيّب، إنّه خبزنا اليومي، وحركة زمننا الدّائريّة.

أصوات:

ـ لنلفظ هذا الخبز الشـوكي الذي جـرّح حلوقنا، ولنـوقف حركـة زمنه الدّائريّة.

الأصوات الأولى:

ـ فات الأوان! فات الأوان!

الأصوات الثانية:

ـ نحن الآن والأوان معاً، لم يفت شيء بعد.

مطرقة الرّئيس، وصوته الزّاجر:

ـ لا تثيروا المزيد من الفضائح.. لدى المحكمة إضبارة كاملة بها.

الدّفاع، راجعة:

ـ نطالب المحكمة المـوقّرة بـإطلاع الحـاضرين على محتـويات هـذه الإضبارة.

الرّئيس:

ـ هذا ليس في صالح موكّلك، ولا فائدة له فيه.

ـ يكفي أن يكون في صالح الرّأي العام. أكرّر الطلب.

الرّئيس:

ـ المحكمة ترفض الطلب. إذا فتحنا مثل هذه الأضابير أثرنا فضائح لا نهاية لها، وقادنا ذلك إلى ترك الأصل والتمسّك بالفروع.

ـ الأصل والفروع وحدة عضويّة.

ـ وهذا ما يقودنا إلى متاهة التناقضات في قلب هذه الوحدة.

الادّعاء، مريم السّودا:

ـ النّائبة العامّة، كاترين الحلوة، من اليابسة وليست من البحر.

الدّفاع، راجعة:

ـ بل من البرّ والبحر معاً. اسألوا المتّهم.

المتّهم:

ـ اقرأوا «المرفأ البعيد» تعرفوا.

الادّعاء، مريم السّودا:

ـ لا وقت لدينا لقراءة الكتب.

أصوات:

ـ لابدّ من قراءة الكتب.. إنّها المرجع الأوّل والأخير.

أصوات أخرى:

ـ القوا بالكتب إلى النّار.. إنّها السبب الأوّل والأخير.

الأصوات الأولى:

ـ ابعثوا التتار من قبورهم إذن

الأصوات الثانية:

ـ وهذا ما يجب أن نفعله لو نستطيع.

الرّئيس نزقاً:

ـ هذه فوضى! فوضى كاملة! الزموا الهدوء وإلاَّ ألقيتكم خارجاً. . لنتابع القضيّة.

راجعة:

ـ أيّة قضيّة سيّدي؟

الرّئيس:

ـ قضيّة المتّهم عناد الزكرتاوي.

ـ وقضيّة الفضائح!؟

ـ هذه طوينا ملفّها، مؤقتاً على الأقل.

المتّهم:

ـ وعلى ماذا ستحاكمونني إذن؟

الرّئيس:

ـ على تشويهك لمخلوقاتك.

ـ الّتي في رأسي، أم الّتي خرجت منه!؟

ـ عليها جميعاً.

المتّهم صارخاً:

ـ هذا ظلم! هذا ظلم شنيع!

الرّئيس:

ـ المحكمة هي الّتي ستقرّر ما إذا كان ظلماً أم رحمة، حقّاً أو باطلاً اجلس والزم الصّمت.

الدّفاع، مرّان الطوراني:

ـ لديّ، سيّدي الرّئيس، ملاحظتان: الأولى شكليّة، لكنّها ذات صلة بهذا الهرج والمرج السائدين. عندما يتكلّم الجميع، ويطالب الادّعاء برأس موكّلي، فإن من حقّ هذا الموكّل، لا أن يستشعر الظلم فقط، بل أن يجهر به أيضاً، ففيه لفت للجميع إلى أنّ الغوغائيّة تكاد

تسيطر، وأنّ الغوغائيّين يرمون إلى وضع الجميع أيضاً، في جوّ معيّن، ليس في صالح الموكّل. أمّا الملاحظة الثانية فهي جوهريّة، ابتعدنا عنها، وأرغب في التوقّف عندها والانطلاق منها في سير هذه الدّعوى. إنّ مطالعة النيابة العامّة، وما احتوته من تحليل، ومن تفنيد لموضوعة الّذين خرجوا من رأس الموكّل، والّذين مازالوا فيه، هي مطالعة جديرة بالاعتبار، فالانتظار عذاب للجميع، لكن الّذين هنا بالجسد، غير الّذين هنا بالرّوح. أقصد أنّ الانتظار، الّذي هو معاناة مريرة كما قالت النيابة العامّة، ينصبّ بشكل أساسي، وبصورة أكبر وأخطر، على الّذين لم يروا النّور من مخلوقات المتّهم، ومن حقّ هؤلاء أن يسألوا عن مصيرهم، لأنّه لم يتحدّد بعد، فالمساءلة عن المصير تغدو تراجيديّة إذا لم تلق الأجوبة، وهذه حالنا جميعاً، فنحن نمشي في ضباب، ولا نعرف إلى أين، مع أنّنا خرجنا إلى النّور، وفي ضوئه نرى، أو كان يجب أن نرى، ماذا يراد بنا ولنا، غير أنّنا ما نفتأ في متاهة، وأزعم أنّ أحداً منّا، نحن الّذين من بلدان مختلفة، لا يعرف مصيره، لأنّ هذا المصير يقود إلى التهلكة، لمجرّد أنّ هناك وشاية كاذبة ضدّ هذا أو ذاك من بيننا، وهنا تتجسّد المأساة بكلّ قتامتها، فمصائر المخلوقات معلّقة في الهواء، وغير مصونة، أو غير محصّنة ضدّ الافتراءات المحبّرة، الّتي تتساقط علينا كأوراق الشجر في الخريف، وإذا كنّا نحن، وحتّى في هذه القاعة، نتدافع الرعشة المستبطنة في كلّ خلايانا، خوفاً على مصائرنا، فكيف حال المتّهم الّذي مصيره معلّق على شفتي رئاسة المحكمة، وهو ينوس بين البراءة والإدانة، مع أنّه بريء، وغير مذنب وقد أكّد هذا، وستؤكّده الوقائع أيضاً، إذا ما أسرعنا بالبتّ في قضيّة الّذين هم خارج رأس المتّهم وداخله، وقد طالبت النيابة العامّة، بعد تفنيد رائع ومستوفى لكلّ وجهات النّظر المتضاربة، بأن تشمل المحاكمة الجميع، بمن فيهم نحن، لأنّ لكلّ

منّا دوراً في قضيّة عناد الزكرتاوي، ولكلّ منّا شهادته الّتي ينبغي أن يدلي بها، ويُناقش في أمرها، حتّى تتوضّح الأمور، وتصبح في الضوء، فتتبلور الدّعوى، وتتأكّد براءة الموكّل.

المتّهم الزكرتاوي:

ـ ليسمح لي سيّدي الرّئيس، بعد الّذي سمعته من النيابة العامّة والادّعاء والدّفاع، أن أُعلن، أمام محكمتكم الموقّرة، أنّني أسحب كلامي السّابق، وأعترف أنّني مذنب، وأنّه لا حاجة للاستمرار في الدّعوى، فقد أجرمت بحقّ الجميع، الّذين أخرجتهم من رأسي، والّذين لاأزال أسجنهم فيه، وجرمي الّذي بلغ حدّ القتل العمد، عن سابق تصوّر وتصميم، عقابه الإعدام شنقاً، كما طالبت النيابة العامّة، وكلّ ما أرجوه، أن تصدروا هذا الحكم، شريطة أن ينفّذ فوراً.

ضجّة في القاعة. همهمات من كلّ جوانبها، حركة غير عاديّة بين الحاضرين. الحيرة تتبدّى على وجه النيابة العامّة، الفرحة تشيع في قسمات الادّعاء، الإحباط يستولي على الدّفاع، رؤوس الحاضرين تتحوّل إلى علامات استفهام كبيرة، المحكمة ترتبك، والرّئيس يتشارو مع مستشاريه، وتأخذ مطرقته بالطّرق العنيف، طلباً للهدوء.

الرّئيس:

ـ هل يصرّ المتّهم على أقواله؟

المتّهم:

ـ كلّ الإصرار!

الرّئيس:

ـ ألفت المتّهم إلى نقطة أساس، هي أنّ الحكم لا ينبني، وتالياً لا يصدر، بناء على اعتراف المتّهم، إيجاباً كان هذا الاعتراف أم سلباً، لذلك لابدّ من السيّر في الدّعوى.

أصوات:

- هذا قرار حكيم، صادر عن رؤية قانونيّة حكيمة.

أصوات أخرى:

- الاعتراف سيّد الأدلّة. لقد اعترف المتّهم بجرمه، فأصدروا حكم الإعدام بحقّه ونفذوه فوراً، في هذه القاعة بالذّات.

الادّعاء، كرم المجاهدي:

- المتّهم، سيّدي الرّئيس، يلعب لعبة خبيثة. وهذا تلقين مسبق من الدّفاع. إنَّ الاعتراف بالجرم مناورة، القصد منها استدرار شفقة القضاة، وإهاجة مشاعر بعض الحاضرين، ممّن يقفون إلى جانبه. إنّه تحدّ مبطّن للمحكمة، ينضاف إلى تحدّيات سابقة، صادرة عن جوقة الهتافين وهيئة الدّفاع. فالمتّهم يريد حكماً بغير محاكمة، وهو يعرف أنّ هذا غير جائز، وإعلانه بأنه مجرم، إعلان مبطّن مفاده أنّه غير مجرم. إنّ للادّعاء رأيه في هذا التبدّل المفاجئ في موقف المتّهم، وإذا كنّا نحترم قرار المحكمة بالسّير في الدّعوى، كان لدينا الأدلّة، والشّهود، والمواد القانونيّة، الّتي تثبت القاعدة الفقهيّة القائلة إنّ الاعتراف سيّد الأدلّة. أمّا ما تطالب به النيابة العامّة، ويتبنّاه الدّفاع، من محاكمة الّذين لم يروا النّور من مخلوقات المتّهم الجنينيّة، بمثل محاكمة الّذين رأوا هذا النّور من مخلوقاته المستوية بشراً، فإنَّ الهدف منه هو التملّق، والغشّ، فالّذي يريد المجيء إلى الوجود، لا يجرؤ على الشهادة ضدّ من بيده القدرة على المجيء به، وهكذا يكون الدّفاع قد كسب شهود نفي سلفاً، أمّا موقف النيابة العامّة غير المفهوم في هذه النقطة، فإنّنا نترك تقدير الغاية منه إلى المحكمة.

تصفيق... أصوات:

- انقلب السحر على الساحر! انقلب السحر على الساحر!

أصوات أخرى:

ـ لا سحر ولا ساحر! لا سحر ولا ساحر!

الـدّفـاع، مـرّان الـطوراني، يخـرج من مقعـده ويســير نحـو قفص الاتهام، يمسك المتّهم من كتفه ويصيح وهو يهزّه:

ـ هذا هو المجرم الّذي يخبّئ الادّعاء حبل مشنقتـه في جيبه. إنّنـا نتضامن مع الموكّل، لا في اعترافه فقط، بل بالتسريـع في تنفيذ حكم الإعدام به فوراً. خذوه بجـرمه! خـذوه! علّقوه بحبل المشنقة المتدلّي من الحـامل الخشبي لهـذا السّقف، واخرجـوا بعراضـة فـرح، وعـلى رؤوسكم أكاليل الانتصار.

يعـود إلى مقعده في جـوّ من الصّمت المخيّم، وتقف كاتـرين طالبـة الكلام:

ـ إذا كـان الادّعاء يحسب أنّني سمكـة بوريّـة، أعلق على صنـارته بمقدار ما يكون الماء الّذي تلقى فيه هذه الصنارة عكراً، فإنّـه واهم. صيّـادون مَهَرَةٌ جـدّاً، متمرِّسـون جدّاً، خـوّضوا في البحـر، ما بـين اللّجة وضحضاح الشاطئ، وخبروا كلّ شبر فيـه، لم يبلغوا أن ينـالوا منّي كسمكة، ولا بلغ الريّـاس والبحّارة أن يبلغـوا منّي كإنسيّـة، على فـرضِ أنّني من المـاء واليـابسـة معـاً، أي لم يـروّضني، بـين كـلّ من ذكـرتُ، أحدٌ، فهـل يقوم، حتّى في وهم الادّعـاء، بـأنّـه قـادر عـلى ترويضي، حين يثير غبار الشّك من حولي؟ أو قـادر على إخـافتي حين يستدعي هيئة المحكمة ضدّي؟ إنّ ما هو غير مفهوم في موقفي، نابـع من أنّ الادّعاء غير قادر على رؤية، أو فهم، مهمّة النيابة العـامّة، إلّا بشكـل أحادي، فهـو يريـد النيابـة ضدّ الـدّفاع، وقبـلاً ضدّ المتّهم، وبشكـل دائم، بلون أسود مفـرد أو بلون أبيض مفـرد أيضـاً، وهنـا الخطأ. النيابة تمثّل الحقّ العام، وهذا الحقّ ليس أحادي اللّون، فثمّة بين الأسود والأبيـض قـوس من الألوان، فيـه من التدرُّجـات اللّونيّة

عدد لا يحصى، وأنا أفهم الحقّ العـام، ككلّ الحقـوق الأخرى، فهـماً مغايراً، فيه التزام بما هو صح، بصرف النّظر عمّا إذا كان هـذا الصحّ ضدّ المتّهم أو معه. فلماذا يداور الادّعاء ويناور، ويترك تقدير المـوقف مني إلى المحكمــة، مـع أنّ هــذا ليس من اختصـاصهــا، بــل من اختصـاص المدّعي العـام؟ لماذا لا يقـدّم طعناً في مـوقفي إلى المـدّعي العامّ ويستريح؟ سأفترض، سيّدي الـرّئيس، أنّ تقديـر موقفي يعـود إلى المحكمـة، فلتتفضّــل هيئـة المحكمـة وتبــدِ رأيهـا، كي يــطمئن الادّعاء.

يتشاور رئيس المحكمة مع المستشارين ويعلن:

ـ المحكمة لا ترى في موقف النيابة العامّـة أيّة شـائبة، وهي تحـذّر الادّعاء من مثل هذه المحاولات المضلّلة.

تقف كاترين الحلوة ثانية:

ـ شكـراً للمحكمة عـلى هذا المـوقف، لكنّني لا أكتفي به، وكنت سأحيل الموضوع على المدّعي العام، لولا أنّني لم أعدّ بحاجة إلى هذا، فأنا أشكر الرّيس الطروسي الّذي رشّحني للقيام بمهمّة النيابة العامّة، وأشكر الحضور الّذين وافقوا على هذا الترشيح، وأعلن الاعـتزال من المهمّة الموكـولة إليّ، والانضـمام إلى الدّفـاع، لتوفّـر القناعـة لديّ بـأنّ المتّهم بـريء، رغم أنّ الأدلّـة ضـدّه، وأنّني طـالبت، قبـل الادّعـاء نفسه، بالحكم على عناد الـزكرتـاوي بالإعـدام في مطالعتي، تـأسيساً على هذه الأدلّة، الّتي ليست نافلة، أو باطلة، بل هي قائمة لاتـزال، لكنّها غير كافية كما يبدو من سير الدّعوى.

أصوات في القاعة:

ـ النيابة العامّة على حقّ. كاترين الحلوة على حقّ. ارفضـوا تخلّيها

عن منصبها ثبّتوها فيه، كي تكشف عورات الباطل، سواء من المدّعين أو جهة الادّعاء.

أصوات أخرى:

ـ النيابة العامّة على باطل. كاترين الحلوة على باطل. اخلعوها، اخلعوها، هذه المجرمة الّتي قتلت أفضل ريّاس بحرنا، وعلّقت رؤوسهم، إمعاناً في الانتقام، فوق عتبة بابها. نحن نعرفها، هذه المتهتّكة الّتي خانت الأب مع ابنه، وزنت حتّى ضجّ منها الزّنى، فجاء المتّهم، عناد الزكرتاوي، وقدّمها مثلاً في الفجور، وإغراءً به، حتّى بتنا نخشى منها على نسائنا، و. . .

رئيس المحكمة:

ـ كفى! من يقاطع المحكمة يُلْقَ خارجاً.

الأصوات نفسها:

ـ نحن نقاطع حيث تجب المقاطعة، وسنبقى داخلاً. العرض غالٍ، نفديه بدمائنا، أمّا البرهان على السلوكيّة الشائنة لهذه المدعوّة كاترين الحلوة فهو في يميننا: إلى المحكمة بثلاثيّة البحر، وتخصيصاً «المرفأ البعيد» منها. . شعارنا العرض والأرض، ولن نتخلّى عنه أبداً.

الأصوات الأولى:

ـ حوتُ الغوغائيّة يبتلع يونس الحقيقة! حوتُ الغوغائيّة يبتلع يونس الحقيقة! إنّهم فشّارون هؤلاء الرعاع. تخلّوا، جبناً، عن العرض والأرض، حين كان عليهم الدّفاع عنهما، وها هم ينجون إظهاراً لشجاعة لا يفيد فيها النباح. نطلب إلقاءهم خارجاً، و. . .

رئيس المحكمة:

ـ كفى! إذا تماديتم أخليت القاعة منكم جميعاً. نحن في حرم

محكمة لا ساحة معركة. فكّروا بحالة هذا المتّهم المسكين، ودعونا نسرع في القضيّة رحمة به وشفقة عليه.

المتّهم من قفص الاتهام:

ـ أنا أحتجّ سيّدي الرّئيس. أرفض الرّحمة والشفقة كليهما. إنّني مذنب، أعترف: أنّني مذنب، فماذا تريدون بعد؟ وماذا تنتظرون لإصدار الحكم؟ هذه محكمة أم بازار!؟

أصوات:

ـ إنّها بازار، وبامتياز أيضاً.

أصوات أخرى:

ـ إنّها محكمة، وبامتياز أيضاً وأيضاً.

مطرقة رئيس المحكمة تقرع قرعاً عنيفاً حتّى يسود الصّمت، ثمّ يعلن:

ـ يا أولاد الزّنى!!! تخلطون بين المحكمة والبازار!! على أيّ مزبلة تربيتم!؟ لا صوت، لا نأمة، لا حركة، وإلاّ قطعت ألسنتكم من حلوقكم؟ هل تفهمون ما أقول؟ العدل، هنا، سيأخذ مجراه، العدل ولا شيء غير العدل، هل تسمعون!؟

أصوات:

ـ سمعنا وفهمنا!.

أصوات أخرى:

ـ لم نسمع ولم نفهم!

الطروسي:

ـ سيّدي الرّئيس! الّذين لم يسمعوا ولم يفهموا، رؤوسٌ أينعت وحان قطافُها، وإنّي لها، لو تسمحون.

أصوات:

ـ ليسقط الحجّاج بن يوسف الثّقفي!!

الطروسي صارخاً:

ـ أنا لست الحجّاج وإن استشهدت بقولة منه. أنا عمرو بن كلثوم القائل:

ألا لا يجهلنْ أحد علينا
فنجهلَ فوق جهل الجاهلينا

ليتقدّم منكم من يريد العراك، واسألوا عنّي ابن برّو المشاغب الأوّل بينكم، فإذا جبنتم، ضعوا ألسنتكم في مؤخّراتهم، وإلاَّ وضعتها بنفسي، وهذا كلّ شيء.. ليتفضّل رئيس المحكمة، كبيرنا قَدْراً وسنّاً، أبو فارس الّذي لم تنزل له دمعة طَوال خمسين عاماً، وأمام وقاحتكم تتحيّر الدّموع في عينيه الآن، ليتفضّل ويتابع مهمّته.

أبو فارس بصوت عميق وهادئ:

ـ من أجلك، يا ريّس الرّياس، أواصل المهمّة الّتي كلّفتني بها، وأعلن قبول اقتراح كاترين الحلوة بالانضمام إلى الدّفاع، وألفت انتباه المتّهم عناد الزكرتاوي إلى ضرورة التزام الأدب، في ألفاظه وسلوكه. الكلمة للادّعاء الآن.

الادّعاء، مريم السّودا:

ـ أعترض، سيّدي الرّئيس، على قبول كاترين الحلوة في الدّفاع. هذه لعبة ذكاء من امرأة غير ذكيّة، لكنّها تسعى إلى الفتنة، هذه الّتي نحن لها بالمرصاد.

نايف الفحل يخرج من بين الصّفوف ويتقدّم نحو منصّة المحكمة:

ـ اعتراض مريم السّودا سببه الغيرة سيّدي الرّئيس، وإذا ما كانت

هنـاك فتنة فهي رأسهـا، هذه الحمقـاء تزوّجت قبـلي ثـلاثـة، قتلتهم الواحد بعد الآخر، اسألوها تعلموا، فإذا علمتم احكموا وجرّموا!

رئيس المحكمة ممازحاً:

ـ كم رجلاً تزوّجت يا مريم، وكيف مات أزواجك؟

ـ فطسوا الواحد بعد الآخر سيّدي. . أنا لم أقتل أيّ واحد منهم.

ـ وكيف تزوّجت نايف الفحل وأنت عرجاء؟

ـ العرج لا يمنع الزّواج سيّدي.

نايف الفحل:

ـ العرج يعطّل الحركة، ما قيمة المرأة المتزوّجة بغير حركة!؟

مريم السّودا:

ـ أنا، سيّدي الرّئيس، كلّي حركة، وأنـا كنت في حزب «الحـركة» أيّـام كان للحـركـة حـزب، ونـايف الفحـل، هـذا الاسم عـلى غـير مسمّى، يكـذب. . ثمَّ ما دخـل الرِجْـل في المـوضـوع؟ الـزّوج، في الفراش، شغله في الرِجل أم في. . .

رئيس المحكمة مقاطعاً:

ـ ولا كلمة أخرى في الموضوع. . ألا تخجلين يا مريم!؟

مريم:

ـ لا عيب في الحلال يا أبو فارس، وأنت تعرف. .

أبو فارس:

ـ أنا لا أعرف شيئاً. . نايف يتّهمك بقتل أزواجك، صحيح هـذا أم لا؟ إذا كان صحيحاً فأنت متّهمة لا مـدافعة، وهنـا لبُّ القضيّة، ما قولك؟

ـ قولي إنّ كلّ شيء بأمر الله.

ـ يعني قتلت؟

ـ لم أقتل!
ـ وكيف مات أزواجك الثّلاثة؟
ـ من فرط الحركة. . ألم أقل لكم أنّني كنت في حزب «الحركة»؟
ـ نحن نبحث في الموت لا في الحركة. . ما العلاقة بين الأثنين؟
ـ الحركة الزّائدة تؤدّي إلى الموت الزّائد.
ـ هذا اعتراف جرمي خطير يا مريم، يعني أنّ الموت تمّ بصورة غير مباشرة. أنت إذن قاتلة بطريقة ما. .
ـ بطريقة الحركة. . ألم أقل إنّني كنت في حزب «الحركة»؟ الحقّ إذن على الحركة! ما رأيكم يا ناس؟

أصوات:
ـ الحركة بركة!

أصوات أخرى!
ـ الحركة ليست بركة!

أصوات:
ـ بل الحركة بركة!

أصوات أخرى:
ـ بل الحركة ليست بركة!

رئيس المجكمة صارخاً:
ـ وبعد؟ ما رأي النّيابة العامّة؟

الطروسي:
ـ لم نعيّن نيابة عامّة بعد. . .
ـ كيف؟
ـ هكذا. . .
مريم السّودا:

ـ إذن الاستجواب باطل، والتّهمة باطلة، ما رأيكم يا إخوتي؟

أصوات:

ـ مادام الاستجواب باطلاً فالتّهمة باطلة، مريم السّودا على حقّ.

أصوات أخرى:

ـ مريم السّودا على ضلال، الاستجواب صحيح، والتّهمة صحيحة.

رئيس المحكمة:

ـ وبعد!؟ أين المخرج من هذه الورطة يا طروسي؟

ـ في الحركة سيّدي!

ـ إذن «كأنّنا يا بدر لا رحنا.. ولا جينا!»

ـ تماماً كما تقول سيّدي!

ـ والمتّهم؟

عناد الزكرتاوي يقف منفعلاً:

ـ المتّهم يضحك من كلّ هذه المهزلة.. اللّعنة على نايف الفحل ومريم السّودا والحركة والبركة جميعاً! خلّصوني لا خلّصكم الله.. أصدروا الحكم أو اخلوا سبيلي، قل كلمة يا طروسي، أنا لا أعترف هنا بأحد سواك، ألست ريّس الريّاس؟

الطروسي:

ـ اهدأ يا زكرتاوي! الصّبر مفتاح الفرج.. ثمّ إنّ الحقّ عليك، لماذا خلقتنا، في كتبك، على هذه الصّورة؟ أو لماذا خلقتنا أصلاً؟ نحن في عالم غريب، عجيب، فاسد كما ترى، فلماذا خلقتنا!؟

الزكرتاوي:

ـ خلقتكم لأنّني خالق، أم كنت تريدني أن أبقى عاطلاً عن العمل؟ سعيت إلى الخير وها أنا ألقى الشرّ؟ أهذا جزائي؟ إنّ الخالق

الأدبي يـرسم بالكلمات، وهـا هو بـالكلمات يحاكم، فهـل هناك ظلم أبشع من هذا!؟

الطروسي:

ـ هـذا جـزاء كـلّ من هم أمثـالـك.. من يـزرع الـرّيـح يحصـد العاصفة.

ـ لكنّني أنا الّذي أنقذتك من العاصفة!

ـ كان هذا في الماضي، ونحن أولاد الحاضر..

ـ عقوق! هذا زمن العقوق! هل يحاكم الابن أباه؟ أين الضّمائر؟

أصوات:

ـ خفنا عليها من الفساد فوضعناها في الثلاّجة!

أصوات:

ـ والفساد كلّه في الثلاّجة!

أصوات:

ـ الحقّ إذن على الثلاّجة!

أصوات:

ـ حاكموا إذن الثلاّجة!

أصوات:

ـ العالم كلّه ثلاّجة!

أصوات:

ـ لنحاكم العالم إذن!

الطروسي:

ـ وماذا نفعل نحن!؟ لكنّ المحكمة لم تبدأ عملها بعد.. مازلنا في الشّكليات!

أصوات:

- ومتى تنتهي الشّكليات!؟

- عندما تبلعون ألسنتكم يا أوغاد! (لحظة صمت) ما رأيكم في أن يتولّى الأستاذ كامل مهمّة النّائب العام؟ إنّه، كما تعلمون، من الأوائل بيننا، وهو يتّصف بالعلم والنّزاهة، وله ضمير حي.. ما رأي المحكمة ؟ أو ما رأي المدعّي العام؟

الزكرتاوي:

- عن أي ضمير حيّ تتكلّم يا طروسي؟ هذا الّذي ترشّحه مات ضميره منذ خان مبدأه، فالضّمير والخيانة لا يجتمعان في جسد واحد أو نفس واحدة.

رئيس المحكمة يتشاور مع مستشاريه ويعلن:

- المحكمة موافقة على التّرشيح.

مريم السّودا:

- الادّعاء غير موافق، الأستاذ كامل صنيعة الطروسي، وهو الّذي لقّنه عبارة الحجّاج وشعر عمرو بن كلثوم، وإلاّ من أين للطروسي، هذا البحّار الأمّيّ، تلك الفصاحة الّتي تنطوي على تهديد لكلّ من في هذه القاعة؟ الادّعاء، سيّدي الرّئيس، يرفض التّهديد، ويطعن في صلاحية الطروسي لانتقاء هيئة المحكمة، والنّيابة العامّة، والادّعاء، والدّفاع.. إنّه منحاز للمتّهم، وهو، فوق ذلك، جاهل بالقانون.

رئيس المحكمة مازحاً:

- وأنت يا مريم ضليعة في القانون!؟ من أي جامعة تخرّجت!؟ نوّرينا نوّرك الله..

نايف الفحل:

- وزادك بياضاً على بياض!

مريم السّودا منفعلة:

ـ ما دخل السّواد والبياض في ما نحن فيه سيّـدي الرّئيس!؟ هـذا تحقـير للادّعـاء، نايف الـرّخو يحقّـرني بصفتي مدّعيـة وممثّلة للادّعـاء أيضاً!

نايف الفحل:

ـ أنـا لست رخواً، وفي هـذا الوصف الكـاذب قـدح وذمّ، أطلب تسجيـل ذلك في المحضر، ومعـاقبة أنثى الغـراب هذه عـلى سـلاطـة لسانها.

رئيس المحكمة:

ـ ما رأي المتّهم الزكرتاوي في ما يقوله نايف الفحل؟

مريم السّودا:

ـ هذا نايف الرّخو، وأكرّر الكلمة، وأتحدّى أن يثبت العكس.

رئيس المحكمة:

ـ البيّنة على من ادّعى. أثبتي أنت أنّه رخو كـما تدّعـين، وإلاَّ حقّ عليك القصاص، بتهمة القدح والذمّ.

مريم السّودا:

ـ وكيف أثبت أمامكم أنّه رخو!؟

أصوات:

ـ بالممارسة!

أصوات أخرى:

ـ وبطريقة «الستربتيز»!

ضحـك في القاعـة. هـرج ومـرج. أصـوات متـداخلة. مـطرقـة الرّئيس، الطروسي صائحاً:

ـ اللّعنة! اللّعنة!

المتّهم من قفصه:

ـ على كلّ هذه المهزلة! أوقفوا هذه المهزلة، أوقفوها. الرّحمة! أكاد أختنق، أكاد أنهار، أنقذوني من الانيهار..

مطرقة الرّئيس من جديد وصياح الطروسي من جديد:

ـ بَجَمْ! أنتم كلّكم بَجَمْ! قلت لكم الزموا الصّمت، يعني الزموه.. ماذا يفيدنا إذا كان نايف فحلاً أم رخواً؟ وماذا يهمّنا إذا كان عرج مريم السّودا يعوقها في الفراش أم خارجه؟ هذه مسائل لا تقال في المحكمة.. إنّها أسرار زوجيّة!

أصوات:

ـ كلّ شيء يقال في المحاكم، الأسرار الزوجيّة وغير الزوجيّة، وهذه مهمّة المحاكم الشرعيّة، أليست هذه محكمة شرعيّة، بصفتها محكمة استثنائيّة وشاملة؟

أصوات أخرى:

ـ نحن في محكمة جنائيّة لا في محكمة شرعيّة.. تابعوا الجلسة، تابعوها.. أين النّائب العام الجديد؟

مُحضر المحكمة زكريا المرسنلي ينادي:

ـ النّائب العام، الأستاذ كامل، إلى قوس المحكمة، وأنتم، يا بناديق زخريادس الخمّار، اسمعوا وعوا، والله، ثمّ والله، ثمّ والله...

الطرّوسي مقاطعاً:

ـ كفى! كفى يا زكريّا! الكلام لرئيس المحكمة، كبيرنا وحبيبنا أبو فارس، الّذي.. والبقيّة تعرفونها، وليس في الإعادة إفادة..

أصوات:

ـ ليس في الإعادة إفادة.

أصوات أخرى:

ـ بلى! في الإعادة إفادة.

أصوات:

ـ نكرّر: ليس في الإعادة إفادة.

أصوات أخرى:

ـ ونحن نكرّر: في الإعادة إفادة.

رئيس المحكمة:

ـ وبعد!؟ تسكتون أم نخلي القاعة؟

أصوات:

ـ نسكت!

أصوات أخرى:

ـ لا، لن نسكت.

رئيس المحكمة:

ـ وبعد!؟

الطروسي منرفزاً:

ـ اتركنا، يا أبو فارس، من «بعد» هذه.. تابع الجلسة. أعط الكلمة للنّائب العام، خلّصنا!

ابن الحمّال وابن برّو يغنّيان ويتبعهما الحاضرون:

ـ «اللّي شبكنا يخلّصنا! اللّي شبكنا يخلّصنا!»

رئيس المحكمة صائحاً:

ـ ما هذا!؟ من الّذي يثير هذه الفوضى؟ هل نحن في ملهى؟

ابن الحمّال:

ـ وما الفرق!؟ ثمَّ إنَّ الغناء يفتح النَّفس، بعد أن سدّها الطروسي، هذا الّذي يقول عنه المتّهم «ريّس الريّاس» في محاولة تملّق مكشوفة، كي يكون إلى جانبه. أنا أعترض على دور الطروسي من الأساس.

ابن برّو:

ـ أنا لا أعترض بل أتّهم أيضاً. الطرّوسي، خلال العاصفة المشهورة، تخلّى عن بحّارته، قتلهم. إذن هو قاتل، ومكانه قفص الاتّهام، إلى جانب الزكرتاوي، الّذي زعم النقّاد أنّه «نَحَتَه من أندر المعادن!»

مريم السّودا:

ـ الدّفاع يتبنّى الاتّهام! الطروسي قاتل، والقاتل يُقتل، هذا هو الشّرع، إنّني أطالب، باسم البحّارة الضّحايا، والحقّ العام، برأسه، وكلّ ما قام به، أو صدر عنه، من ترشيحات وتسميات، هو باطل، وتأسيساً على ذلك، فإنّ كلّ ما بني على باطل فهو باطل، لهذا أطالب بإلغاء كلّ هذه الإجراءات، والعودة إلى نقطة البدء.

لغط. ضجيج، تزاحم، صراخ، شتائم، عراك. مطرقة الرّئيس تدقّ بقوّة واستمرار. ابن الحمّال يحاول القفز على قوس المحكمة وضرب الأستاذ كامل، ابن برّو يهاجم الطروسي بالعصا. فوضى كاملة، تتداخل فيها الصيحات بالنداءات بالسباب بضربات المطرقة، وفي هذه اللّحظة يعلو صوت صالح حزّوم كهزيم الرّعد:

ـ ارفعوا أيديكم إلى أعلى، ارفعوا كلّكم، ومن يخالف يُسحق، وأنا الّذي سأسحقه كما تسحق الرحى حبّة الدّخن.

أصوات:

ـ ولكن من أنت!؟

ـ اسألوا تعرفوا! أنا صالح حزّوم. وسأبدأ بـابن الحمّال أوّلاً، هـذا رأس الفتنة. (يقبض عليه وينتزع العصا منـه) يليه ابن بـرّو، الرّأس الثاني للفتنة (يمسك به من قميصه فيقاوم، يتمـزّق القميص، لكنّه لا يستـطيع الإفلات)، أمّا أنت يـا مريم يـا سودا، أنت الـرّأس الثالث للفتنة، لكنّك امرأة، وتأبى الـرّجولـة أن تُضرب امرأة، اخـرجي من مقاعد الدّفاع، وقفي إلى جـانب هذين الـوغدين، أمّـا أنتم (يتوجّـه بـالكلام إلى الحـاضرين) فإنّني آمـركم بالهـدوء، الهدوء التّـام الّـذي تسمع معه رنّة الإبرة، أو أفعـل بكم، وبآبـائكم، وأمّهاتكم، كـذا! وكـذا!! المحكمة لابـدّ لها من حـرس، وأنـا رئيس حـرس المحكمـة أيضاً، ومن له اعـتراض فليرفع صـوته، وليتـوجّه بـالكلام إلى رئيس المحكمة.

أصوات:

ـ كبيرنا، وحبيبنا، وتاج رأسنا: أبو فارس!

رئيس المحكمة:

ـ كفّـوا عن الصّراخ. لا أريد مـديحاً. أريـد انضباطـاً. المحكمـة تسمّي الفتى أحمد، وقاسم العبد، وابراهيم الشّنكل، ومفيد الـوحش حرّاساً لها، وتسمّي صالح حزّوم رئيساً لحرسهـا، وله أن يختـار، عند الحاجة، من يـرى فيه الكفـاءة واللّياقـة، للحراسـة أيضاً. الكـلام، الآن، للمتّهم عناد الزكرتاوي:

ـ ماذا تريد يا زكرتاوي؟

ـ أن أبول يا سيّدي الرّئيس!

ضحك في القاعة توقفه مطرقة الرّئاسة:

ـ تبول!؟

ـ هذا مطلبي الوحيد في الوقت الحاضر، الاحتقان..

الرئيس مقاطعاً:

ـ لا تشرح يـا زكرتـاوي. . نعرف بقيّـة الكلام! لا رأي لمحتقن، ونحن جميعاً في حالة احتقان مثلك، لذلك نرفع الجلسة للاستراحة.

الجلسة الثانية

«هل عناد الزكرتاوي بريء أم غير بريء؟»

«عناد الزكرتاوي بريء وغير بريء في آن!»

«لقد أعلن، في بدء المحاكمة، أنّه غير مذنب، والأدلّة معه»

«وأعلن، أثناء سير المحاكمة، أنّه مذنب، والأدلّة ضدّه»

«إنّه سؤال، وسؤال، وسؤال!»

«ومن السّؤال تتخلّق علامة استفهام، ثمّ علامة استفهام، ثمّ علامة استفهام!»

«ومع الاستفهام علامة تعجّب! ثمّ تعجّب! ثمّ علامة تعجّب!»

«هذا هو العبث»

«بل هذا هو المعقول»

«ومن يملك الحقيقة المطلقة؟»

«الحقيقة نسبيّة ولا أحد يملكها مطلقة»

«إذن هو الجنون، هذا عالم مجنون»

«هذا عالم عاقل، فالمسؤوليّة تنتفي مع الجنون»

«إذا انتفت المسؤوليّة انتفى الحكم، والمحاكمة في هذه الحال عبثيّة»

«العبث لا يلغي السّؤال، والقضيّة، أوّلاً وأخيراً، مساءلة»

«من يسأل من؟»

«نحن جميعاً نسأل العالم، وعلى هذا الأساس نحاكمه»

«العالم لا يجيب، إذن كفّوا عن طرح الأسئلة»

«لا أحد يُسأل فلا يجيب، تابعوا طرح الأسئلة»

«ليس في القانون نظريّة تحاكم العالم، فالعالم هو الكون»

«قال أحد الفلاسفة: النّظريّة رماديّة اللّون لكن شجرة الحياة خضراء»

«معنى هذا أنّنا نحاكم الحياة، خضراء كانت أم يابسة»

«نحن نحاكم الحياة بما هي مجتمع، والمجتمع بما هو تاريخ، والتّاريخ حيّ وأخضر دائماً»

«لكن التّاريخ يبدأ منذ يبدأ التّفكير»

«والتّفكير يبدأ منذ يبدأ التّاريخ»

«والخلاصة؟ إذا كانت هناك محكمة فهناك قضيّة، أين القضيّة في ما نحن فيه؟»

«القضيّة واضحة، إنّها الحياة والمجتمع والتّاريخ والتّفكير، ونحن نحاكم هؤلاء جميعاً»

«وعناد الزكرتاوي؟»

«إنّه تجسيد لكلّ هذه الموجودات، لذلك نحاكمه وسنحكم عليه»

الزكرتاوي يمسك بقضبان قفصه بكلتا يديه صارخاً:

ـ حاكموني كيفما شئتم، لكن عجّلوا (يبكي) عجّلوا، فقط عجّلوا.. اطفئوا هذه النّار، اطفئوها!.

زكريا المرسنلي (المحضر):

ـ حاولنا ففشلنا! هذه نار إبليس، وأنت الّتي أشعلتها، توقّف عن الصّراخ، لأنّه لا فائدة منه.

الزكرتاوي ينهدّ فوق مقعده، رأسه بين يديه وهو ينشج بصوتٍ

عالٍ. تقترب منه كاترين الحلوة وتمسح على رأسه، بينما تحدّق فيه مريم السّودا بشماتة، ويداها على خاصرتيْها. الحاضرون في القاعة يذهبون، يجيئون، يتكلّمون، يتصايحون، يتضاحكون، يتدافعون نحو قفص الاتّهام، منهم من ينظر بعطف، بحنان، بحبّ إلى الزكرتاوي، ومنهم من ينظر بقسوة، بكره، بحقد، والنّار تستمرّ في الاشتعال، وتستمّر ألسنة اللّهب في الارتفاع، وحين تبلغ أعلى مستوى، تتفتّح، كورود جوريّة، ويخرج منها إنسان ما: رجل، امرأة، شيخ، طفل، فينفصل كلّ منهم عن النّار ويأخذ مكاناً له في جوانب القاعة، عن طرفي قوس المحكمة، ويظلّون وقوفاً، بينما مقاعد محامي الادّعاء والدّفاع فارغة، وعلامات الاستفهام، والتعجُّب، والأهلة ترتسم في الفضاء.

قالت كاترين الحلوة للزكرتاوي:

ـ هل عرفتني يا سيّدي؟

حدّق فيها وقال:

ـ لقد ظلمتك، فكيف تخلّيت عن الادّعاء وانضممت إلى الدّفاع؟

قالت:

ـ لأنّك كنت منصفاً معي. لعبتُ الدّور الّذي رسمته لي بحرِّيّة، دون تدخّل مباشر منك. لم أكن قدّيسة ولا إبليسة، كنت أنا ذاتي: كاترين الّتي فتنت الريّاس الّذين أحبّوها. لم تأخذني بجريرة أعمالي. لم تصدر عليّ حكماً، بالبراءة أو الإدانة. أكثر من ذلك، أحببتني أنت أيضاً، حبّ الرّجل للمرأة، لكنّك كتمت حبّك، باعتبارك الخالق الأدبي العادل، الّذي هو فوق الحبّ والكره، ومهمّته الرّسم بالكلمات فقط. كنت، حقّاً، رائعاً!

ـ وبعد الرّوعة انتهيت إلى هذا المصير البائس!

ـ حين لا يكون بؤس في الدّاخل، لا يكون بؤس في الخارج!

ـ كنت أرجو، وقد فُرضت عليّ هذه المحاكمة، أن تكون شكليّة: كلمات ثمّ الحكم!

ـ هذا سيصير، لكن المدّعين عليك كثر، وها هي النّار مازالت تطرح الجديد منهم.

ـ النّار لا تطرح شيئاً. هؤلاء يخرجون من رأسي والعداء يفحّ في عيونهم.

ـ تخشاهم إلى هذا الحدّ!؟

ـ لأنّني ارتهنتهم في ذاتي إلى هذا الحدّ. كنت، في رأيهم، سجّاناً وجلّاداً. ولكن تأمّلي! ماذا في وسع خالق أدبي أن يفعل بكلّ هذه المخلوقات الأدبيّة، ودفعة واحدة كما يريدون! الرّب نفسه استراح في اليوم السّابع.

ـ أنت في أيّ يوم الآن؟

ـ لا أدري! كلّ ما أعرفه أنّني عملت وعملت. كان عملي مرهقاً، وكانت الأوراق والأقلام تعذّبني. إنّني أخاف الورقة والقلم، ومع الأيّام انقلب هذا الخوف إلى كره. إنّني أكرهكم جميعاً. اغربوا عن وجهي، عودوا إلى النّار الّتي منها خرجتم. لا أستطيع تصوّر كيف أنّ عليّ أن أمنح الحياة لكلّ هؤلاء الّذين أظافرهم تحفر في دماغي، طالبين منحهم الحياة، ولأنّني عجزت، فإنّهم جاءوا الآن لمقاضاتي. تجارب الحياة، يا كاترين، تكون أكبر من من الحياة نفسها دائماً. لقد عشت! أشهد أنّني عشت، غير أنّ العيش كثيراً ما تقصّر عنه طاقة التّعبير، وهذا ما حدث معي.. لماذا يتّهمونني بقتل ديمتريو، هذا الّذي خاف الحبّ فقتله!؟

ـ عليك أن تقول هذا كلّه للمحكمة. دافع عن نفسك والبراءة مضمونة.

ـ لا أريد الدّفاع ولا البراءة.

ـ أعرف، ومن أجل ذلك تخلّيت أنا عن النيابة العامّة لأنضم إلى الدّفاع. لديك خطّة ولديّ خطّة. المفاجأة لن تكون مفاجأة!

ـ بلى! ستكون. انتظري تري.. ها هو صالح حزّوم. نزل عن قوس المحكمة ليقضي على الفوضى، وقد قضى عليها. هذا هو رَجُلي. أنا، عناد الزكرتاوي، وحده القادر على خلق أمثال هؤلاء الرّجال، على خلق أمثال هؤلاء الأبطال الشّعبيين كما أسمّيهم. إنّه، صالح، يراك ولا يأتي إليك. له كبرياؤه. لماذا لا تذهبين أنت إليه؟ الرّجولة صنو الكبرياء، وهي كلّ شيء، هي الشّجاعة والخُلُق الكريم. اذهبي إليه، اذهبي! ألا تذهبين!؟

ـ لي كبريائي أنا الأخرى!

ـ في الحبّ، حين يكون عظيماً، لا توجد كبرياء. أنت حبّه العظيم، وهو حبّك العظيم، فعلام هذا التّباعد؟

ـ وإذا كان السّبب فيه هو!؟ لقد نفاني. عشت منفيّة بعده. حاولت الانتقام منه دون جدوى. خنته حتّى مع ابنه الّذي هو من صلبه، لكن خيانة الجسد، إذا كان هناك وفاء القلب، لا تصنع انتقاماً. لقد فشلت، وبسبب فشلي عدت إلى البحر، النّاس، هناك، أرحم. دنياكم، يا زكرتاوي، مفعمة بالقسوة. لماذا أنتم قساة إلى هذا الحدّ؟ ثمّ الذنب في هذا على من؟ عليك! ومن أجل هذا أنا مدّعية ومدافعة في وقت واحد. أحذّرك! دع المفاجأة. لن أسمح بأن تكون هناك مفاجأة!

ـ بلى! ستكون يا كاترين، ستكون هناك مفاجأة، وأنا الّذي أصنعها. انظري! هذه مريم السّودا تكاد تفترسني غضباً.. ما بك يا مريم؟ وما هذه الفضائح بينك وبين نايف الفحل؟

قالت مريم السّودا بنبرة انفعال حاقد:

ـ اسأل نفسك. خلقتني عرجاء، وزوّجتني من رجل لا خير فيه.

قال الزكرتاوي:

ـ الخير نسبي في هذا العالم يا مريم.

فحّت مريم:

ـ لكنّه ليس كذلك مع هذه العاهرة الّتي اسمها كاترين الحلوة. خلقتها جميلة وخلقتني شوهاء، أين العدل في هذا؟

ـ إنّه القدر يا مريم.

ـ أنت القدر والمقدور!

ـ هذه قدرة لا أدّعيها. كلّ امرأة لها ظرف، وأنا راعيت الظّروف. لم أتعمّد شيئاً، لم أحشر نفسي في شيء. البغي كانت بنت مجتمعها، والفاضلة بنت مجتمعها أيضاً. أنا شاهد على ما كان، لا مزوّر له. كلّ منكم عاش كما اقتضى منطق محيطه أن يعيش، فأيّ شأن لي في هذا؟ الزّيف ليس مهنتي.

ـ لكنّك زيّفتني، أنا زكريّا المرسنلي، خلقتني نصف إنسان ونصف وحش.

ـ كنت أنت نفسك هكذا، قبل أن تفجّر إنسانيّتك الرّاعية شكيبة.

ـ المرأة لا تصنع إنسانيّة الإنسان.

ـ لولا المرأة، يا زكريّا، كان كلّ رجل وحشاً، ولولا المرأة ما هبط آدم من الجنّة، ولما كنّا نحن، كذلك لولاها ما خرج الرّجل من الغابة، ولبقي المجتمع بدائيّاً. هذا هو الواقع، وأنا واقعيّ كما تعرف.

ـ هذا تحيّز يا زكرتاوي، قتلتني أنا ديمتريو، وأبقيت راجعة حيّة من بعدي!

ـ الّذي قتلك هو جبنك يا ديمتريو. لماذا لم تكن شجاعاً مثلها؟

كنت، عمرك كلّه، متردّداً. لم تحزم أمرك حين كان يجب الحزم، وهذا جزاء المتردّد الّذي لا يعرف كيف يحزم أمره عند اللّزوم.

ـ أنا حزمت، لكن ديمتريو الآخر لم يحزم.

ـ الأنا هو الآخر أيضاً، تذكّر هذا جيّداً.

ـ قل هذا للمحكمة!

ـ وإذا كنت لا أعترف بمَحكمة كهذه، لأنّني لست المتّهم ولستم أنتم المُتّهمين!؟ ما رأيك أيّها الشّيخ الحكيم، يا فهيم المتبحِّر، بهذا الّذي يجري؟

ـ إنّه من طبيعة الأشياء. لا كتابة دون معاناة. هذه معاناة أيضاً. أنا مثلك أعاني. أنت من اختار لي طريق المعاناة، ومن جعلني أؤمن بـ «المادّة والحركة»، رغم أنّني لا أشتغل بالفلسفة، ولم أكن يوماً فيلسوفاً محترفاً.

ـ راجعة، ابنتك، تدافع عنّي.

ـ لأنّها مثلي، لا تستطيع أن تدير ظهرها لعذابات النّاس.

ـ عذابات النّاس لا تنتهي لمجرّد رغبتنا في أن تنتهي. ما هو أفضل يحتاج إلى ما هو أشق: النّضال!

ـ هذا صحيح يا قاسم العبد. أنت ناضلت، وذهبت ضحيّة نضالك. لكن حبّة الحنطة لا تموت، بل تأتي، إذا وقعت في أرض طيّبة، بثمر كثير.

ـ إذن أنا حبّة الحنطة الّتي وقعت في أرض خبيثة.

ـ لا، ليس الأمر كذلك يا رئيف لمعة. كلّ ما في الأمر أنّك حبّة حنطة لم تنبت بعد. ماذا حدث «لبيزنطة الجديدة» الّتي كنت تعمل لكي تبقى؟

ـ ذهبت يا زكرتاوي، انهارت، وكذلك انهارت أعمدة المعبد السّبعة.

ـ هذا ما يسمّونه مكر التّاريخ. الأخطاء، يا بني، تتطلّب أثمانها. لكن أعمدة أخرى ستنهض!

ـ متى!؟

ـ في الزّمن الآتي. المهمّ ألّا تتعجّل. ولا تخدع النّاس بأنّ المعبد سيكون، كما كان، قريباً، ففي هذا ضلال وتضليل. المعبد لن يكون ذاته، والطّريق إلى إعادة بنائه لن تكون ذاتها.

كلّ شيء يتغيّر: الأفكار والأساليب وطريقة البناء نفسها. دع عنك كلمة «متى؟» هذه، لئلا تقودك العجلة إلى النّدامة، لأنّها تمرّ في حقل اليأس.

ـ وإذا كنت لا أيأس، وأكافح اليأس والتيئيس، كما هي حالي دائماً؟

ـ تكون ابن زمانك يا فيّاض. ألست الّذي قال عنه صديقه خليل: «هذا هو ابني الحبيب الّذي به سررت»؟

ـ وأنا يا سيّدي؟ أنا الّتي لا اسم لها، لأنّها لم تر النّور بعد؟

ـ أنت الّتي ستكون امرأة الرّجل الّذي يقول واثقاً: «هذه المرأة ستكون لي!»

ـ ومن هو هذا الرّجل!؟

ـ إنّه ذاك الّذي يستند إلى الجدار، ومن موقعه ينظر إليك واثقاً ولامبالياً بالعشّاق الّذين يحيطون بك من كلّ صوب.

ـ ومتى أكون له!؟

ـ لا أحبّ «متى» هذه.. دورك لم يأتِ بعد.

ـ وإلام أنتظر هذا الدّور أيّها العجوز الخرف؟

ـ إلى الوقت المكتوب في لوح سيناء.

ـ هذا تخريف! هذا تسويف! إنّني أحتجّ وسأقاضيك مُرّ المقاضاة،

لا باسمي فقط، بل نيابة عن كلّ الّذين في مثل حالي، الّذين انتظروا وانتظروا ومازالوا ينتظرون.

ـ أنا لست آلة تفريخ.

ـ وكيف فرّخت كلّ هؤلاء الّذين في هذه القاعة؟

ـ اسألي عن هذا هيئة المحكمة.. ها هي عادت أو تكاد.. لقد فُتح الباب الّذي كانت وراءه تتداول في أمري.

المحضر زكريا المرسنلي يصيح:

ـ محكمة!

تعلو ضجّة مباغتة. الحابل الّذي اختلط بالنابل ينسل بعضه من بعض. شربوكة الخيوط البشريّة تنحلّ وتنفرز. هذا إلى اليمين. ذاك إلى اليسار. أولئك إلى ركن القاعة. هؤلاء إلى الرّكن المقابل. الّذين رأوا النّور في موقف، والّذين لم يروا النّور في موقف آخر. النّار تشتعل في الدّاخل. الثّلج يتساقط في الخارج. الرّيح تصفر. السّماء الرّماديّة تزداد قتاماً. البيت المعزول بالثّلوج عالم بذاته. لا أحد يدري ما يجري داخله. هو أيضاً لا يدري ما يجري خارج جدرانه. الزكرتاوي في قفص الاتّهام. ينهض عند دخول هيئة المحكمة، ثمّ يجلس كالآخرين. إنّه منشرح. لقد رأى. سمع. أجاب. قال قوله، قال ذاته، أصغى إلى أقوال الآخرين، قرأ ما هو مكتوب في ذواتهم. استعاد ما فقد من ثقة. استرجع بعض زهوه. ابتسامته السّاخرة ازدادت تمرئياً على شفتيه. عاد الخالق الّذي يعرف كيف يرتفع على مخلوقاته.. يكرهها؟ لا! يحبّها؟ لا! هو هي؟ لا أيضاً. إنّه، بكلمة، في حدود اسمه: عناد الزكرتاوي فقط.

ثلاث ضربات تعلو. إنّها مطرقة الرّئيس أبو فارس. تحذير! الزموا الهدوء التّام! الهدوء يخيّم، وأبو فارس يعلن:

ـ المحكمة تستأنف النّظر في الدّعوى الّتي أمامها. . الكلمة للنائب العامّ الأستاذ كامل.

النّائب العامّ:

ـ سيّدي الرّئيس، السّادة القضاة! ما كنت أرغب، والقضيّة على مثل هذا التّعقيد، أن أكون نائباً عامّاً، لكنّني أقبل التّكليف لسببين وجيهين: أوّلهما أنّني الوحيد بين هذا الجمع الحاشد، الّذي لا يتّهم عناد الزكرتاوي في شيء. إنّني استثناء، والآخرون كلّهم القاعدة، وهذا يعطي لوجودنا هنا موضوعيّته المطلوبة. أمّا السّبب الثّاني فإنّ الّذي رشّحني هو الطروسي، الريِّس الّذي يتحلّى بالنزاهة والاستقامة، وفوقهما الجسارة الّتي دونها يكون الرّجل مخصيّاً لا خير فيه، وقد أحسن في اختيار هيئة المحكمة، وكان دقيقاً وواعياً في موافقته على من اختارتهم المحكمة الموقّرة للادّعاء والدّفاع.

إنّ القضيّة الّتي بين أيدينا غير مسبوقة إلاّ نادراً في تاريخ القضاء، لهذا أوافق على مقولة أنّنا نحاكم العالم من خلال محاكمة عناد الزكرتاوي، فالعالم هنا كامل من الوجهة الاجتماعيّة، وهو، فوق ذلك، عالمان لا عالم واحد: عالم الّذين تخلّقوا فاستووا بشراً، وعالم الّذين مازالوا في رحم الغيب التي مركزها دماغ المؤلّف المسكين. إذن لابدّ لنا، مراعاة للأصول، من الفصل بين العالمين، وأترك للمحكمة أمر تقدير من هو الطّرف الّذي تبدأ في نظر قضيّته أوّلاً، مع ملاحظة أنّ الأفضليّة، في مثل وضعنا، للموجود على الّذي سينوجد، فالموجود بيّن الادّعاء، في حالتي الظلم والإنصاف، ولديه وقائعه وأدلّته، أمّا الّذي سينوجد فقد لا ينوجد أبداً، ويظلّ غيباً في الغيب، يظلّ طيفاً، ونحن هنا لمحاكمة البشر لا الأطياف.

أصوات مقاطعة:

ـ هـذه مغالـطة صارخـة. كلّنا خـرجنـا من النّـار، وكلّنـا، بهـذا الخروج، سواسية، فلا بشر ولا أطياف!

أصوات أخرى:

ـ النّائب العامّ لا يغالط. إنّه، ولأوّل مرّة في هذه المحكمـة، يضع حدّاً للتداخل بين فريقين: موجود وغير موجود.

تتقدّم امرأة سمراء، فارعة الطّول، ذات عينـين رمحاوين، وشعـر أسود، وجمال أخّاذ، إلى أمام قوس المحكمة، وتسأل:

ـ سيّدي الرّئيس! هل أنا موجودة أم غير موجودة؟

أصوات:

ـ إنّها موجودة. وهي مثل الآخرين، من لحم ودم.

أصوات أخرى:

ـ نعم هي من لحم ودم، ولكنّهـا بغـير اسم ولا دور، اسـألـوا الزكرتاوي تعرفوا.

الادّعاء: كرم المجاهدي:

ـ كلّنا، سيّدي الرّئيس، كنّا بـلا اسم ولا دور عند ولادتنـا، فهل المـولود، قبـل هذا، غـير مولـود؟ وهل ينكـره والـداه، لمجـرّد أنّهما لم يعطياه اسماً ودوراً بعد؟ (يخرج من مقعده ويضع كفّه عـلى كتف المرأة قائلاً) الطّيف، عمليّاً، خيـال، والخيال لا يُمسـك، لكنّني أنا، وأنتم أيضاً، نستطيع إمساك هذه المرأة، وهذا دليل محسوس وملموس عـلى أنّها بشر من البشر، وليست طيفاً من الأطياف كما يريد النّائب العـامّ أن يغالط، منحازاً إلى طرف ضدّ آخر، الأمر الّذي لا يخل بـالعدالـة فقط، بل ينفيها نفياً كاملاً أيضاً.

الرّئيس:

ـ ألفت جهة الادّعاء إلى ضرورة الابتعاد عن الاتّهام والتّجريح . . ما رأي الزكرتاوي؟

يقف المتّهم الزكرتاوي :

ـ إنّه مأزق سيّدي الرّئيس!

الرّئيس :

ـ وكيف السّبيل إلى الخروج منه. أنت، بيننا، من يقرّر. هذه المرأة طيف أم بشر؟

ـ اسألوا النّار، هذه بنت النّار لا بنتي.

ـ كلّنا أبناء النّار وكلّنا أبناؤك. المحكمة تطلب جواباً محدّداً : هذه المرأة طيف أم بشر؟

ـ طيف وبشر في آن.

ـ ما اسمها!؟

ـ لا اسم لها!

ـ ما دورها!؟

ـ الّذي في ذهني أم الّذي في الواقع؟

ـ الّذي في الواقع، المحكمة تتعامل مع الوقائع لا الأفكار.

الدّفاع : مرّان الطّوراني :

ـ كلّ واقع كان فكرة قبل أن يقع. الحلم يسبق الممكن، لأنّ الممكن كان حلماً ممكن التّحقيق قبل أن يتحقّق. إنّني أسأل المتّهم عناد الزكرتاوي : نحن جميعاً، أيّ كلّ من في هذه القاعة، كلّ مخلوقاتك الّتي تقاضيك الآن، كانت في البدء، أفكاراً أم لا؟ بصيغة أخرى : كانت طيوفاً في رأسك قبل أن تخرج منه وتتجسّد بشراً؟

الزكرتاوي :

ـ كانت أفكاراً، وأحلاماً، وطيوفاً . . لا شيء يخرج من لا شيء

كما تعلمون. كـان كلّ منكم شيئـاً، تجسّد من بعـد مخلوقاً، إنّني، في تعاملي مع الواقع، كنت آخذ الواقع نـطفة، هـذا ما كـان، وهذا مـا يكون دائماً، معي ومع الآخرين.

مرّان الطّوراني:

ـ أكتفي بهذا الجواب سيّدي الرّئيس.

كرم المجاهدي:

ـ الادّعاء يعترض على الجواب، لأنّـه قبلاً، يعـترض على السّؤال، السّؤال، سيّـدي الـرّئيس، كـان تلقينـاً، فـأتى الجـواب عـلى مقـاس التّلقـين، وهذا مخـالف للأصـول. . من جهة أخـرى هنـاك، في مـا يتعلّق بالواقع، رأيان: الأوّل يقول بأوّلويّة الفكر على الواقع، والثاني يقـول بأوّلـويّة الـواقع عـلى الفكر. إنّني أسـأل المتّهم: مـا رأيـك يـا زكرتاوي بقول أحد الفلاسفة: «إنّني أفكّر إذن أنا موجود؟»

الزكرتاوي:

ـ هناك، أيضاً فيلسوف يقول: «أنا موجود إذن أنا أفكّـر» إنّني مع القول الثاني.

النّائب العامّ:

ـ الادّعـاء والدّفـاع يريـدان، كلاهمـا، إدخال المحكمـة في دوّامـة التّجـريد الفلسفي. نحن هنـا، سيّدي الـرّئيس، للنظر في اتّهـامـات مـوجّهة إلى المتّهم والبتّ فيهـا، ولسنـا لتقـريـر أسبقيّـة البيضـة عـلى الدّجاجة. . هذه متاهات وسفسطة! الزكرتاوي كـان واضحاً في قـوله إنّ كلّ هؤلاء الموجودين في هذه القاعة، كانوا طيوفاً في رأسـه قبل أن يكـونوا شخصيّـات في كتبه، إذن هنـاك طيـوف صـارت شُخـوصـاً، وهنـاك طيوف مـازالت طيـوفـاً، والقضيّـة هي التـاليـة: من لـه حقّ الأسبقيّة في نظر دعواه: الشّخوص أم الـطّيوف؟ النيـابة العـامّة تـرى

حقّ الأسبقيّة للشخوص، لكنّها لا تعترض في نظر قضيّة الطّيوف بعد ذلك، آخذة بعين الاعتبار المقولة الفلسفيّة التي أوردها المتّهم: «لا شيء يخرج من لا شيء»، وكذلك مقولة الدّفاع: «الحلم ممكن التحقيق، كان حلماً قبل أن يتحقّق» فالحلم فكر، والفكر ناتج الدّماغ، والدّماغ كتلة مادّيّة، وما يصدر عن هذا الدّماغ وينتشر في النّاس يصبح عنصراً مادّيّاً محرّكاً ومحرّضاً للنّاس، والنيابة العامّة ترى في المتّهم محرِّضاً، ولديها الأدلّة، لكنّها، قبل المضي في مطالعتها، تترك للمحكمة الموقّرة أن تقرّر من له حقّ الأسبقيّة بين الحاضرين في هذه القاعة.

رئيس المحكمة يتشاور مع مستشاريه ويعلن:

- الأسبقيّة للشخوص!

تصفيق جماعي وأصوات:

- يحيا العدل!

أصوات أخرى:

- يسقط الظّلم.

مطرقة الرّئيس تدقّ محذّرة، فيعود الهدوء تدريجيّاً، والزكرتاوي يطلب الكلام، فيأذن له رئيس المحكمة. الزكرتاوي واقفاً.

- سيّدي الرّئيس! إنّني أكرّر ما قلته: لا أفهم ما يجري في هذه القاعة! من أنتم!؟

أصوات:

- مخلوقاتك المظلومة يا زكرتاوي.

- ومن أين جئتم؟

- من النّار.

- النّار تعطي رماداً لا بشراً.

أصوات:

ـ هذه نارٌ تختلف!

أصوات أخرى:

ـ وهذه محكمة تختلف!

الزكرتاوي:

ـ إذن أنا أختلف أيضاً.

أصوات:

ـ لا، أنت لا تختلف، أنت الوحيد بيننا الّذي لا يختلف، لأنّك لم تأتِ من النّار، بل أنت من أشعل النّار.

ـ وأنتم؟ أين كنتم!؟

أصوات:

ـ كنّا وراءك وأنت تهرب منّا. كنّا مبثوثين في الرّيح، ممزوجين في الثّلج، كامنين في الحطب، نحن أولادك وأنت أبونا، فهل تعرف جزاء الأب الّذي يهرب من أولاده؟

ـ أنا لا أعرف شيئاً، ولا أريد أن أعرف شيئاً. كلّ ما أطلبه هو الخلاص، وبأسرع ما يمكن، فمتى يصدر الحكم؟ لقد اعترفت بأنّني مذنب! ثمّ أنتم، كما تقولون، من النّار، وتفهمون لغة النّار، فماذا كانت تقول هذه النّار في وقت الاستراحة؟

أصوات:

ـ كانت تقول إنّك بريء، وغير بريء، وأنّ الّذي يحاكم هو العالم، لكن من خلالك، وكانت تطرح أسئلة بعد أسئلة، لأنّ هذا هو زمن الأسئلة، فالمسلّمات فات أوانها، والحقائق المطلقة مضى زمانها، والمتغيّرات، من حولك، غيّرت كلّ شيء، وهذا ما لم تفهمه، أو الأصحّ رفضت أن تفهمه، لذلك تحجّرت، وتصرّ على أن نتحجّر

معهم، وهـذا من المستحيلات. . الفـارق بيننا، في حـدّ الحـدّ، هـو هـذا: التّغيير، وفي كـلّ شيء! ميـاه الأنهر لا تكـون هي ذاتهـا، والطّرق، على رمال الصّحراء، لا تكون هي ذاتها، وبناء العالم، أيّها الأب المعـماري، يُعـاد الآن من جـديـد، لكن ليس عـلى الأسس السّابقة، ما مضى قد مضى وانتهى، افهم، افهـم، افهم!

رئيس المحكمة:

- هل فهمت يا زكرتاوي؟

- لم أفهم سيّدي الرّئيس.

- إذن نتابع المحاكمة. . النيابة العامّة تستأنف مطالعتها.

النّائب العامّ:

- سيّدي الرّئيس، أيّها القضاة، المتّهم الـزكرتـاوي أخـرجنـا من المأزق، والمحكمة فَصَلتْ في موضوع الخلاف، حين جعلت الأسبقيّـة للموجود على الّذي سينوجد، وبذلك انتهينا من هذه النّقـطة، لكنّني «ألمح خلف الغيم طوفاناً». فمريم السّودا، الّتي تتولّى، لا أدري بأيّة جـدارة، مهمّة الادّعـاء، تسعى إلى هدم الـتّركيبة المتّفق عليهـا لهـذه المحكمة الموقّرة، تعطيلاً لأعمالها، بإعادتنا إلى نقطة البدء، وإحـداث البلبلة في هـذه القاعـة، ظنّاً منهـا أنّها بـذلـك تنجـو من التّهمـة الّتي وجّههـا إليها زوجهـا نايف الفحـل، واستجـوبتهـا رئـاسـة المحكمـة بشأنها، وتتعلّق بقتلها أزواجها السّابقـين، وفقاً لمـا هو مـدوّن في ضبط المحكمة، بذريعة أنّ النيابة العامّة لم تكن ممثّلة عند استجوابها، وهذا خطـأ يعود تقديره إليكم، أمّا أنا، وبالصفة الّتي أشغلها، فإنّني أرى استمراريّة قيام كاتـرين الحلوة بمهمّة النّـائب العامّ، إلى أن يعـينّ من يخلفهـا في هذا المنصب، تمشّيـاً مع الاجتهـاد القائـل بقيام الحكـومـة المستقيلة بتصريف الأعمال، إلى أن تعينّ حكومة جديدة محلهـا، وبناء

عليه فإنَّ الاستجواب كان قانونيّاً، ولا أجد مبرّراً لإعادته، مع ملاحظة أنّ هذه المحكمة استثنائيّة، تعمل في ظروف استثنائيّة، تعطيها الحقّ في أن يكون لها عرفها غير المسبوق.

رئيس المحكمة يتشاور مع مستشاريه ويعلن:

- الاستجواب كان قانونيّاً!

النّائب العامّ:

- في هذه الحال تطلب النيابة العامّة توقيف المدعوّة مريم السّودا، وإدخالها قفص الاتّهام، لأنّها أخفت الحقيقة عن المحكمة، وتطاولت بالقدح والذّم على الريّس محمّد بن زهدي الطروسي، زاعمة أنّه قتل بحّارته، والوقائع تثبت العكس، فقد أعاد الطروسي بحّارته إلى الشّاطئ، حتّى يجنّبهم خطر الموت، آخذاً مغبّة المغامرة على عاتقه وحده، وهذا واضح في «الشّراع والعاصفة» وضوح الشّمس، ويمكن أن يُسأل عن هذه النّاحية المتّهم عناد الزكرتاوي.

رئيس المحكمة:

- ما رأيك يا زكرتاوي؟

- مريم السّودا مشاغبة، والشغب، في المحكمة، ممنوع قانوناً كما يعرف الجميع، وقصدها إطالة تعذيبي، بإطالة مدّة المحاكمة. هذا أوّلاً، وثانياً فإنّ القدح والذّم بحقّ الطروسي ثابت، وأنا أشهد أنّه أراد افتداء بحّارته لا قتلهم كما افترت عليه مريم السّودا. ثالثاً، تهمة قتل أزواج مريم السّودا تتحمّل مسؤوليّته الحركة، كما بيّنت هي لكم، فلدى هذه المرأة فرط شبق يقود إلى فرط حركة، والغاية منها مضاعفة اللّذة لا الإماتة، لكن ماذا نفعل إذا كانت الغاية جاءت معكوسة، فلم يتحمّل ثلاثة أزواج خرعين حركة امرأة واحدة؟

رئيس المحكمة:

ـ ماذا تقولين يا مريم يا سوداء؟

مريم السّودا:

ـ أحتجّ عليك يا أبا فارس، فالسواد لقب لا صفة، وأنت، في مناداتي، جعلته صفة، وهذا قدح وذم أيضاً، تعاقب عليه مثلك مثل الآخرين، ولا يشفع لك منصبك، لأنّنا نحن الّذين نصّبناك فيه. أمّا الحركة فهي بركة كما سمعت من الأوادم الموجودين هنا، وأنا، وحياة شواربك، استخدمت، مع أزواجي المتوفين، أقلّ ما عندي من حركة، لكن المجتمع الذكوري، في نفاقه الاجتماعي، يفرض على المرأة، كيلا تتّهم بالعهر، أن لا تظهر أيّ شبق مع زوجها، وخاصّة مع زوجها، أيّ أن تكون تحته، حاشاك، جثّة هامدة، إلى أن. .

الرّئيس مقاطعاً:

ـ كفى! ألا تخجلين من قول كلّ هذه البذاءات علناً!؟

مريم السّودا:

ـ أنا، وحياة شواربك، أورد حقائق لا بذاءات. . ثمّ أنا، وحياة شواربك أيضاً. .

الرّئيس صارخاً:

ـ دعي شواربي، قاتلك الله، أنت في محكمة أم في شارع!؟

ـ أنا في محكمة استثنائيّة في شارع استثنائي، فلا تقاطعني من فضلك. دفاعي هذا ليس عن نفسي فقط، بل عن النّساء جميعاً، واسأل زوجتك تعرف الحقيقة كاملة. أمّا الزّرخشيّ. .

ـ من!؟

ـ الزّرخشيّ!

النّائب العامّ:

ـ الزّمخشري سيّدي.

ـ ما له الزّمخشريّ هذا!؟

ـ أطلب استدعاءه كشاهد، ليفصل في موضوع اللّقب والصّفة.

الزكرتاوي صارخاً:

ـ عبث! هذا عبث! مريم السّودا تلجأ إلى العبثية دون أن تدري أنّها عبثيّة، تريد تعطيل المحكمة!

مريم السّودا:

ـ اسكت أنت يا عكروت!

رئيس المحكمة:

ـ ماذا!؟

ـ فلتة لسان سيّدي؟

ـ كيف فلتة لسان؟ تشتمين الزكرتاوي!؟

ـ وماذا يعني!؟ الزكرتاوي شتمنا جميعاً. إنّه ساخر وبذيء، هكذا قالت لي بورانا الغجريّة، لذلك أطلبها، إذا وافقت المحكمة، للشهادة، فهي موجودة معنا في هذه القاعة.

رئيس المحكمة بعد المشاورة:

ـ المحكمة تصرف النّظر عن استدعاء الشّاهدين المذكورين، الزّمخشري وبورانا الغجريّة.

ـ إذن اسمّي شاهدين غيرهما.

ـ وبعد يا مريم!؟

ـ ولا قبل يا أبو فارس! مريم الّتي كنت تحبّها في «المصابيح الزّرق» تدافع عن نفسها الآن.

ـ أبو فارس في «المصابيح الزّرق» غيره في المحكمة.

ـ ومريم السّودا في «المصابيح الزّرق» غيرها في المحكمة، ومن فمك أدينك.. إذن براءة!

النّائب العامّ:

ـ سيّـدي الرّئيس، مـريم هذه أخـطر ممّـا كنّـا نـظن. إذا واصلنـا «اللّت والعجن» معها تعطّلت المحاكمة.

النّيابة العامّة تطلب التحفُّظ عليها ووضعهـا في قفص الاتّهام، إلى أن نفرغ من النّظر في الدّعوى، فننظر في الاتّهامات الموجّهة إليها، لجهـة القدح والذم.

مريم السّودا:

ـ فشرت!

رئيس المحكمة:

ـ ماذا!؟ تتطاولين على النّائب العام؟ وبمثل هذه البذاءة!؟

ـ فلتة لسان أخرى سيّدي الرّئيس.

نايف الفحل.

ـ لا تصـدّقوهـا! مريم السّـودا زوجتي وأعـرف بـذاءاتهـا. قصّـوا لسانها!

مريم السّودا تتقدّم إلى وسط القاعة صارخة:

ـ أنت، يـا نـايف، يـا رخـو، تــطلب قصّ لسـاني!؟ ومن يقصّ لساني!؟

الطروسي:

ـ أنا يا مريم:

ـ الّـذي يقصّ لساني لم يخلق بعـد. . لا تقترب منّي يـا طـروسي. المساس بالمرأة مساس بالعرض!

ـ وهل أنتِ امرأة يا هرقولة!؟ أنا الطروسي، وأنـا من يمسّ عرضـك وطولك معاً، احملها يا مفيد الوحش إلى قفص الاتّهام.

مريم زاعقة:

ـ إيّاكم! لا تقتربوا منّي! الاقتراب منّي تجاوز على صلاحيّة المحكمة وإهانة للادّعاء. بيني وبينكم نقابة المحامين، وسنرى.

النّائب العام:

ـ من أيّ كليّة للحقوق تخرّجت يا مريم!؟

مريم:

ـ من نفس كليّة الحقوق الّتي تخرَّجت منها يا معلِّم الصبيان!

الطروسي وقد نفد صبره:

ـ أعوذ بربّ الفلق من شرّ ما خلق.. وماذا تنتظرون!؟ ماذا تنتظر المحكمة!؟ ماذا أكثر من القدح والذّم والبذاءة وسلاطة اللّسان!؟

رئيس المحكمة:

ـ ولكنّها امرأة يا طروسي.

نايف الفحل:

ـ امرأة بشوارب سيّدي الرّئيس.

رئيس المحكمة منتهراً:

ـ اسكت أنت يا نايف.. نحن حكّام في محكمة، ولسنا حكّاماً في مسابقة لانتخاب ملكة جمال.. الكلمة للادّعاء الآن.

كرم المجاهدي:

ـ سيّدي الرّئيس، أنا أردّد ما قاله المعرّي: «استضعفوك فوصفوك»، لقد استضعفوا زميلتي في الادّعاء، فأرادوها عبرة تنطوي على تهديد لنا، وتصادر حقّنا في الردّ دون خوف، متناسين أنّ للادّعاء حصانته، كما للدّفاع حصانته. إنَّ مريم السّودا ضحيّة استفزاز من كلّ الجهات، والجهة الأولى رئاسة المحكمة، الّتي سخرت، وبشكل غير لائق، من لون بشرة هذه المرأة الفاضلة، فأثارتها ودفعتها إلى

قول ما قالت، وبذلك أوقعتها في شرك منصوب، لإبعادها عمداً عن أداء مهمّتها، بعد أن لمستْ قوّة حجّتها، ونبرة الصّدق في عبارتها، وأدركت خطرها على النيابة العامّة والدّفاع وغوغائيّة السّفلة الّذين يريدون قصّ لسانها، لسبب بسيط هو أنّ زميلتي امرأة من بنات الشعب، وهي قمينة بالتجلّة لا بالتحقير.

الدّفاع: مرّان الطوراني:

ـ نحن نجلّ المرأة، من أيّة طبقة من الشعب كانت، لذلك فإن تلطّي الادّعاء خلف الشّعبْ يشبه الاختباء وراء الأصبع، هذه الأصبع الّتي تصلح إشارة للادّعاء، والدّفاع، وللجلوس عليها أيضاً. إنّني أشفق على زميلي في الادّعاء من طول جلوسه على أصبعه، لذلك أدّعوه للنزول عنها وأخذ قسط من الرّاحة. أمّا زميلته في الدّفاع، مريم السّودا، فليست إلاّ أنثى غراب، هذا الّذي ذكره النّابغة الذبياني، باعتباره رمز تفريق بين الأحبّة، فكيف بين «الإخوة الأعداء» حسب تعبير الكاتب اليوناني كازنتزاكي!؟

مريم السّودا مقاطعة:

ـ أحتجّ سيّدي الرّئيس، الدّفاع يشتمني باليونانيّة الّتي لا أفهمها!

الرّئيس:

ـ بأيّ لغة تفهمين إذن يا مريم!؟

نايف الفحل:

ـ باللّغة الأرديّة سيّدي الرّئيس!

مريم السّودا:

ـ وهذه شتيمة أخرى بلغة أخرى لا أفهمها أيضاً!

رئيس المحكمة:

ـ أنت، يا مريم، تفهمين، أو يجب أن تفهمي، لغة واحدة هي السّكوت وعدم المقاطعة.

ـ يشتمونني وأسكت؟ هذه من رابع المستحيلات. إذا استمروا في شتمي سأفرش «الملاية» وليكن ما يكون.

ـ اللّهم طوّلك يا روح. من أين جئت بعبارة «فرش الملاية» هذه أيضاً!؟

ـ من السنغال سيّدي الرّئيس!

ـ ومتّى كنت في السنغال!؟ ومتّى تعلّمت اللّغة السنغاليّة!؟

ـ أمّي لأبي كانت سواحليّة سيّدي الرّئيس.

النّائب العام:

ـ مريم السّودا هذه، سيّدي الرّئيس، أخطر ممّا تتصوّرون كما قلت قبل قليل، هدفها تعطيل المحاكمة، ولها لسان سليط، يلفّ على شجرة بلّوط عمرها مئة عام..

مريم السّودا صارخة:

ـ ماذا؟ أنا عمري مئة عام!؟ أنا بالكدّ بلغت التّاسعة والثلاثين، وهذا ثابت في الهويّة الشخصيّة، ولو كنت أحملها لأطلعتكم عليها، وفقأت حصرمة في عين النيابة العامّة!

الطروسي بعصبيّة:

ـ وقاحة! هذه هي الوقاحة! تقاطع النّائب العام ثمّ تفقأ الحصرم في عينيه، ماذا يعني كلّ هذا؟ ألاّ تتكلّم يا زكرتاوي؟ من أين جئت بمريم السّودا هذه؟

الزكرتاوي:

ـ من البحر الأسود يا طروسي!

الطروسي يضرب كفّاً بكف:

ـ لا حـول ولا قوّة إلاّ بـالله. مريم شربكت المحكمـة والمتقاضـين والادّعـاء والدفـاع. أشهد أنَّ هـذه بليّة من الله في أرضـه. متى تحزم المحكمة أمرها!؟ متّى تأمر بحبس هذه الهرقولـة، أو تسمح لي بقـطع لسانها.. فوضى! هذه هي الفوضى، نسينا أن نعينّ كاتباً للمحكمة!

نايف الفحل:

ـ لا تتعب يا طروسي، إذا قـطعت لسانها اليـوم يفرع غـداً، هذه البلّوطة العتيقة!

النّائب العام:

ـ هـذا صحيح. كـلّ ما قيـل في حقّ هـذه المـرأة صحيـح، ولكن علينا، قبل كلّ شيء، أن نعينّ كاتباً للمحكمة بدلاً عنيٍّ.. مـا رأيك يا طروسي؟

الطروسي:

ـ أقترح تعيّين خطيب الأخت في رواية «الشمس في يوم غائم» فهو خير من يصلح لهذه المهمّة.

رئيس المحكمة بعد التشاور:

ـ موافقون شريطة أنِ يكون جميل الخط.

الزكرتاوي:

ـ من هـذه النّاحيـة أُطَمْئِنُ المحكمة، أكـثر النّاس، في أكـثر البلاد العربيّة، صاروا من أصحاب الخطّ الجميل في زمننا هذا؟

الادّعاء:

ـ هذه تورية!

الزكرتاوي:

ـ نعم تـورية، ومحكمتكم هـذه هي التـوريـة الكـبرى! (بصـوت مرتفع) خلّصوني! (وزاعقاً) خلّصوني لا خلّصكم الله يا أولاد الإبرة.

رئيس المحكمة:

ـ ماذا؟ أولاد الإبرة! هل للإبرة أولاد!؟ من يفسّر لنا هذه الأحاجي؟

النّائب العام:

ـ اسألوا عبعوب عنها، فهو، في هذه المسائل، خبير عليم.

المحضر زكريّا المرسنلي ينادي:

ـ عبعوب العباعيب، حبيبي، ومعلّمي، وتاج رأسي، مطلوب للشهادة..

رئيس المحكمة:

ـ بل للخبرة!

ـ مطلوب للخبرة!

يتقدّم عبعوب ويرفع يده إلى رأسه تحيّة للمحكمة:

ـ نعم سيّدي الرّئيس!

ـ هل أنت عبعوب الّذي في «الياطر»؟

ـ أنا هو بنصه وفصه! و«الياطر»، كرواية، هي نادرة بين الرّوايات، لذلك أفخر بالانتماء إليها.

رئيس المحكمة منتهراً:

ـ تأدّب يا ولد!

ـ أنا لست ولداً، وكلامي من فصيح اللّغة.

ـ هل عبارة ابن الإبرة تورية؟

ـ نعم تورية ومن العيار الثقيل جدّاً.

ـ ما المقصود بها؟

ـ أخجل أن أقول علناً.

زكريّا المرسنلي:

ـ لا تصدّقه سيّدي الرّئيس، هذا العبعوب الّذي أمامك لا يخجل من شيء، وهو داهية!

رئيس المحكمة منتهراً:

ـ اسكت أنت يا مرسنلي وإلّا . .

ـ كيف أسكت وعبعوب صديقي!؟

عبعوب:

ـ بل معلّمك يا حمار! أنت، لولاي، ما كنت شيئاً في «الياطر».

مطرقة الرّئيس:

ـ الحوار الثنائي ممنوع. أجب، يا عبعوب، على سؤال المحكمة: ما معنى ابن الإبرة!؟

ـ معناه ابن الزّانية، والتعبير مأخوذ من العاميّة المصريّة، هناك يقولون «خيّط» بدل أن يقولوا(. . .) الكلمة بذيئة جدّاً سيّدي الرّئيس!

ـ قلها بالفصحى، اجعلها ملطّفة قليلاً، فنحن، هنا، في محكمة.

ـ أقول الحرف الأوّل من الكلمة وهو «النّون»

ـ النـ . . و . . ن!

ـ يعني!؟

ـ نعم يعني!

ـ ماذا يعني!؟

ـ يعني نا . .

الرّئيس مقاطعاً وصائحاً:

ـ لا تكمل! هذه قلّة حياء!

ـ ألم تقل لي أنْ لا حياء في المحكمة!؟ أجدادنا، غَفَرَ الله لهم ونفعنا ببركتهم، كانوا يسمّون الأشياء بأسمائها، دون حرج، والجاحظ . .

رئيس المحكمة مقاطعاً:

- ما لنا وللجاحظ أيضاً!؟ المحكمة فهمت.. «خيّط» يعني نكحَ، أليس هذا المقصود؟

- نعم سيدي! ولكن كلمة نكح لا تشفي القلب، ومعها تضيع حلاوة التعبير!

- ومن قال لك إنّنا نبحث عن حلاوة التعبير!؟ كلّ ما نبحث عنه هو فهم عبارة «ابن الإبرة!» والآن صارت واضحة.. الزكرتاوي يشتمنا جميعاً، وبالمصري أيضاً، انصرف..

عبعوب:

- إلى أين سيدي؟ هذا التعبير من اختراعي. ارجع إلى رواية «الياطر» تعرف الحقيقة، ثمّ كلّ اختراع له براءة، وبذلك يصير ماركة مسجّلة، أناأطالب بتعويض عن ماركتي المسجّلة، لأن المحكمة استعانت بخبرتي، وهل هناك، في محاكم العالم كلّه، خبرة دون أجرة؟ عندما نقول «ابن الإبرة» نقول ابن الزانية، الإبرة، سيّدي، هي الزانية الأولى في هذا العالم، لأنّ «الخيط» يدخل ويخرج من خرمها دون توقّف، وهذه التورية لا يعرفها سواي، وقد شرحتها شرحاً كافياً وافياً، وغداً تدخل في المعاجم، وبذلك يضيع حقّي، لأنّ بعض أصحاب المعاجم لا يدفعون، كما لا يخفى على جنابك، فهم يلطشون الكلمات، والكلمات لها أصحاب، وهنا مربط البغل! ادفعوا لي إذن، فأنا الّذي اكتشف، عن طريق الرمز، أنّ هذا العالم زانٍ، وأنّنا، نحن أبناءه، أبناء زنى، وهذا ما قصده الزكرتاوي.. نعم سيّدي، نحن، أعني أنا وأنت وجميع النّاس، أبناء زنى، وهذه حقيقة أطلب تسجيلها في محضر الجلسة..

- وبعد! متّى تتوقّف الإبرة؟

- أيّ إبرة سيّدي!؟

ـ إبرة هذه الأسطوانة سيّدي! سألناك سؤالاً فأمطرتنا وابلاً. . هل أنت فونوغراف؟ انقلع ملعوناً يا أسفل خلق الله!

ـ سأنقلع سيِّدي، ولكنّي، بعد هذه الشتيمة، سأقاضيك بتهمتين: الأولى هي الامتناع عن دفع أجرة الخبرة، والثانية القدح والذم و. .

مريم السّودا:

ـ الادّعاء يتضامن مع الخبير عبعوب، ويعلن استنكاره لتورية الزكرتاوي، ويحتجّ على رخاوة رئيس المحكمة، ويسأل: هل حقّاً نحن جميعاً أبناء زنى؟

أصوات:

ـ السّؤال في محلّه، والاحتجاج في محلّه، والزكرتاوي إلى الجحيم!

أصوات أخرى:

ـ السّؤال في غير محلّه، والاحتجاج في غير محلّه، والزكرتاوي إلى الجنّة!

أصوات:

ـ إذا كان العالم زانياً فنحن لسنا أبناءه، ولسنا زناة.

أصوات أخرى:

ـ العالم زانٍ، ونحن أبناؤه، وزناة بالوراثة.

مطرقة الرّئيس! الكلام للنّائب العام:

ـ سيّدي الرّئيس! أعترف. النّظام اختلّ في هذه القاعة، وكان الزمام يفلت من بين يديِ المحكمة، ولا بدّ، إذا ما أردنا المضي في نظر الدّعوى، من ضبط الأمور، ووضع حدّ للفوضى. إنّ الطيبة الّتي يتحلّى بها أبو فارس، رئيس هذه المحكمة، بحاجة إلى حماية. الطيبة الّتي لا تُحمى بالحزم، حين تتطلّب الأمور الحزم، تصبح

تسيّباً، وأحسب أنّ هذا من البدهيّات. كن طيّباً، سيّدي الرّئيس، فالطيبة فيك شيمة كريمة، وكن، في الوقت نفسه، حازماً، فالحزم فيك شيمة أصيلة أيضاً، وهذا ما نعرفه من سيرة حياتك..

الادّعاء، كرم المجاهدي مقاطعاً:

ـ الادّعاء، سيّدي الرّئيس، يحتجّ على المسلك المزدوج والمرفوض للنّائب العام. إنّه يتملّقك ظاهراً، ويقرّعك باطناً، وكلا الأمرين خروج على أصول المحاكمات. إنّ الطيبة والحزم، إذا ما أريد بالحزم الرّدع، نقيضان، أن تردع يعني أن تقسو، وحاشا للعدالة أن يكون شعارها القسوة. أمّا حماية الطيبة فإنه جنوح إلى فلسفة نيتشويّة، لا نحبّ للمحكمة، رئيساً وأعضاء، أن تأخذ بها، وإلاّ وقعنا في مطبّ عدم الرّحمة في عمليّة الاصطفاء العرقي، المبنيّة على اللّون، دماً وَبَشَرةً، تلك الّتي أوصلتنا إلى النّازيّة، وما نتج عنها من قتل واضطهاد، للشعوب الّتي احتلّها هتلر واستباحها في الحرب العالميّة الثانية. إنّ زميلتي في الادّعاء، مريم السّودا، ليست زنجيّة ولا خلاسيّة، وحتّى لو كانت كذلك، فأن الزنوجيّة قضيّة إنسانيّة تشمل قارّة إفريقيا بأكملها، وقد أدّى النضال الطويل الّذي خاضته الشعوب الإفريقيّة إلى رفع الغبن الفاشي الّذي لحق بالزنوج، وها هو النّائب العام يحاول، دون نجاح، سحب بكرة التّاريخ إلى وراء، في تحريض مكشوف ضدّ الطيبة، استجراراً للمحكمة إلى اعتماد ما هو ضدّها: القسوة اثم التمييز على أساس اللّون تمييزاً عرقيّاً بغيضاً، لكنّ الادّعاء واثق من بعد نظر المحكمة، وقدرتها على اكتشاف هذه الأحبولة المنصوبة لها، ووقف النيابة العامّة عن الإمعان في مثل هذه التّرهات.

الدّفاع مرّان الطوراني:

ـ في هذه المحاكمة، سيّدي الرّئيس، شيء ما مقلوب، كأنّه القِمْعُ الّذي يراد إيقافه على رأسه لا على قاعدته. ففي أكثر المحاكمات،

وفي أكثر الحالات، يكون الادّعاء إلى جانب النيابة العامّة لا ضدّها، وما يجري هنا هو العكس، وهذا من أغرب الأشياء وأبسطها معاً: هو غريب لأنّ الادّعاء يريد المماطلة، طلباً للتعطيل، ونشداناً لانهيار المتّهم نفسيّاً، وهو بسيط لأنّ الادّعاء يصطاد في الماء العكر، وليس من ماء من فوقنا أو تحتنا، إلّا أن يكون هناك بَلَلٌ في سروال زميلي كرم المجاهدي!

الادّعاء، كرم المجاهدي، صارخاً:

ـ هذا كلام بذيء، فيه قحّة وقلّة حياء، و. .

الرّئيس مقاطعاً:

ـ ولا كلمة أخرى. كفى شغباً. الادّعاء أخذ دوره في الكلام، دون مقاطعة من أحد، فلماذا يلجأ إلى مقاطعة سواه؟ ليتابع الدّفاع كلامه. .

مرّان الطوراني:

ـ شكراً سيّدي الرّئيس! الدّفاع يثني على مقولة النّائب العام: «الطيبة تحتاج إلى حماية»، ودون هذه الحماية، الّتي هي الحزم في موضعه، تضيع الطّاسة حسب المثل الشعبي، وتأخذ مريم السّودا راحتها في لعب دورها المرسوم وهو تعطيل المحاكمة، كي تنجو من العقاب، على ما اقترفت من قتل، وينجو زميلها كرم المجاهدي من العقاب، جزاء وفاقاً على اغتصابه الطالبة الجامعيّة بيروشكا، بعد الإغواء والاستدراج معاً.

مريم السّودا وكرم المجاهدي بانفعال:

ـ هذا افتراء دون أساس، هذه تُهَمٌ دون بيِّنة، و. .

رئيس المحكمة:

ـ سنرى الأساس والبيّنة معاً، الزما الصّمت أو اخرجا من القاعة. . وهذا هو التّحذير الأخير!

مرّان الطّوراني:

ـ أمّا القسوة المزعومة فإنّها ضروريّة لو أخذتْ بها رئاسة المحكمة، لكنّ المحكمة أوسع صدراً وأحلم نفساً، لذلك تنبذ القسوة وتعتمد اللّين، غير آبهة بكلّ هذا اللّغو عن الفلسفة النيتشويّة، وإثارة العصبيّة العرقيّة. إنّ وضع السّيف.. وأنتم تعرفون البقيّة، ولا موجب لتخريجات واستنباطات سفسطائيّة هدفها تغييب القضيّة الجوهريّة، وهي أنّنا، كما قيل بحقّ، نحاكم العالم من خلال محاكمة الزكرتاوي، لكنّنا لا نقبل أن نتّهم الزكرتاوي، عبر تبرئة هذا العالم، كما ترمي طروحات الادّعاء.

رئيس المحكمة بحزم:

ـ بعد كلّ الّذي سمعناه، من النّيابة والادّعاء والدّفاع، نستخلص نتيجة واحدة: هناك محاولات مستمرّة للمطمطة والتّشويش والتّحريف، دونما حاجة لذكر الجهة التي تقوم بها. ولقد كنت، أنا أبو فارس، طيّباً بغير حدود وحليماً بغير حدود أيضاً، وذلك بسبب «التّكوين» الّذي أنشأني عليه، أو ابتلاني به، عناد الزكرتاوي، وقد انتهى ذلك كلّه الآن. إنّني لا أستعير شوارب عنترة، ولا أشهر سيف التّبّعيّ اليماني، لكنّني لم أضحك ولم أبكِ طَوال خمسين عاماً، لا لأنّ في الجانب الأيسر من الصدر حجراً، بل لأنّ في هذا الجانب خافقاً ما اضطرب للنّائبات يوماً.. لا أحد يتكلّم دون إذن، لا أحد يقاطع، لا أحد يُشاغب، وقد أعذر من أنذر والسّلام.. النيابة العامّة تواصل مطالعتها.

النّائب العام:

ـ في الملفّ الضّخم الّذي بين يديِ النّيابة العامّة قضايا كثيرة، متداخلة، متشعّبة، تحتاج إلى فرز وتصنيف، لكنّني، بدءاً، أطرح السّؤال التّالي: مريم السّودا مدّعية أم متّهمة!؟ إذا كانت مدّعية فإنّها

تتمتع بالحصانة القانونيّة، وإذا كانت متّهمة فإنّ مكانها قفص الاتّهام، ولابدّ من البتّ بهذه القضيّة أوّلاً، والنّيابة تتّهم مريم السّودا بالقدح والذمّ وإحداث الشّغب، لذلك تطلب توقيفها على أساس هذه التّهم، ومن باب الاحتياط، لا على أساس أنّها قاتلة، فالقتل مشكوك فيه، وعلينا أن ندرأ الحدود بالشبهات، ولا يكفي أن يتّهمها زوجها نايف الفحل، الّذي هو غير فحل كما تزعم، بأنّها قتلت ثلاثة من أزواجها السّابقين، كما لا يكفي أن تقول هي إنّها قتلت كي تثبت عليها تهمة القتل، فممارسة الشّبق في الفراش، وصولاً إلى النّشوة القصوى، من حقّ المرأة كما هي من حقّ الرّجل، خلافاً لما تواضع عليه المجتمع الذّكوري من إنكار حقّ المرأة ومصادرته، وتالياً تحميل المرأة ذنب الموت في المضاجعة، فالمعروف أنّ العمليّة الجنسيّة، في الوصول إلى الغيبوبة النّاجمة عنها، هي اقتراب من الموت، بل هي الموت السّعيد في اللّحظة السّعيدة، فإذا كان أحد الطّرفين، في هذه الميتة المجازيّة، ضعيف القلب، أو يشكو من القصور فيه، ومات من جرّاء الممارسة، فإنّ الطرف الآخر لا يتحمّل أيّة مسؤوليّة عن ذلك، ويمكن ردّ الميتة، في هذه الحال، إلى القضاء والقدر، أو إلى انتهاء الأجل، وما قالته مريم السّودا، من أنّها،في دفاعها عن نفسها، تدافع عن جميع النّساء في آن، قول صحيح، وكذلك صحيح أنّ المرأة الّتي تُجرى لها عمليّة طهور، في بعض بلداننا العربيّة المنكوبة بالذّكوريّة، وخاصّة في الأرياف، هي امرأة مظلومة، وعلينا أن نطالب برفع هذه الظلامة عنها، وأن نبادر إلى رفعها بقرار من محكمتكم الموقّرة، وفوراً، مادمنا في محكمة استثنائيّة لها حقّ اتّخاذ القرارات الاستثنائيّة، كي نثبت بالفعل لا بالقول، أنّنا نحاكم المجتمع المتخلّف، الفاسد، في وقائعه المتخلّفة، الفاسدة، من خلال محاكمة المتّهم عناد الزكرتاوي.

تصفيق من النّساء الحاضرات.

صفير من الرّجال الحاضرين.

مطرقة الرّئيس وعودة الهدوء.

النّائب العام مستأنفاً الكلام:

- بناء على هذه المطالعة، تطلب النّيابة العامّة استدعاء نايف الفحل للشّهادة.

المحضر زكريا المرسنلي صائحاً:

- نايف الفحل مطلوب للشّهادة!

رئيس المحكمة:

- لا تتعجّل يا زكريّا في المناداة قبل أن تتّخذ المحكمة قرارها. أنت محضر لدى المحكمة ولستَ محضراً عند النيابة العامةّ.. فهمت!؟

- فهمت ولم أفهم سيّدي الرّئيس!

- كيف فهمت ولم تفهم!؟

- هكذا!! أنا، سيّدي الرّئيس، أحبّ الصّياح، وهذه **شغلة** المحضر، فلماذا لا أصيح، إذا كان الدّيك نفسه يصيح!؟

- الدّيك، يا زكريّا، يصيح في الصّباح لا في الظّهر.. للصّياح وقت وللسكوت وقت! أم تحتاج هذه المسألة إلى فهم وتفهيم!؟

- أنا سمعت الدّيك يصيح في الظّهر!

- صياحه، في هذا الوقت، خطأ، مثل صياحك قبل أن تطلب منك المحكمة أن تصيح.

- والحل!؟

- أن تكون، بعد الآن، منضبطاً، فلا تنادي على أحد دون أن أطلب منك ذلك.

- زكريّا المرسنلي، سيّدي الرّئيس، لم يسمع بكلمة الانضباط هذه

ولم يعمل بها حياته كلّها. . أنا، عدم المؤاخذة، رجل مفلوش، أصطاد، أسكر، أعضّ زوجتي صالحة، أعيش على كيفي، في المدينة أو الغابة، نصف إنسان ونصف وحش، وقد ركبت شكيبة بين الأشجار، واغتصبتها في ضوء القمر على الشّاطئ، لكنّني، للتّذكير فقط، ربطت الحوت عندما هاجم الفلائك وقلبها رأساً على عقب، وكاد يقتل الصّيادين والبحّارة، بينما رئيس الميناء، وكلّ أولاد القحبة الّذين على شاكلته، كانوا يختبئون في المقهى، وقد عملوها، حاشاك، في شراويلهم.

الطروسي:

ـ لهذا اخترناك، يا زكريّا، لتكون محضراً، فأنت دبّ في شكل إنسان، ولك صوت مثل نهيق الحمار عندما يشمّ رائحة أنثاه. . أغلق فمك، وقم بواجب المأموريّة الّتي أوكلنا أمرها إليك.

ـ والصّياح والعضّ والرّكب يا طروسي، يا ريّس الريّاس، كيف أعيش دونها!؟

ـ لكلّ شيء وقته، كما قال لك رئيس المحكمة، وبعد الانتهاء من هذه القضيّة سنعيدك إلى الغابة، وهناك تفعل ما تريد.

ـ وقضيّتي!؟

ـ أيّ قضيّة هذه!؟

ـ كيف أيّ قضيّة!؟ زكريّا عاش نصف حياته، والنّصف الآخر مازال في رأس الزكرتاوي، ومنذ ١٨ سنة حتّى الآن، فإلى متى؟ أخبرني يا ريّسي يا طروسي، هل أبقى طويلاً على هذه الحال، غير معلّق وغير مطلّق؟ متى يكتب، هذا العرص الزكرتاوي، الجزء الثاني من «الياطر» وأعرف ما هو مصيري؟

رئيس المحكمة:

ـ ستنظر المحكمة في قضيّتك والقضايا كلّها، لكن بالدّور. . قلت لك بالدّور، فهل يحتاج كلامي إلى ترجمة!؟

زكريّا المرسنلي:

ـ قضيّتي، يا سيّدي، لا تحتاج إلى صدّ وردّ، كلمة من الزكرتاوي وأستريح، اسأله فقط متى يكتب الجزء الثاني من «الياطر»، وبعد ذلك أتحوّل من ذئب إلى نعجة!

رئيس المحكمة:

ـ متى تكتب الجزء الثاني من «الياطر» يا زكرتاوي؟

الزكرتاوي:

ـ حين يصير لديّ الوقت!

زكريّا صائحاً باهتياج:

ـ أنت تضحك عليّ يا ابن القملة!! ١٨ سنة ولم يصر لديك وقت، بينما أنا أنتظر وأتعذّب؟ سأخنقك بيديّ هاتين (يفتح يديه الغوريليتين ويهجم على قفص الاتّهام) وأمام الجميع!

الطروسي:

ـ قف يا زكريّا، يا مجنون (يركض ويمنعه من الوصول إلى الزكرتاوي) نحن في محكمة لا في «سيرك». . أنت سألت وهو أجابك، فماذا تريد بعد؟

ـ أريد إكمال قصّتي!! ١٨ سنة يا هوْ! يا ناس! وأنا أنتظر (يبكي) وهذا المخروط الّذي اسمه الزكرتاوي يؤجّل ويؤجّل، بينما حبل المشنقة يتدلّى فوق رأسي، فهل يجوز هذا؟ هل يجوز أن أبقى فارّاً من وجه العدالة، عائشاً بين الوحوش في الغابة، بينما هو يتسلّى بكتابة قصص عاهرات البلغار؟

ضجيج في القاعة. همهمات. أصوات متداخلة: يجوز، لا يجوز! مطرقة رئيس المحكمة. النّائب العام يستأنف استجوابه:

ـ انتبه إليّ يا نايف! أنت الآن شاهد، وستؤدّي اليمين، ففكّر قبل أن تجيب: هل قتلت زوجتك مريم السّودا أزواجها الثّلاثة السّابقين؟

نايف الفحل بعد أداء القسم:

ـ نعم سيّدي!

ـ بأي أداة؟

ـ لا أعرف معنى «أداة» هذه سيّدي.. كلّموني بالعربي!

ـ يعني بالمسدّس، بالسكّين، بالحجر، بالخشب.. إلى آخره؟

ـ قتلتهم خنقاً، ومن بيضهم كما سمعت.

ـ سمعت أم رأيت؟

ـ كيف أرى والخنق تمَّ في الفراش، قبل أن أعرف مريم السّودا هذه؟

ـ إذن أنت تخمّن لا أكثر؟

ـ أنا أقيس على ما جرى معي.

ـ ماذا جرى معك؟

ـ حاولت مريم السّودا خنقي من بيضي وأنا معها في الفراش.

مريم السّودا:

ـ هذا كذب سيّدي الرّئيس. نايف هذا مخصيّ أجلّكم الله. أطلب تحويله إلى الكشف الطّبي.

مرّان الطّوراني:

ـ الدّفاع يطلب ردّ الطّلب. نايف الفحل لابدّ أن يكون فحلاً.

مريم السّودا:

ـ كلمة فحل هذه لقب، صفة، راجعوا «الزّرخشي»!

الطرّوسي صائحاً:

ـ كيف تعيدينا إلى «الزّرخشي» هذا يا بنت الأبالسة أنت!؟

مريم السّودا تضع يديها على خاصرتيْها وتصرخ:
ـ ضبْ لسانك يا طروسي وإلاّ فرشت لك الملايه!
رئيس المحكمة:
ـ ما المقصود بعبارة «فرش الملايه» يا زكرتاوي؟
الزكرتاوي:
ـ هذه ليست من عندي بل من عندها.. لا أدري من أين جاءت بها.
رئيس المحكمة:
ـ من أين جئت بعبارة «فرش الملايه» يا مريم؟
مريم السّودا:
ـ تعلّمتها من الأفلام العربيّة؟
ـ هل الأفلام العربيّة مدرسة!؟
ـ مدرسة وأكثر. اسأل نساء البلد!
ـ أنا أسألك أنت..
ـ وأنا أجبت. الأفلام العربيّة مدرسة، اسأل المطربين والمطربات، والهزّازين والهزّازت.
ـ الطّرب فهمناه، ولكن الهزّ! ما معنى الهزّ؟
ـ الرّقص الشّرقي، مع ربطة على الخصر والورِك، وهات يا شخلعة!
ـ شخلعة!؟
ـ نعم يا أبو فارس! هذا هو الجاري وحياة شواربك.. فرش ملايهْ وهزّ وشخلعة! اسأل أمّ فارس!
ـ أمّ فارس تهزّ!؟
ـ وتتشخلع أيضاً!

ـ أعـوذ بالله من حـوّاء، هل أنت جـادّة يا مـريم؟ الهـزّ فهمنـاه، ولكن ما معنى الشّخلعة؟

ـ الدّلع مع التّمايل وهزّ الوسط.

ـ أمّ فارس تتدلّع وتتمايل وتهزّ وسطها؟ جننت يا مريم؟

ـ أنـا عاقلة وحيـاة شواربـك يا أبـو فارس. . راقب المـرايـا! كـلّ النّساء يتعلّمن الهزّ والشّخلعة أمام المرايا!! تماماً كما في أفلام السّينما!

ـ طيّب وفرش الملايهْ!؟

ـ التعرّي والرّدح. . تفـرش الردّاحـة ملايتهـا وتخلع عليها ثيـابهـا وتردح!

ـ إذن أنت تهدّدين الطروسي بالتعرّي والرّدح!؟

ـ إذا لم يضبّ لسانه.

الطروسي:

ـ سمعت بأذنك يـا أبو فـارس، فلا حـاجة للكـلام! هذه الخـرقة السّـوداء تتهجّم عليّ وعـلى المحكمة والمـوجودين، دون أن يـرفّ لهـا جفن، فإلى متى الصّبر عليها!؟

مرّان الطّوراني:

ـ الدّفاع، سيّـدي الرّئيس، يتضـامن مع الـطروسي ويطرح نفس السّؤال: إلى متى!؟

كرم المجاهدي:

ـ الادّعاء يعترض، وهو، أيضاً، يـطرح نفس السّؤال: إلى متى!؟ إلى متى نصـبر عـلى بـذاءة الـطروسي وتـدخّـلاتــه!؟ زميلتي، مـريم السّودا، تردّ الأذى عن نفسهـا، تردّه الآن بـالكلمة، وقـد تردّه بغـير الكلمة، القضيّة دفاع عن النّفس!

الطّروسي:

ـ تهديد!؟

كرم المجاهدي:

ـ افهمه كما تريد!

رئيس المحكمة:

ـ وبعد يا مريم!؟ ماذا أفعل بك!؟

ـ تأخذ لي حقّي من الطروسي.. أنا لست بنت الأبالسة، ولست خرقة سوداء. هذا قدح وذمّ. الطروسي قدح، وأنا قدحت، أذن واحدة بواحدة! والنتيجة براءة!

النّائب العام:

ـ هكذا إذن!؟ براءة، وبكلّ بساطة! لماذا سيّدي الرّئيس إذن نترافع، وأمام من؟ مريم السّودا هذه، ومنذ بدء المحاكمة، تصادر دورنا. تعطي لنفسها صكوك البراءة، الواحد بعد الآخر، وكأنّنا نلعب. إنّ احترام العدالة واجب على الجميع، لكنّ العدالة في حالة عطالة، مادامت المحكمة لا تستطيع وضع حدّ للشّغب الّذي يشلّ أعمالها، نحن نعرف رحابة صدرك، سيّدي الرّئيس، لكن رحابة صدر المحكمة يكاد يوصلنا جميعاً إلى ضيق الصّدر، فقد تجاوزت هذه الّتي تزعم أنّها تمثّل الادّعاء كلّ ادّعاء، والغاية واضحة: تعطيل النّظر في الدّعوى، لإطالة تعذيب المتّهم عناد الزكرتاوي. فإذا تحرّينا سبب هذه المكايدة، عثرنا عليه في جانبين: الحقد على المتّهم الزكرتاوي لأنّه، في «المصابيح الزرق» شوّه صورة مريم السّودا كما خيِّل إليها، والحقد الآخر، لدى كرم المجاهدي، لأنّه متّهم باغتصاب الطّالبة الجامعيّة بيروشكا في «الرّبيع والخريف»، ومطلوب محاكمته على فعلته هذه. لذلك تطلب النّيابة العامّة، بعد كلّ ما بدر من الادّعاء، تحذيره للمرّة الأخيرة، أن يلتزم الهدوء، ويحترم الأصول، أو تسحب منه صفة تمثيل الادّعاء، مع كلّ ما يتبع ذلك من إجراءات.

رئيس المحكمة:

ـ كلام النّائب العام واضح، والمحكمة تؤيّده، محذّرة مريم السّودا وكرم المجاهدي من إثارة الشّغب، أو التطاول على الغير، أو تعطيل سير الدّعوى.

مريم السّودا:

ـ الادّعاء يتّهم النّائب العام بالتحيّز، فهو يوغر صدر المحكمة عليّ، ويطالب بتحذيري، إذا لم أسكت عن الحقّ، وأنا لن أسكت عن الحقّ، وليس في وسع أحد أن يسحب صفة الادّعاء منّي، أو من زميلي كرم المجاهدي، فأنا لا أحقد على المتّهم الزكرتاوي، وزميلي لم يغتصب الطّالبة الجامعيّة بيروشكا، فهي راشدة وليست بقاصر، وهي الّتي ترامت على كرم المجاهدي مدفوعة بحبّ عاصف، ويمكن الرّجوع إلى رواية «الرّبيع والخريف» كسند لما أقول.

مرّان الطّوراني:

ـ الدّفاع يطلب إحالة مريم السّودا على طبيب نفساني، لأن عقدة القبح لديها تولد عقدة الغيرة، وهي ليست خشبة حتّى نطليها باللّون الأبيض ونخلّصها من سواد ليس عيباً، وليس في جيبنا خيط نربط به لسانها البذيء، أو عندنا ثور يعوّضها بفحولته عن فسولة أزواجها الّذين خنقتهم من بيضهم، كما أفادنا زوجها نايف الفحل. أمّا التّهديد بفرش الملايهْ فإنّه سخف، فهذه الدّميمة جسداً وروحاً، المتهدّمة شكلاً وموضوعاً، لن تفرش أيّة ملايهْ، ولن تتعرّى، عارضة علينا جسمها البديع التّكوين، وكلّ ما لديها هو الرّدح، الّذي تعلّمته من الأفلام العربيّة اللّاهية لا الجادّة، والتّصدي له سهل، وأنا كفيل به.. أمّا زميلها كرم المجاهدي فهو لم يغتصب بيروشكا، بل أغواها، وتبذّل في هذا الإغواء إلى حدّ السّقوط، وقد سقط في نظر الزكرتاوي

نفسه، الّذي خلّصه من الحمأة الجنسيّة الّتي تردّى فيها، وأعاده إلى وطنه في محاولة إنقاذية أخيرة.

رئيس المحكمة:

ـ نتابع استجواب نايف الفحل، في ما يتعلّق بقتل مريم السّودا لأزواجها الثّلاثة. الكلام للنّائب العام.

النّائب العام:

ـ اسمع يا نايف! هناك تناقض في موضوع زوجتك مريم السّودا، فقد ادّعت أنّها كثيرة الحركة، لأنّها من حزب الحركة، أي أنّها شبقة، فإذا كان أزواجها فحولاً حقّاً فقد أرضوا شبقها، فما الدّاعي لخنقهم من بيضهم أو رقابهم؟

ـ لأنّها تحبّ التّجديد، لا جدّد الله في عمرها.

مطرقة رئيس المحكمة:

ـ الجواب على قدر السّؤال يا نايف. ممنوع التّعريض والتّجريح والشتم. هذا الكلام موجّه للجميع.

النّائب العام:

ـ حجّة الرّغبة في التجديد واهية يا نايف، هل لديك دليل مادّي ضدّها؟

ـ لديّ رجاء أن تخلّصوني منها.

ـ لا أحد يملك إمكانيّة تخليصك منها، حتّى ولا الزكرتاوي نفسه. . انتهى موضوع القتل، وبقي موضوع القدح والذمّ بحقّ الطروسي والآخرين.

الطروسي:

ـ أنا أسقط حقّي الشّخصي. رجولتي لا تسمح بمقاضاة امرأة، حتّى لو شتمتني.

الزكرتاوي واقفاً:

- اثنّي على ما قاله الطّروسي. الرّجولة شجاعة وأخلاق، وهذا مفهومي لها. أنا إلى جانب المرأة، وقد رفعتها، هي ضحيّة المجتمع وشهيدته، من حضيض المهانة إلى رفعة المكانة. أطالب بترك مريم السّودا وشأنها.

تصفيق من النّساء الحاضرات. مطرقة رئيس المحكمة:

- نجوت يا مريم!

مريم السّودا:

- النّجاة تكون من غرق، من حادث، من تهمة، وأنا لم أكن غريقة أو متّهمة، ولم أتعرّض لأيّ حادث. لذلك لا منّة لأحد، ولا أشكر أحداً، وأحتفظ لنفسي بحقّ مقاضاة الّذين افتروا عليّ، وأوّلهم هذا الشّاهد الزّور نايف الفحل.

رئيس المحكمة:

- إذن هو العقوق يا مريم! يرضى القتيل وليس يرضى القاتل!؟

مريم السّودا:

- وأين القتيل والقاتل!؟

- والذمّ والقدح؟ والكلمات النّابية؟

- والدّفاع عن النّفس؟

- وتعطيل أعمال المحكمة!؟ احذري يا مريم احذري! التزمي الأصول، وهذا أفضل لك..

الكام للنّائب العام:

- النّيابة العامّة، سيّدي الرّئيس، ترغب في أن تسمحوا لها بتصفية القضايا الجانبيّة، قبل العودة إلى الموضوع الرّئيسي، وهو محاكمة عناد الزكرتاوي، والشّروع في استجوابه.

كرم المجاهدي:

ـ الادّعاء يؤيّد النّيابة العامّة. هناك قضايا جانبيّة فعلاً، ومن بينها المساس بكرامتنا.

مُرّان الطّوراني:

ـ ما تقصده النّيابة العامّة غير ما يقصده الادّعاء. كرم المجاهدي يحسب أنّه يلبس قفازين من نحاس، وأنّه يستطيع إخراج الكستناء من النّار دون أن تحترق أصابعه. هذا وهم! المسّ بالكرامة يكون حين تكون هناك كرامة..

كرم المجاهدي مقاطعاً:

ـ الادّعاء يحتجّ على هذا التّعريض الشّائن من قبل الدّفاع. مُرّان الطّوراني ينسى، على ما يبدو، تاريخه الشّخصي، و..

مطرقة الرّئيس:

ـ كفى! الكلام للنّائب العامّ.

ـ النّيابة العامّة تطلب النّظر في موضوع الفتنة الّتي أدّت إلى معركة، اضطرت معها المحكمة إلى رفع الجلسة، فالفتنة أشدّ من القتل، والمتّهمان بإثارة هذه الفتنة هما اثنان: ابن الحمّال وابن برّو، الأوّل نازي قديم، والثاني محترف قتل للارتزاق، وهذه هي «الشّراع والعاصفة» مستمسّك لا يدحض. إنّ حسن السّير بالدّعوى يتطلّب ثلاثة أمور: تعقيل الادّعاء، إدانة المتّهمين بإثارة الفتنة، التّسريع باستجواب المتّهم عناد الزكرتاوي.

رئيس المحكمة يتشاور مع مستشاريه ويعلن:

ـ المحكمة توافق على طلبات النّيابة العامّة. نادِ يا زكريّا المرسنلي على ابن الحمّال وابن برّو.

زكريا بصوت قوي أجش:

ـ ابن الحمّال، ابن برّو، إلى أمام المحكمة.

يخرج الاثنان، الواحد بعد الآخر، من بين الصّفوف، ويقفان أمام المحكمة. يسألهما الرّئيس عن الاسم والكنية وتاريخ الولادة ومكان الإقامة، وعن معرفتهما بالتّهمة الموجّهة إليهما فينفيانها. ابن الحمّال يسأل:

ـ أفتح صفحة الماضي أم صفحة الحاضر؟

رئيس المحكمة:

ـ أنت لا تفتح أيّ صفحة. المحكمة لديها كلّ الصفحات. الكلام للنّائب العام.

ـ سيّدي الرّئيس! حضرات المستشارين! ابن الحمّال هذا نازي قديم، كان، خلال الحرب العالميّة، مؤيّداً لهتلر في سورية، ودوره واضح ومحدّد في رواية «الشّراع والعاصفة»، لذلك فهو يكره الزكرتاوي والطروسي، وقد أثار، مع ابن برّو، الشّعب في المحكمة بقصد إحداث فتنة، وفعلاً ثارت الفتنة وحدثت معركة. أمّا ابن برّو فقد كان أحد أزلام أبو رشيد رئيس الميناء، وحاول قتل الطروسي، أمام مقهى البطرنة في اللاّذقيّة، بسكّين، مدفوعاً من قبل رئيس الميناء، لكنّه فشل، لذلك يحقد على الطروسي، ويريد الثّأر منه بالتّهجم عليه حتّى أمام محكمتكم الموقّرة. إنّ النّيابة العامّة لا تفتح صفحة الماضي بعد أن انطوت، إلاّ للتدليل على السّلوكيّة الجرميّة، لهذين المتّهمين، في الوقت الحاضر.

ابن الحمّال وابن برّو معاً:

ـ هذا كذب! النّائب العام يكذب كي يخفي الحقيقة، لأنّ له مصلحة في إخفائها.

أصوات:

ـ وما هي الحقيقة؟

أصوات:

ـ الحقيقة في الحديقة، ابحثوا عنها هناك.

الأصوات الأولى:

ـ الحقيقة هنا، والكلّ يعرفها.

الأصوات الثانية:

ـ الحقيقة ليست هنا، ابحثوا عنها هناك.

مطرقة الرّئيس بقوّة:

ـ سكوت. لا أحد يتكلّم، نحن أمام التّاريخ، والتّاريخ لا يرحم، فهو شاهد عدل. الكلمة للدّفاع، كاترين الحلوة:

ـ التاريخ، كما قلتَ سيّدي الرّئيس، لا يرحم. إنّه أبو الأزمنة، الحامل كتابه بيمينه، ولكلٍّ منّا صفحة فيه. لقد كتب الزكرتاوي صفحاتي على النحو الّذي أراد، وغداً يأتي من يكتب صفحات الزكرتاوي، لا على النّحو الّذي يريده هو، بل بالشكل الّذي تشكّل فيه تاريخ هذا الإنسان، خيراً أم شرّاً، ظلماً أم عدلاً، إبداعاً أم اجتراراً، فحذار حذار من التّاريخ، هذه النّجمة المضيئة، ذات المسبار، الّتي من عُلاها تراقب ما يجري على أرضنا، وتسبره، فتعرف ملامحنا وسرائرنا على السّواء، وتملي على التّاريخ فيدوّن.

«نحن إذن أمام تاريخ استثنائي، لمحكمة استثنائيّة، غايتها البحث عن الحقيقة في الوقائع، لا في هتافات الهتّافين، ولا في تمحّلات المدّعين، أو اجتهادات المدافعين. ونحن، فوق ذلك، ضدّ التمييز، أو هذا ما يجب أن يكون، فالدّم هو الدّم، تحت بياض البشرة أو سوادها، لذلك أدعو زميلتي مريم السّودا إلى الاطمئنان والهدوء، فالمهمّة الموكولة إلينا، نحن الحاضرين هنا جميعاً، هي البحث

والاستقصاء، وصولاً إلى إقرار العدل، وهو ما تنشده محكمتكم الكريمة، بعيداً عن الضغن والطّعن والتّهريج، وبعيداً عن تسجيل النّقاط، أو اصطناع احتفاليّة مسرحيّة، قد تكون مسلّية ومفيدة، ولكن مسرحها ليس هنا، ففي قفص الاتّهام إنسان يتألّم، ولا علاقة له بالفحولة، والخنق من البيض، وخرم الإبرة، وفرش الملاية، إلى آخر هذه العيّنات من المهازل الّتي تعطّل النّظر في الدّعوى، وتخالف أصول المحاكمات.

«قيل هنا، إنّنا نحاكم العالم من خلال محاكمة الزكرتاوي، وهذا صحيح، لأنّ العالم الّذي بناه الزكرتاوي بالكلمات، هو صورة عن العالم الّذي بناه، ويبنيه، البشر كلّ يوم، سواء بالحجر أو الشّجر، الإسمنت أو الحديد، وفي بقاع الأرض كلّها. لنقتصد إذن قليلاً في التّسميات، فهي متضمّنة في الأشياء الّتي تتمحور عليها الدّعوى، وفي الإضبارة الضخمة لهذه الدّعوى الكثير من قصص الحياة، بكلّ ما تمثّله الحياة، وفي هذه الإضبارة، كذلك، فيض من الأحداث والشخصيّات، تشملنا جميعاً، أنا وأنتم، وتعرض قصّتي وقصصكم، وهذا كلّه يجعلنا ندخل في متاهة، إذا لم نحدّد سلفاً ما نريد، وما نريده هو العدالة، اجتماعيّة وسياسيّة، وفي وجوهها كافّة، وأهمّها قضيّة الحريّة، الّتي قال عنها الزكرتاوي يوماً بحقّ: «الحريّة أثمن من الخبز»، والدّفاع موافق على هذه المقولة، وموافق على أنّ «الحياة كفاح في البحر وفي البرّ». وهذا المتّهم الماثل أمامكم، قرن ما بين الكفاح والفرح، وقال عن نفسه: «أنا كاتب الكفاح والفرح الإنسانيّين»، وكان مصيباً جدّاً، والكفاح الحقيقي يولّد الفرح الحقيقي، وهذا، أي الفرح، هو الطّاقة الدّافعة إلى المفاداة، والمكافح فدائي بالضرورة.

«إنّ المتّهمينْ الماثلينْ أمام قوس المحكمة، ابن الحمّال وابن برّو، أثارا الشّغب، وتقصّدا الفتنة، وافتعلا معركة، لو لم يحسمها الرّيّس

صالح حزوم فوراً، لكانت تطوّرت وامتدّت، ولاتّصلت بالنّار، فأصبحنا بين نارين، نحن وقودهما معاً، وهذا جرم يعاقب عليه القانون، والقانون، في الممارسة العادلة، فوق الجميع، وشكراً».

رئيس المحكمة:

ـ الكلمة للدّفاع أيضاً، راجعة المتبحر.

ـ شكراً سيّدي الرّئيس!

مريم السّودا مقاطعة:

ـ وبالشكر تدوم النعم! أليس كذلك يا محكمة!؟ إنّني احتجّ، فقد أُعطي الدّفاع وقتاً لم يعط مثله للادّعاء، خلال هذه المحاكمة كلّها، وهذا ما أتاح للسيّدة كاترين الحلوة، وانتبهوا جميعاً إلى كلمة حلوة الّتي أضع تحتها خطّ تشديد، أن تجلدنا بمحاضرة لا تنفع ولا تضرّ، كأنّنا أمامها طلّاب حقوق في الصّف الأوّل، ثمّ إنها..

مطرقة الرئيس:

ـ لا، هذا كثير يا مريم، تقاطعين المتكلّمة، وتغمزين من أخلاق المحكمة، كفى!

مريم السودا:

ـ مرحباً محكمة!

ـ ماذا؟

ـ مرحباً محكمة!

ـ وتقولينها مرّة أخرى!؟

ـ وماذا فيها؟ التّرحيب ممنوع يا أبو فارس؟

ـ التّرحيب غير ممنوع، ولكن السّخرية ممنوعة ومعاقب عليها قانوناً، هل تفهمين!؟

ـ لا أفهم ولا أريد أن أفهم. الادّعاء يطعن في سلوكيّة المحكمة

وأخلاقيّتها، وأنا أتحمَّل مسؤوليّـة ما أقـول. هنا، في هـذه المحكمة، استلطاف وغزل من وراء ظهرك يا أبو فارس. أي نعم! غزل وحيـاة شواربك، بين هذه القارحة وبين عشيقها صـالح حـزوم، ودليلي أنّها ذكرته بالاسم، وأثنت عليه متملِّقة، بزعمها أنّه حسم المعركة فـوراً! عن أيّ معركة تتحدَّث هذه العائبة؟

رئيس المحكمة:

ـ تشـطب من محضر المحكمة كـلّ كلمـة نـابيـة تفـوَّهت بهـا ممثِّلة الادّعـاء مريم السـودا. وبهـذه المنـاسبـة أريـدهـا أن تفهم، وللمـرّة العـاشرة والأخيرة، أنّني هنـا رئيس محكمة لا أبـو فارس، وأنّ القَسَم بشواربي، وقـد تكـرَّر استخفافاً أو استفزازاً، لا فـرق، فيه نيـل من هيبـة وحرمـة هذه المحكمـة التي أمثِّلها. الكلمـة للدفـاع، كـاتـرين الحلوة.

ـ أكرِّر، سيّدي الرّئيس، تأكيدي السّابق بـأنّنا، في هـذه المحكمة وخارجها، ضـدّ التّمييز عـلى أساس العـرق أو الدّم، وهـذا الأخير، بخـلاف ما ادّعـاه عهد الإقـطاع والنّبلاء، لـه لون واحـد هـو اللّون الأحمر، فلا أزرق فيه ولا من يحزنـون، إذا وضعنا جـانباً، كـما فعلت البشـريّة في مسـيرة تقدّمهـا، هذا الـوصف المجازي الّـذي اصطنعـه الملوك والنّبـلاء في القرون الـوسطى ومـا بعدهـا، وصـولاً إلى الثّـورة الفـرنسيّة، اصـطناعـاً تمييزيّـاً كريهـاً، روّج له من كـان يرتهن شرفـه الفكري أو الفـلسـفي، مقـابل عـطاءات استرزاقيّـة تجود بهـا الطّبقـة المالكة ونبالتها المدّعاة. الدّم له لون واحد هو اللّون الأرجواني، وهـو لون دمنا جميعاً، والإنسان بأصغريه: قلبه ولسـانه، لا بلون بشرتـه، وقد جاء في الآية الكريمـة ﴿إنّ أكرمكم عنـد الله أتقاكم﴾ لا الأبيض أو الأسود فيكم.

الطّروسي يصفّق، فتتبعه الكتلة البشريّة في القاعة. أصوات:

ـ القول ما قالته الحلوة!.

أصوات:

ـ إنسان واحد، ودم واحد، وجَدٌّ واحد.

مطرقة الرّئيس:

ـ هدوء! الدّفاع يواصل كلامه، كاترين الحلوة.

ـ شكراً لكم جميعاً، إنّني...

مريم السّودا مقاطعة بنبرة مطّاطة:

ـ... وبالشّكر تدوم النّعم، ويدوم الاستحسان، أليس كذلك يا محكمة؟

الرّئيس:

ـ لا مقاطعة! احذري يا مريم!

كاترين الحلوة:

ـ إنّني، سيّدي الرّئيس، قادرة على اتّهام زميلتي مريم بالتّجريح، وكلّكم شهود على ذلك، لكنّني أعف عند المقدرة، وهذا من شِيَم العرب، كما نعرف نحن الّذين نسكن قاع البحار ونؤمن. أمّا أنّني أتملّق الريّس صالح حزوم، المستشار في هذه المحكمة، لأنّني قلت إنّه حسم الشرّ بحسمه المعركة المفتعلة في هذه القاعة، فإنّه قول فيه غمز ولمز، بل فيه جَهْر بأنّه كان عشيقي، وهذه حقيقة لا أنكرها، ولكن ما بيني وبين هذا الريّس الشّجاع، الّذي كاد يضحّي بحياته لإنقاذ المراكب في اصطحاب النّهر العاصف، قد انقطع منذ زمن بعيد، أي منذ...

مريم السّودا مقاطعة:

ـ... خانته هذه الفاسقة مع الأتراك، في الواقعة المشهورة!

كاترين الحلوة:

ـ نعم! منذ ختنته مع الأتراك في مرسين، كما قالت مريم السّودا، دون ذكر الظّروف الّتي اضطّرتني إلى ذلك. لقد نفاني الريّس صالح حزوم، ولايزال هذا النّفي قائماً، وهو محقّ فيه، فماذا تريد مريم السّودا أكثر من ذلك؟ التّشهير لا يخيفني، فما يقال في السرّ لابدّ أن يتسرّب إلى العلن، وفي العلن وحده تكمن قيمة الصّمود عند الإنسان الّذي يعتبر أنّ ما يفعله بصدق هو الأخلاق ذاتها، وما نفعله بصدق ينبغي ألاّ نخجل منه أبداً كما علّمنا عناد الزكرتاوي، فالصّادق، عادة، لا يزرح تحت وطأة الخجل، لأنّه أسمى منه في نقاء سريرته. . وأرغب أن يُسأل المتّهم الزكرتاوي سؤالاً محدّداً: هل قلت إنّ ما هو صادق هو أخلاقي، وما رأيك في ما سمعت من حوار بين الدّفاع والادّعاء؟

رئيس المحكمة:

ـ سمعت السّؤال يا زكرتاوي فلا حاجة لإعادته، ما رأيك في كلّ ذلك؟

الزكرتاوي واقفاً:

ـ شعار «كلّ ما هو صادق هو أخلاقي» يعتبر مبدأً ثابتاً بالنّسبة إليّ. فالصّدق هنا ليس إضماراً بل جَهْرٌ بالحقيقة، وكلّ حقيقة تنطوي على سلوكيّة حقيقيّة بدورها، الأمر الّذي يفضي بنا إلى المطابقة بين المشاعر والمظاهر، بحيث ينتفي التّناقض بين القول والعمل، وهذا جوهر الأخلاق، في نزوعها إلى السّموّ والنّبل، وفي إضفائها الشّرعيّة الوجدانيّة على علاقة الحبّ، خارج المؤسّسة الزّوجيّة، هذه الّتي كثيراً ما قامت على المصالح المادّية لا العواطف الإنسانيّة الرّفيعة بين الأزواج. أعترف. كانت هناك علاقة حبّ بين كاترين الحلوة وصالح حزوم، وقد أكّدت كاترين ذلك باعتزاز، إلاّ أنّ هذه العلاقة انقطعت لأنّ الكبرياء اغتالتها، وليس لأنّ كاترين

خائنة، فالظّروف لابدّ من أخذها في الاعتبار، عند الحكم علي أيّ حادث حياتي، وهذه الشّتائم الّتي كالتها مريم السّودا لزميلتها كاترين الحلوة غير مبرّرة، وإنّني أردّها، عن قناعة كاملة، إلى الشّيطان الّذي يختفي تحت أظافر مريم، هذه الّتي خدعتني أنا الّذي جئت بها إلى الوجود. وإذا ما كان مطلوباً مني أن أبدي رأياً في الّذي سمعت، فرأيي هو أنّ كاترين الحلوة، في كلّ ما قالته، قد أثبتت شعورها الكبير بالمسؤولية، ونقلت جوّ المحكمة من الهذر إلى الجدّ، ومن التشتّت إلى التّماسك، بتحديدها الهدف الّذي انفلش وضاع وسط اللّغو والهذر، بين مريم ونايف، وبين مشاغبات ابن الحمّال وابن برّو، ومتاهات الفلسفة النيتشويّة المزعومة من قبل الادّعاء.

أخيراً إنّني أحذّر المحكمة: هناك مناورات لتعطيل أعمالها، أو تأخيرها على الأقلّ، رغم أنّني اعترفت بذنبي، وتالياً بذنب هذا العالم الّذي خلقته، وهو صورة مظهّرة للعالم الّذي نعيش فيه، بكلّ مهازله ونذالاته.

رئيس المحكمة:

ـ الكلمة للدّفاع، راجعة المتبحر.

ـ لديّ، سيّدي الرّئيس، ملاحظة واحدة، هي أنّ النّائب العام وصف ابن الحمّال بالنّازي القديم، وبأنّه كان، خلال الحرب العالميّة الثانية، داعية لهتلر. إنّ هذا الكلام مردود لسببين: الأوّل أنّ قسماً كبيراً من أبناء شعبنا كان مع ألمانيا الهتلرية، في انتصاراتها الأولى على أوروبا والسّوفييت، انطلاقاً من أنّ عدوّ عدوّي صديقي، لأنّنا كنّا نئنّ تحت احتلالات فرنسيّة وانكليزيّة، تجثم رصاصاً على صدورنا، وقد ضللّت الدّعاية النّازيّة الكثيرين من العرب، في سورية ولبنان، وكذلك في العراق ومصر وغيرهما، بادّعائها أنّها تقاتل أعداء العرب، وكان يونس البحري، كما هو واضح في «الشّراع والعاصفة» ـوقاً

مؤثّراً لهذا الادّعاء، فلمّا تراجعت ألمانيا، وانكشفت الحقيقة، زالت الغشاوة عن العيون، وبانت النازيّة على حقيقتها، فانقلب الّذين كانوا معها، وعمل بعضهم، عن وعيٍ، مع الحركة الوطنيّة، وعمل البعض الآخر، بغير وعي، مع الإنكليز الّذين كانوا موجودين في سورية، وهذا مؤسف لكنّه واقع، وأطلب، في إثبات ما أقول، أبو سعيد، المتحمّس الأوّل لألمانيا في اللاّذقيّة. السّبب الثاني لردّي على النّائب العام، هو أنّه استخدم كلمة «عميل»، في وصف ما قام به ابن الحمّال، وهذا غير ثابت، فإذا تجاوزنا عن ثبوت ذلك أو عدمه، فإنّ لفظة «عميل» في ذاتها لغة قديمة، علينا أن نتخلّى عنها بعد كلّ الّذي جرى، ويجري، من متغيّراتٍ في العالم من حولنا. إنّ الرّسم المتسرّع لعلامات الاستفهام، بحقّ هذا أو ذاك، والاتّهامات المتعجّلة، والصفّات المعادية، الكيديّة أو الانتقاميّة، الّتي نلصقها، أو كنّا نلصقها، على وجوه أو صدور مَن يخالفوننا الرّأي، قد أصبحت شهادة علينا لا معنا، ولابدّ من الإقلاع عنها، مرّة وإلى الأبد، والاستعاضة عنها بحوار صحّي، مشرّع الأبواب والنّوافذ على الآخرين، كلّ الآخرين، بقصديّة البحث عن نقاط الالتقاء، حول هذه المسألة أو تلك.. ابن الحمّال أحدث شغباً، نتجت عنه فتنة فمعركة، هذا أمر واضح، وحول هذا الأمر وحده ينبغي أن تدور المساءلة والمحاكمة، حتى نفرغ منها بسرعة، ونشرع باستجواب المتّهم عناد الزكرتاوي الّذي أؤيّد زميلتي كاترين الحلوة في طلبها الاستعجال باستجوابه، لمصلحة المتّهم ومصلحتنا جميعاً.

النّائب العام:

ـ رغم أنّ كلمة «عميل» كان لها ما يبرّرها بالنّسبة لأنصار هتلر في الزّمن الّذي جرت فيه الحرب العالميّة الثانية، ورغم أنّ هذه الصّفة البشعة أُلصقت، أكثر الأحيان، بأصدقاء الاتحاد السّوفياتي الّذي

كـان، فإنّني آخـذ بدفـاع راجعة المتبحـر، الّذي انـطوى على تحليـل منطقي وملموس للمتغيّرات، وأسحب ما قلتـه، مؤيّداً طلب الـدّفاع باستدعاء أبي سعيد لسماع شهادته.

مريم السّودا تقفز ظالِعةً إلى أمام القوس:

- قبل سماع أيّ شاهد، أعطوني فرصة الكلام، لأنّ هـذا من حقّ جهة الادّعاء، بعـد أن استمعت المحكمة، وبصـبر أيّوب، لـمطوّلات جهة الدّفاع. إنّني، يا أبو فارس، غير سوداء، أنا، وحياة شواربك، سمـراء فقط، لذلـك أرفض منّـة كـاتـرين الحلوة عـليّ، وأقـول لهـا بـالمشرمـح، إنّ كـلامهـا عـلى التّمييـز بسبب اللّون أو الـدّم، وإدانتـه لفظاً وممارسته فعلاً، هو من تحصيل حاصل. كـاترين الحلوة، يـا أبو فارس، عاهرة، وهي لا تخجل من عهـرها فتعلن أمـامكم أنّها كانت عشيقة مستشارك صـالح حـزوم، وأنا أؤكّـد أنّها لاتزال عشيقتـه حتّى الآن، وهـذا يشكّل طعنـاً في نزاهتـه، لذلـك أطلب من الـطروسي، عشير نساء المرافئ السّاقطات، أن ينحّيه عن مركزه، لأنّه ساقط مثله، وأمّا هذه التّقيـة النّقية راجعـة المتبحر، فـإنّ بينها وبـين النّائب العـام علاقة غزل وأكثر، وهذا هو السّبب في سحبه الظّاهري لأقواله.

رئيس المحكمة محتدّاً:

- ما هذا الكلام السّفيه يا مريم!؟

مريم:

- وما هذه المحكمة المبندقة يا أبو فارس!؟

- تتهجّمين على المحكمة من جديد!؟

- المثـل يقول: «أحـرجوك فـأخرجـوك». أنا، يـا أبـو فـارس، لا أستـطيع أن أرى التّعـريض أمامي وأسكت. قلتم هـذه محكمـة غـير شكل، وأنا كلامي غير شكل، إذن واحدة بواحدة. دفاع عن النّفس وحياة شواربك، والنتيجة براءة!

رئيس المحكمة بحدّة:

- عن أيّ براءة تتحدّثين!؟ هذه جناية! كلامك البذيء جناية تستحقّ قطع اللّسان، هل سمعتِ؟ هل فهمتِ؟ انقلعي من وجهي، اللّعنة عليك!

مريم السّودا:

- ما هكذا كان الأمل منك يا أبو فارس. أين الخبز والملح!؟ أين الملاطفات الحلوة؟ هل تقف ضدّي لأنّني تمنّعت عليك؟

- أنت تمنّعت عليّ!؟

- نسيت يوم حشرتني وراء الباب؟

- أنا حشرتك وراء الباب!؟ ما رأيك يا زكرتاوي؟ قل الحقيقة، الحقيقة ولا شيء غيرها.

الزكرتاوي وهو جالس:

- لماذا تسألني و«المصابيح الزّرق» موجودة أمامكم؟ أما قلت لكم إنّ هذه الفاسقة ينام الشّيطان تحت أظافرها؟

مريم السّودا:

- فاسقة! أنا فاسقة؟ أنا الّذي ينام الشّيطان تحت أظافري؟ ماذا ينام إذن تحت أظافر كاترين الحلوة؟ الملاك!؟ تفو على هذه الشّيبة!

الزكرتاوي:

- تبصقين عليّ!؟ أنا لا أواخذك.. أنت من هذا العالم، وهذا العالم سافل مثلك ومذنب مثلي، أنا الّذي خلقته على الصّورة والمثال.

رئيس المحكمة يتشاور مع مستشاريه ويعلن:

- قرّرت المحكمة بالإجماع رفض وكالة المدعوّة مريم السّودا عن الادّعاء، والطّلب إلى الريّس الطّروسي ترشيح غيرها لهذه المهمّة إذا ما كان ذلك ضروريّاً.

الادّعاء، كرم المجاهدي يطلب الكلام. رئيس المحكمة:
- إذا كان كلامك سيتناول تنحية مريم السّودا عن الادّعاء فإنّ المحكمة ترفض الطلب.

مريم السّودا:
- ماذا!؟ تعزلني وتمنع زميلي من الكلام على هذا العزل؟ بأيٍّ حقٍّ تفعل المحكمة هذا؟

رئيس المحكمة:
- بحقّ القانون. أنت خرقت قانون أصول المحاكمات. كنت بذيئة إلى درجة لا تصدّق، رغم التّحذير المتكرّر.
- أيّ قانون هذا الّذي خرقته يا ناس؟ قولوا أنتم يا أوادم يا طيّبون! الصّامت عن الحقّ شيطان أخرس: تكلّموا، قولوا: هل أنا بذيئة!؟

أصوات:
- أنتِ، يا سودا، عنوان البذاءة.

أصوات أخرى:
- البيض ليسوا أفضل من السّود، الآخرون بذيئون أيضاً.

أصوات:
- لا أحد بذيء سوى مريم.

أصوات أخرى:
- كلّنا في البذاءة سواء، من الزكرتاوي إلى الطّوراني.

مطرقة الرّئيس:
- الهتافات ممنوعة.

أصوات:

ـ استضعفوك فوصفوك!

أصوات أخرى:

ـ لا ضعف ولا وصف، القانون فوق الجميع.

أصوات:

ـ القانون فوق مريم السّودا وتحت كاترين الحلوة.

رئيس المحكمة بحدّة:

ـ القانون لا فوق ولا تحت، إنّه في ضمائرنا.

أصوات:

ـ في ضمائرنا أم في دفاترنا!؟

أصوات أخرى:

ـ وما الفرق!؟

ـ الفرق في العِرق، ومن له أُذُن للسّمع فليسمع!

المطرقة تدقّ بقوّة.. رئيس المحكمة صارخاً:

ـ عن أيّ فرق وأيّ عِرق تتحدّثون يا أولاد الثّعالب؟ هذا غمز ولمز، ولن أسمح بالغمز واللّمز في هذه المحكمة.. اسحبوا مريم السّودا من مكانها، وكفى تهريجاً!

الطّروسي:

ـ تعالي يا مريم بغير مقاومة.. نفّذي قرار المحكمة.

ـ محكمة!؟ عن أيّ محكمة تتكلّم يا طروسي!؟ ألم تسمع أصوات الطيّبين؟

ـ هذه أصوات الخبيثين، ونحن أدرى بالدّوافع. نفّذي يا مريم قرار المحكمة فوراً وإلاّ..

ـ تهدّدني يا طروسي، يا زوج العائبة؟ من كان له شوارب بينكم يلمسني، أنا مريم السّودا.

مفيد الوحش:

ـ طزّ! أنا الّذي سألمسك، وأنا الّذي سأخرجك، وبعد ذلك تعلّقي بحبال الهواء يا كيت وكيت!

ـ كيت وكيت!؟ اشهدوا يا حاضرين! اشهدوا على كيت وكيت هذه، مفيد الوحش يشتمني بكلمات من تحت الزّنّار، وهذا وحده كافٍ لتعليقه بحبل المشنقة الّذي يتدلّى من سقف هذه القاعة، وإذا لم تصدّقوني اسألوا الخبير في التّعبير، عبعوبٍ ابن عرقوب، الّذي يفهمها على الطّاير والدّاير.. لا تقترب منّي يا مفيد، اعتبر بما جرى من مسخرة، وقد أعذر من أنذر، وهذا فصل الخطاب بيني وبينك.

مفيد الوحش:

ـ من أين لك هذه الفصاحة يا مريم؟ ولماذا لا يقولها الّذي يلقّنك إيّاها؟ لماذا اختباؤك وراء كرم المجاهدي، واختباء كرم المجاهدي وراءك؟ الطّروسي غير متزوّج، ولو تزوّج ما كانت زوجته عائبة يا.. ماذا أقول؟ أنت يا خرقة سوداء لا تصلحين حتّى للعيب، وأنا لي شوارب، لذلك أنا من سيقتلعك من هنا مثل العلّيقة اليابسة، ما رأيك؟ تأتين من نفسك أم أجرّك بنفسي؟

كرم المجاهدي:

ـ الادّعاء، سيّدي الرّئيس، يصرّ على حقّه في الكلام.. هناك عناصر جديدة لابدّ من توضيحها قبل إنفاذ قرار المحكمة.

رئيس المحكمة بإصرار:

ـ نفّذوا قرار المحكمة ثمّ وضّحوا!

مريم السّودا صارخة:

ـ إذا نفّذتنا ضاعت علينا، الأموات لا يتكلّمون بعد الموت.

ـ والأحياء لا يشتمون وهم أحياء، يخجلون على الأقلّ، هذه، يا

مريم، محكمة لإصدار القرارات وليست ساحة للقدح والرّدح! هيّا نفّذي أو يجرّك حارس المحكمة مفيد الوحش إلى الخارج.

ـ والكيت وكيت!؟ وعبعوب ابن عرقوب؟ أنا شتمت وأنتم شتمتم، واحدة بواحدة، إذن براءة!

ـ أيّ براءة هذه براكِ الطّاعون!؟

ـ براءة التّعادل! براءة التّصالح! الصّلح، يا أبو فارس، سيّد الأحكام، هذه قاعدة من ذهب فلا يجوز للمحكمة أن تجعلها من نحاس، لأنّ التّاريخ . . وفهمكم كفاية، أنا لا أعصي أمر المحكمة، أنا أعتذر للمحكمة، وللدّفاع، فلا تخوزقوني من أجل كلمتين خفيفتين زلّ بهما لساني.

ـ وقرار المحكمة!؟

ـ نمسحه بشوارب هذا الوحش الّذي يهدّدني.

مفيد الوحش:

ـ العمى! وصلت المسألة إلى شواربي!؟ ماذا قلت يا بنت العفاريت!؟ نسيت أنّ شوارب الرّجل، في عشيرتنا، أمرّ من اللّحية، وأنّ المسح بالشّوارب يعني عندنا دقّ طبول الحرب؟

مريم السّودا:

ـ إذن نمسح القرار بلحيتك لا بشواربك، وهذه ترضية لم يحصل على مثلها عنترة نفسه، ما رأيك يا أبو فارس؟

أبو فارس مبتسماً برغمه:

ـ رأيي أنّك لعنة مكبرتة يا مريم، ساعد الله نايف الفحل عليك.

ـ والقرار يا أبو فارس؟ أوصلني إلى القرار! أنا داخلة على عرضك!

ـ القرار صدر وانتهى الأمر. نفّذ يا ابني يا مفيد الوحش.

ـ بالقوّة سيّدي الرّئيس؟
ـ بالقوّة يا مفيد ولكن بلطف.
ـ كيف بالقوّة وبلطف؟ هذه الغوريلاّ، سيّدي، لا ينفع معها اللّطف، ما قولك يا طروسي؟
ـ قَوْلي هو هذا..

الطّروسي يتقدّم من مريم السّودا. مريم تتقنفذ، وكالقطّة تتحضّر للعراك والخرمشة، وفي هذه اللّحظة يعلو صوت الزكرتاوي طالباً الكلام:
ـ لا، يا محكمة، دعوا مريم حيث هي، فأنا موافق على ما تقول وتفعل.

رئيس المحكمة:
ـ هناك قرار يا زكرتاوي لابدّ أن ينفّذ، اسحبها يا طروسي.

الزكرتاوي:
ـ قف يا طروسي! إذا سحبت مريم من الادّعاء طلبتها للدّفاع، وهذا من حقّي.

الطّروسي:
ـ نحن لا نجادلك في حقّك، ولكن قرار المحكمة بإبعاد مريم السّودا هو في صالحك.

الزكرتاوي:
ـ أنا أعرف صالحي وأريدها أن تستمرّ.

رئيس المحكمة:
ـ أنت، يا زكرتاوي، تقفز في فراغ! مريم جعلت من هذه المحكمة مهزلة.
ـ ولأجل هذا أريدها!

ـ تريدها أن تهزل في موقف الجدّ!؟
ـ الهزل، أيضاً، جِدٌّ من الجدّ!
ـ كيف هذا؟ نوّر المحكمة.
ـ المحكمة تنوّر نفسها.. لا أحبّ الثّرثرة.
ـ والمحكمة ترفض الثّرثرة بدورها، ولكنّها تسألك عن الأسباب الموجبة لهذا التّحوُّل.. بغير ذلك تضع نفسك في حالة امتناع، وتجرّد طلبك من مبرّراته. إنّنا، يا زكرتاوي، نحرص على الوقت، وإضاعة الوقت تؤذيك، وهذا ما قلته وكرّرته، فما الّذي بدّلك؟ هل تريد لهذه المهزلة أن تستمرّ!؟

الزكرتاوي:
ـ نعم أريدها أن تستمرّ. مريم السّودا وحدها، من بينكم جميعاً، تمثّل الواقع بإعطائها صورة عنه، فإذا كانت الحياة مهزلة، فلابدّ من تسمية الأشياء بأسمائها، وإلاّ أسهمنا في تجميل ما لا يجمَّل: قبح هذا العالم!
ـ ولكن العالم ليس كلّه قبحاً، كما ليس كلّه جمالاً، الحقيقة تظلّ نسبيّة يا زكرتاوي، أنت الّذي علّمتنا ذلك، أتنكر؟
ـ لا أنكر نسبيّة الحقيقة، إلاّ أنّني ضدّ تغييب الحقيقة بذريعة نسبيّتها. أنتم كلّكم تتستّرون على الفضائح، مريم وحدها تكشف القناع عنها، وفي هذا الكشف تعرّي العالم الزّائف من زيفه، وهذا بيت القصيد. دعوا مريم تَقُمْ بدور الشّاهد على مجون عالمنا ومباذله، وعلى دود النّفعيّة الّذي ينخر عظامه.. نايف الفحل ليس فحلاً كما قالت مريم السّودا، فهو مخصيّ بطريقة ما، مثلنا جميعاً، لأنّ الخِصاء حالة انعدام القدرة على الفعل، والعرب، في وضع التمزّق والانحدار هذا، يتعاطون مع ردود الأفعال لا مع الأفعال ذاتها. إنّني مثلكم أثق أنّ هذا التّراجع المزري إلى انتهاء، ولكن متى؟ ذلك

هو السّؤال، فالانحدار سيل جارف، والأيدي وحدها لا تصدّ السّيل الجارف أو توقفه. كلّ ما نستطيعه الآن هو العمل لتقصير أمد الجزر، ثمّ التّمهيد للمدّ الآتي، في زمن أراه طويلاً؛ إنّما حذار من ورقة التّين، فالعورات ينبغي أنّ تَبِين، وهذه العورات لم أستطع، في ما كتبت، أن أزيح السّتر عنها، ، فجاءت مريم السّودا، في هذه المحكمة، وعن طريق الهزل، لتثبت أنّ الهزل قوام حياتنا، إلاَّ في النّدرة من الحالات والأشخاص. . هذه هي أسبابي الموجبة لطلب إبقائها في الادّعاء.

رئيس المحكمة:

- أسبابك الموجبة، يا زكرتاوي، وثيقة إدانة للعالم من حولنا، وقد نوافقك، أو نخالفك، أو حتّى نناقشك في أمرها، في غير هذه القاعة، إلاَّ أنّ قرار المحكمة لابدّ أن ينفّذ، عملاً بقانون الأصول.

الزكرتاوي:

- قلت لكم، منذ بدء هذه المحكمة، إنّني أنا المذنب، وأنّ العالم الّذي نحياه، مذنب بفساده، وهذه نقطة اتّفاق جيِّدة. . ما تبقّى هو أن يكون تنفيذ القانون في منأى عن حرفيّة النّص، وستخرج مريم السّودا من القاعة انصياعاً للقرار، وتعود إليها بترشيح آخر، إذا وافقنا عليه تصبح له قوّة القرار أيضاً. . هذا هو الحلّ، وآمل أن يُعمل به.

كرم المجاهدي:

- الادّعاء، سيّدي الرّئيس، يوافق على المخرج الّذي ارتآه الزكرتاوي، لإبقاء زميلتي مريم السّودا في الادّعاء. إنّها، كما سمعتم، الرّكيزة الّتي دونها سيتقوّض بنيان هذه المحكمة، والسّبب هو التالي: الحقيقة لا تتحقّق بذاتها، تحتاج إلى من يساعدها على التحقّق، وهذا ما تفعله زميلتي بجرأة نادرة، جديرة بالثّناء لا بالرّثاء.

فإذا تساءلنا: ما الغاية من هذه المحاكمة كلّها، كان الجواب: إظهار الحقيقة، والحقيقة تتطلّب الكشف، التّعرية، النّبش، وبغير ذلك تبقى القرائن مستترة، فلا تتوفّر الأدلّة اللاّزمة للإدانة. بكلمة أخرى، نحن أمام داء يحتاج إلى المبضع لا إلى المرهم. الآخرون يضلّلون المحكمة. يضعون لصقة على الخرّاج في جسم القضيّة موضوع الدّعوى، ولكن الخرّاج لا يُعصَب بل يُفقأ، ونحن لا نفعل غير هذا، وبأقصى ما نستطيع، حتّى يُشفى المريض الّذي لا يريد المشاغبون أن يشفى، كي يبقى عليلاً. إنّني أسأل: من هو المريض في هذه القضيّة؟ من هو المعنيّ بكلّ هذه المحاكمة؟ إنّه الزكرتاوي أوّلاً وأخيراً، فإذا كان الزكرتاوي نفسه يطلب إبقاء زميلتي مريم السّودا في الادّعاء، لأنّها تكشف زيف هذا العالم المزيّف كما قال بالحرف، فماذا بقي في جعبة الّذين يتستّرون على الفضائح الّتي تمسّهم مباشرة؟ لا شيء! نعم لا شيء، وكلّ تذرّع أو اعتراض على صراحة الكلمات، وكلّ هذا الخَفَر الّذي يظهرونه هو رياء، القصد منه منع تسمية الأشياء بأسمائها، ولو كانت التّسميات جارحة، لأنّهم هم، في بذاءة ما تخفي الصّدور، يمارسون البذاءة تدليساً، وأمّا نحن الّذين نأبى المحاباة، والدّجل، والمراوغة فإنّنا نقول ما ينبغي أن يُقال، وبكلمات نابية تستدعيها سلوكيّاتهم النّابية نفسها.. لا جُناح علينا إذن، ولا وزر نتحمّله، لأنّنا مثلهم نعرف الآية الكريمة ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ ولسنا على استعداد لوضع أوزارهم على أكتافنا، فهم الأحقّ بحملها، وهم المتّهمون بإخفاء الحقائق عن المحكمة، والّذي يخفي الحقيقة يُدان، فلماذا لا يُدانون؟ لماذا يكون الغرم والغنم لهم في كلّ مرّة!؟ إنّ كلمات الزكرتاوي، المتّهم الأوّل والوحيد، هي سيّدة الكلمات، وعلى أساسها يطالب الادّعاء بإبقاء مريم السّودا في مكانها، وإذا كان لابدّ من الشّكليات، احتراماً للأصول، فإنّها على

استعـداد لتنفيذ قـرار المحكمة، خـروجاً من القـاعة ودخـولاً إليهـا، ودون هـذا لا يستقيم ميزان العـدالة، ودونـه، أيضاً، لا يحقّ الحقّ، ولا تبقى ثمّـة حاجـة إلى المقاضـاة، لأنّ المجرمـين الّـذين سنكشفهم واحـداً واحـداً، وبـالأسـماء، والـوقـائـع، والأدلّـة، سينسربـون من العقاب، كما ينسرب الماء من الغربال.

تصفيق. أصوات:

ـ عاشت مريم السّودا!

صفير. أصوات أخرى:

ـ تسقط مريم السّودا!

تضـطرب القاعـة. تتقدّم كتلة بشـريّة لـرفـع مـريم السّـودا عـلى الأكتاف. تتقدّم كتلة بشريّة أخرى لإنزالها وجرّهـا خارجـاً. صراخ. شتـائم. أصوات متـداخلة، اندفـاعات مفـاجئة، اشتبـاك، معـركـة بالأيدي، مطرقة الرّئيس في قرع متواصل، صوت الطّروسي صارخاً:

ـ قفـوا! قفوا! ارجعـوا إلى وراء. اتركـوا مريم السّـودا. اتركـوها وإلّا..

مفيد الوحش يدخل بين المتعاركين. يفصل بينهم. يضرب الّـذين يـواصلون العراك. يقبض عـلى ابن برّو. يـرفعه إلى أعـلى ليخبط بـه الأرض. الطّروسي وحرّاس المحكمة يتدخلّون. الطّروسي يصيح:

ـ دع ابن بـرّو يا مفيـد. اتركـه لي ابن الزّانيـة هـذا، امسـك ابن الحمّال الّذي يحاول الهرب، امسكه بسرعة و..

قهقهة من قفص الاتّهام. الزكرتـاوي جالسـاً وهو يقهقـه ويضرب ركبتيه بكفّيه، ثمّ يعود الهدوء إلى القـاعة، وتـظلّ قهقهة الـزكرتـاوي تفرقع، وهو مستمرّ بخبط راحتيه على ساقيه، يتمايل على جانبيه فَرِحاً فَرَحاً شيطانيّاً، ومطرقة الرّئيس تقرع دون أن يعيرها أيّ اهتمام.

رئيس المحكمة:
ـ كفى يا زكرتاوي! ما الّذي يجعلك تقهقه على هذا الشّكـل؟ هل تخبَّلت؟

الزكرتاوي:
ـ ليس بعـد يارئيس المحكمـة. هذا سيصـير. إذا استمـرّت هـذه المحاكمة المهزلة سأتخبّل تمـاماً، ولكن ليس الآن. هنـاك وقت للخبل لايـزال. الجنون قـادم، ولكنّني لن أكون أوّل من يجنّ بينكم، ولعـلّي أن أكون الأخير. الجنون، لا العقل، هو طابـع العصر، وما أظنّ أنّ بينكم من يـريـد أن يتخلّف عن عصره. هــذه ليست نبــوءة. إنّها استقراء لا أكثر.

رئيس المحكمة:
ـ وهل هذا ما يدعوك إلى القهقهة؟ حركاتك هذه عَلاَمَ تدلّ؟
ـ ليس على الجنون على كلّ حال.
ـ وليس على العقل! أين وقارك المفترض!؟
ـ في بيت الخلاء!
ـ بذاءة!
ـ نعم!
ـ تتحدّى المحكمة؟
ـ لا! لا أتحدّاها.. أسخر منها فقط. هل السّخريـة ممنوعـة؟ وهل تشكّل تهمة جـديدة؟ أنـا الغريق و البلل لا يعني شيئـاً بالنسبـة إليّ. خذوا هذا في حسابكم. خذوه وفكّروا معي: هل أنتم تمثّلون العدالة حقّاً؟ العدل، يا رئيس المحكمة، كان يوم لم يكن هذا الزّمن، وهـذا استقراء حرّ للعصر، أم أنّكم لا تعيشون فيه؟

رئيس المحكمة:

ـ نحن نسـألـك عن سبب ضحكـك المجنـون وأنت في قفص الاتّهام!

الزكرتاوي ينهض ويمسك بقضبان قفص الاتّهام:

ـ قلت لـك، يـا رئيس المحكمـة، إنّني لم أجنّ بعـد، ولكن هـذا سيصير، وسنكون جميعـاً في دائرتـه، كما نحن جميعـاً في قفص الاتّهام الآن. وأمّـا قهقهتي فليست ضحكاً مجنونـاً، إنّها نـوع من عبث، في عالم عبثي بكلّ ما فيه. مؤسف! قرننا هذا بدأ بداية بـطوليّة، وانتهى نهاية سافلة، أو هذه حاله في العقد الأخير منه. تلك حقيقة لا جدال فيها، لأنّها موضوعيّة تماماً. عـرفت الآن لماذا كنت أقهقـه؟ إنّه الهـزء من هذا القطيع الّذي هـو أنتم. ولكن حذار! لست يـائساً، ولم أكن كـذلك في أيمـا يوم من حيـاتي، ولكن الصّدمـة ضروريّة لـلإيقـاظ. أنتم، وأنـا منكم، قطيـع بحرفيّـة الكلمة، ومـع هذا القـطيع الّـذي ينـدفـع ككتلة عميـاء، في هـذا الاتّجـاه أو ذاك، لا يمكن إجـراء أيّ تغيـير. علينا، أوّلًا، أن نكفّ عن أن نكـون قطيعـاً، أن نتنوّر فنـزيـل الغشاوة الّتي تحجب الرؤيـة عن الكتلة البشريّـة العمياء الّتي شهـدت المحكمـة فصلًا صغيـراً من فصولهـا قبل قليـل. المطر لا يكـون دون غيم، الشّمس لا تشرق في أوّل اللّيل، الرّؤيـة مستحيلة بغير تنـوير، وهذه مهمّة مَنْ؟ تحاكمونني؟ إذن أنتم تخشونني؟ هذا واضح تمامـاً. . إنّني مـذنب. أعترف. إنّني مـذنب، وذنبي أنّني أفشيت سرّ النّار الّتي منها تخلّقتم، وحكاية سيزيف معروفة. احكمـوا عليّ إذن بـالإعدام. الإعدام أقوى الأحكام وأبشعها، وأنا لا أبالي بقوّته أو بشاعته، لأنّـه لا يطول إلّا جسمي، وأمّا كلماتي فلا. . .

رئيس المحكمة مقاطعاً:

ـ كفى يا زكرتاوي. كلّ ما قلته معروف قبل أن تقوله و. .

الزكرتاوي مقاطعاً:

ـ وذكّر . .

ـ والآية الكريمة هذه نعرفها . . هل لديك ما تقوله بعد؟

ـ لديّ الكثير، ولكنّني تعبت وأريد أن أستريح .

رئيس المحكمة :

ـ ترفع الجلسة إذن للاستراحة!

الجلسة الثالثة

«الحياة كذبة كبيرة يا زكرتاوي».

«لا! الحياة صدق كبير يا زكرتاوي».

«الزكرتاوي جائع، والجائع لا يفكّر بالكذب أو الصدق».

«عليك إذن أن تأكل الهواء، وتشربه، وتتنفّسه أيضاً».

«من الصّباح وأنا أفعل ذلك، ولكن دون جدوى».

«فكّر إذن بالّذين يأكلون الهواء، ويشربونه، ويتنفّسونه أيضاً».

«فكّرت فيهم حياتي كلّها، وكتبتهم بالإبر على آماق البصر».

«فعلت ذلك على طريقة شهريار، في ألف ليلة وليلة!».

«شهريار ملك وأنا من الشّعب».

«الشّعب بريء من الّذين يعلّلونه بالحكايات كي ينسى».

«تتّهمون الحكايات!؟»

«نتّهم ألف ليلة وليلة الّتي أنت أسيرها».

«أنا لم أكن أسير ألف ليلة وليلة في أيّ يوم من حياتي».

«أنت تخدع نفسك إذ تقول هذا. . هل قرأت كليلة ودمنة؟».

«قرأتها مرّات كثيرة».

«وقتلت عبد الله بن المقفّع مرّات كثيرة!».

«لا أذكر أنّي قتلت أحداً».

«القتل يكون أحياناً بالنّسيان. . أنت قتلته نسياناً!».

«النّسيان خيانة ذاكرة. . حاكموا ذاكرتي إذن».

«سنفعل!».

«والتّهمة!؟»

«التّآمر بالصّمت على أبي ذرّ الغفاري!»

«لست أنا من يفعل هذا».
«ولست أنت من يفعل خلافه».
«لكن من أنتم!؟»
«نحن القرن العشرون».
«وأنا منكم».
«أنت من ألف ليلة وليلة».
«على أيّ أساس؟»
«على أساس الاستبدال».
«لم أفهم!»
«ستفهم عندما تأكل الهواء!»
«الهواء لا يُؤكل!»
«لماذا لم تقل هذا لقراقاش؟»
«لأنّني لم أكن في زمانه».
«قراقاش موجود في كلّ زمان».
«إذن سأراه. وأقول له كلّ شيء.. انظروا هناك تعرفوا من أنا».
«ليس هناك، حيث تشير، سوى النّار».
«وفي قلب النّار رجل.. ها هو يتعالى مع اللّهب، ومعه يتشكّل شاعراً».
«وماذا يقول شاعرك هذا؟»
«إذا الضّمير ونى عن روع منكرة/ فاصبر لها فهناك الحبر والورق».
«وماذا في وسع الحبر والورق!؟»
«هدم العالم وإعادة بنائه!»
«أنت هدمت ولم تبنِ».
«أنا من هدم وبنى، إلاّ أنّ عقوقكم أوصلني إلى قفص الاتّهام. (يصرخ) اغربوا عن وجهي اغربوا عن وجهي يا عسس سليمان، أنا

من خلق أدبيّاً هذا العالم الّذي من حـولكم، ولاأزال أمارس الخلق، وسأبقى».

«ومتى تخلقنا يا زكرتاوي؟ أم أنّك نسيتنا كعادتك!؟»

«من أنتم أوّلاً؟»

«شخوص روايتك «حارة الشّحّاذين»!

«آه! نعم! ولكن من جاء بكم؟»

«الّذي جاء بالآخرين».

«ادخلوا إذن في المكان الّذي خرجتم منه».

«هذه بذاءة.. لماذا أنت بذيء إلى هذا الحدّ!؟»

«لأنّني من هذا العالم! ما هي أسماؤكم؟»

«أسماؤنا في مخطّط الرّواية الّذي على مكتبك في البيت».

«على مكتبي مخطّطات كثيرة لروايات كثيرة.. ذكّروني».

«أنا حمداش الكاسر، مهرّب وبائع تبغ مفروم، رجـل خارج عـلى القانون».

«فطيمة أوزو توزو، أرملة من عشرين عاماً، أشهر نوّاحة وردّاحـة في حارة الشّحّاذين باللاّذقية».

«صبح العمّوشي، شرطي بلدية، هوايتي نكح الحزانى إحساناً!»

«شبيرو المصفّراتي، حاوٍ يرقّص الأفاعي، ويأكلها عندما يجوع».

«دحموش دك بك، طبّال وزمّار ومدرّب سعادين».

«جمعة قصبة الصنارة، صيّاد عتيق وخائب».

«شكّوس العاقلة، زوجة تح نح، بائع الأشياء العتيقة».

«حسيسـون خرم الإبـرة، سكافي وحفيـان ومـاسـح أحـذيـة عـلى سحّارة».

«غنّـوج الزّرقـا، امـرأة جميلة قليلة البخت، وزوجـة المنخـور ابن دعتور، الطّبّاخ في الكازينو».

«قـردوس الدّايـخ، يسكر عـلى حبّة ملح ويشرف عـلى حمـير نقـل الرّمل والبحص».

«رحمـة وزحمـة، أختـان عجـوزان، مهنتهـا الاستغـابـة في وقت الفراغ».

«كفى! لا أريـد سماع أكـثر، تنحّوا من الـطّريق يا أسفـل وأبشـع خلق الله».

«بونجور مسيو زكرتاوي، هل تذكّرتني؟ أنـا جوزفـين بورجـرون، فنّانة تشكيليّة».

«أنعم وأكرم! من أيّ وكر خرجت يا عزيزتي الشّقراء أنت!؟»

«من فندق سيلفا في شارع Grandes Armées بباريس».

«وما هي العلاقة بيني وبينك!»

«عـلاقة الخـالق بمخلوقه، رغم أنّني لم أعـرف الوجـود بعد، لهـذا جئت أقاضيك!»

«أنت عشيقة «البارمان» أندريه سابلمان؟»

«أنـا هي بالـذّات، وأندريـه معي في هذه القـاعة ومعـه زجـاجـة كونياك Napoléon هديّة!»

«يعني رشوة!؟»

«الهديّة غير الرّشوة.. وأنت «جانتيل» وتفهم!»

«كلّ الرّشـاوى كانت هـدايا في البـدء ثمّ تدرّجت.. مـاذا يريـد أيضاً!؟»

«متى تكتب رواية «معصوم النّاحل» الّتي نحن أبطالها؟»

«إنّها جاهزة. مخطّطها على مكتبي. وأنا أحبّ بـاريس جدّاً، لأنّها مربط خيلنا!»

«أوه يـا عزيـزي! لماذا لا تـربطون خيلكم في أيّ مـدينة فـرنسيّـة أخرى، مارسيليا مثلاً؟»

«هـذا لا يصحّ يـا جوزفـين. أقسمنا أن نـربط خيلنا في بـاريس، ولابدّ أن نربطها فيها وفاء للقَسَم».

اربطوها إذن في الضواحي، أو في غابة بولونيا الواسعة».

«هذا ينتقص من قيمة نسلها الكريم! ما رأيك بحديقة الإليزيه؟»

«أنت لست Fou يـا عزيـزي.. الإليزيـه تعني، تـاريخيّـاً، شرف فرنسا!»

«أنا أحترم التّاريخ والشّرف يا شقرائي الجميلة.. لـذلك سنـربط خيلنا في الشانزيليزيه، قرب مقهى الكوليزيه تماماً».

«لا! لا! في هـذا إساءة إلى قضيّـة السّيـاحـة في فـرنسـا كلّهـا.. اربطوها في مكان آخر».

«لا يمكن يا جوزفين.. مربط خيلنا قضيّة محوريّة في الرّواية، هـل تريدين إفشال الرّواية؟»

«أنا..»

«كفى يا جوزفين! افرنقعي الآن..

«ليس قبل أن أعرف ما معنى «افرنقعي» هذه!»

«معناها انصرفي. العمى! هذه فترة استراحة وأنتم جعلتموها فـترة غمّ.. مرحباً يا زكرتاوي!»

«مرحباً يـا طروسي.. هـذا أنت يا عـزيزي!؟ متى تحكمـون عليّ بالإعدام وتريحونني من هذا القرف!؟»

«ولمـاذا تظنّ أنّهم سيحكمـون عليك بـالإعدام؟ مـاذا نفعـل نحن إذن!؟»

«هذه أنت يا كاترين الحلوة؟ هذه أنت يا سيّـدة البحر والـبرّ معاً؟ لقد اعترفت: أنا مذنب!»

«ونحن سننقض اعترافك».

«وبذلك تسيئون إليّ».

«بذلك نبطل لعبتك السّخيفة.. هذه راجعة، ألا تحبّ راجعة يا ديمتريو، أيّها الشّهيد الحيّ؟»

«أهلاً راجعة.. تقولين نرجع ثانية؟»

«كلّنا سنرجع، ولمرّات لا تنتهي.. الرّوح يا زكرتاوي تنتقل من جيل إلى جيل إلى جيل...».

«ويعود الّذين نحبّ كذلك!؟»

«يعودون. بل هم، الآن، عائدون.. «نظار تطلع على الدّنيا سرايانا» يا زكرتاوي».

«هذا كان عزاءنا. هذا كان عزاء فهيم المتبحر والآخرين، ولكن سراياهم هي الّتي طلعت!»

«.. ومن بعد غلبهم سيغلبون.. أنت الّذي علّمتنا هذا..».

«أنتِ لم تتعلّمي شيئاً. انزاحي يا.. شكراً يا زكرتاوي!»

«وبعد الشّكر؟ ماذا تريدين أيضاً يا مريم السّودا؟ ألم أكن طيّباً معك؟»

«كنت رائعاً ولكن من أجل مصلحتك، أنت قلت هذا.. أنا مريم فضيحة الفضائح، هل يرضيك هذا؟»

«ليس كثيراً. أنت في الفضح مخلب قطّ. مخلب قطّ صغير فقط».

«لكن الصّغير يكبر بسرعة يا زكرتاوي.. إذا أعادوني إلى الادّعاء كشفت كلّ الأغطية، نيابة عنك!»

«لا أحد ينوب عن أحد يا مريم، أنا لي قلمي وأنت!؟»

«وأنا لي لساني!!!»

«لسان الأفعى! أنا لا أحبّ اللّدغ والانسلال.. «أحبّ الخصم يبرز لي جهاراً»!

«ليس في هذا الزّمن يا زكرتاوي.. هذا زمن الأفاعي أيّها الصلّ الكبير!»

«تشتمينني يا مريم؟»

«من شبَّ على شيء شاب عليه.. سأشتم كلّ من عليها، وأنت في المقدّمة لأنّك شوّهتني».

«المشوّه مخلوق أيضاً، لا يمكن أن يكون البشر كلّهم أسوياء.. ها هو الباب قد فتح..».

زكريا المرسنلي:

ـ محكمة!

تدخل هيئة المحكمة. القضاة يتّخذون أمكنتهم، وكذلك ممثّلو النّيابة العامّة والدّفاع والادّعاء، الجميع وقوفاً، إلى أن يشير لهم رئيس المحكمة بالجلوس، ضجّة، همهمة، مطرقة الرّئيس، ثمّ سؤال:

ـ هل استرحت يا زكرتاوي؟

ـ كنت أشتغل!

ـ تكتب!؟

ـ أفكّر!

ـ ومتى تستريح!؟

ـ حين أكتب!

ـ عجيب! هل أكلت؟

ـ الهواء فقط، مثلكم جميعاً.

ـ نحن غيرك يا زكرتاوي.

ـ أعرف! لكن المساواة أحد مبادئي.

ـ وهل أنت مستعدّ؟

ـ مستعدّ لسماع النّطق بالحكم.

ـ أيّ حكم هـذا!؟ نحن لم نستجـوبـك بعـد، يعني لم نـدخـل في صلب القضية.

ـ أيّ قضية هذه!؟

ـ القضية المرفوعة ضـدّك من طرفـين: مخلوقاتـك الّتي خرجت من رأسك، ومخلوقاتك التي لم تخرج منه بعد.. كلّهم موجودون في هـذه القاعة.

ـ وإذا كنت لا أعترف بالجميع؟

ـ وإذا كان الجميع يعترفون بك ويقاضونك؟

ـ في هذه الحال يتوقّف الأمر عليّ: أعترف بـأنّني مذنب أم لا؟ أنـا اعترفت بأنّني مذنب، فماذا بقي؟

ـ أن تثبت للمحكمة أنّك مذنب فعلاً.

ـ وكيف يكون هذا الإثبات؟ الاعتراف سيّـد الأدلّة، وأنـا اعترفت وانتهى الأمـر. مـا تبقّى هــو الحكم، وبغـير رحمــة. إنّني لا ألتمس الـرّحمة. آنف من ذلـك. أرفض الرّحمـة كما أرفض الشّفقـة كلتيهما: احكموا إذن، وبأقسى ما تستطيعون، أو بأقسى ما يسمح بـه القانــون الجنـائي. لقـد ارتكبت، في حيـاتي، كثيـراً من الآثــام، وكثيـراً من الجرائم، وعن سابق تصوّر وتصميم. أنا قاتل متعمّد، فما هـو عقاب القتل العمد؟ الإعدام طبعاً، وهذا ما أتوقّعه، بل هذا ما أطالب به، تـطهّراً وخـلاصاً من الخـطيئة الأولى. أريـد أن أغســل ضـميري كي أستريح، ولن يغسل هذا الضّمير المُثقل بالخطايا سوى المـوت. الموت وحده يحرّر من الخوف منه، ومن الشّعـور بالـذّنب الّذي لا يقـلّ عن الخوف من الموت تعذيباً. لم أكن يوماً ساديّاً. أنكر التّعذيب وأدينه في جميـع حـالاتـه، وهـذا يفسّر لـماذا كنت أقتـل ضحـايـاي فـوراً دون تعذيب. حتّى النّباتات والحيوانات كنت أميتها للتـوّ. لم أقطف زهـرة حتّى لا أعذّبها، فإذا أُهديتُ زهرةً لم أضعها في المزهريّة بل في النّـار.

الحصان الّذي كسر بصدمة سيّارة، في روايتي «المستنقع»، جعلت أصحابه يطلقون عليه الرّصاص. وفي روايتي «الرّحيل عن الغروب» فضّلت، على لسان بطلها فاطر اللّجاوي، الموت شنقاً على العذاب بمرض السّرطان. إنّ أفضل الميتات عندي هي الميتة بالسّكتة القلبيّة المفاجئة. مزاجي أقرب إلى المازوشيّة منه إلى السّادية، ولأنّني كذلك، ولأنّ تعذيبي لذاتي بلغ حدّه الأقصى، وبسبب من الجرائم الّتي ارتكبتها، والّتي هي مدوّنة عندكم في الإضبارة، فإنّ حكم الإعدام الّذي أستحقّه، والّذي أنتظره بلهفة، تكفيراً عمّا اقترفت يداي، قد آن أوان إصداره، فلماذا تتمهّلون به؟ ولماذا تتشبّثون بشكليّات لا ضرورة لها؟ وما فائدة هذه المماحكات بين الادّعاء والدّفاع والنّيابة العامّة؟ أنا هو المسؤول الأوّل في هذه القضيّة كلّها، فلماذا لا تصدر الإدانة على قدر المسؤوليّة، وفيها راحة لي ولكم وللآخرين؟

رئيس المحكمة:

ـ لأنّ للآخرين قضاياهم، ومسؤوليّاتهم أيضاً، ولابدّ من محاكمتهم أوّلاً، وهذا ما نفعله، وبسببه تأخّر استجوابك، وتالياً تأخّر إصدار الحكم عليك، هذا هو جواب المحكمة على مطالعتك كلّها. اجلس يا زكرتاوي واسترح، فقد أجهدك الكلام.

الزكرتاوي صارخاً:

ـ أوغاد!.

النّائب العام:

ـ إنّني أغضي عن هذه الشّتيمة، فالمذنبون، عادة، يسترحمون، فإذا ضيّقت المحكمة عليهم الخناق، يشتمون، ولا يؤاخذون على شتائمهم، كما لا تقبل تملّقاتهم، لأنّ الجرم الأصغر يدغم في الجرم الأكبر أصولاً. ولكن المفارقة، في هذه القضية، هي أن المتّهم،

بخلاف العادة، لا يصرخ «أنا مظلوم!» بل يصرخ «أنا الظّالم!»، ويستعجل الحكم عليه بالإعدام، بغية تحمّل المسؤوليّة وحده، وهذا ما يبعث على الرّيبة، لأنّ هناك تواطؤاً مضمراً. السّؤال هو التالي: من هم شركاؤكم في القتل يا زكرتاوي؟

الزكرتاوي:

ـ لا شركاء لي في كلّ ما اقترفت من جرائم.

ـ النيابة تكتفي بهذا الجواب.

الادّعاء، كرم المجاهدي:

ـ ألم يكن الطّروسي شريكاً لك في قتل البحّارة خلال العاصفة؟

ـ الطّروسي لم يكن قاتلاً بأيّ وجه.

ـ ألا ترى أنّ هناك تناقضاً بين هذا الجواب وبين ما جاء في «الشّراع والعاصفة» يا زكرتاوي؟

ـ لا تناقض أبداً!

الدّفاع، مُرّان الطّوراني:

ـ ألم تقل يا زكرتاوي «أنا كاتب الكفاح والفرح الإنسانيّين»؟

ـ نعم قلت!

ـ الدّفاع يطلب تسجيل جواب المتّهم وشكراً.

مريم السّودا:

ـ وأنا؟ هل أظلّ معلّقة في الهواء؟ ما هو قرار المحكمة بشأني؟

رئيس المحكمة يتشاور مع مستشاريه ويعلن:

ـ المحكمة أخذت بوجهة نظر المتّهم الزكرتاوي. تخرج مريم السّودا من قاعة المحكمة تنفيذاً للقرار، وتعود إلى موضعها في الادّعاء بعد التّرشيح من قبل الطّروسي.

الزكرتاوي واقفاً:

ـ سيّدي الرّئيس! جرت العادة، حسب قانون أصول المحاكمات الّذي أعرفه مثلكم، أن يُستجوب المتّهم الرّئيسي أوّلاً، وبعده يُصار إلى استجواب بقيّة المتّهمين إذا ما وجدوا. في هذه القضيّة لا يوجد متّهم سواي.

رئيس المحكمة مقاطعاً:

ـ بلى! يوجد يا زكرتاوي!

ـ حتّى مع وجودهم المفترض، فإنّ استجوابي أوّلاً هو الّذي ينطبق على الأصول. لماذا؟ لأنّني الأصل وهم الفروع.

ـ هذه محكمة استثنائيّة ولها قانون أصول استثنائي. نحن نراعي القوانين ما أمكن، مع حقّنا في الخروج عليها حيثما وجدنا ذلك ضروريّاً، سواء في المواد القانونيّة أو المصطلحات الشّكليّة، المتداولة في المحاكم العاديّة.. هيّا اخرجي يا مريم من قاعة المحكمة..

ـ وإذا لم يرشّحني الطّروسي ثانية؟.

الطّروسي:

ـ أنا أضمن ترشيحك للادّعاء ثانية يا مريم، مادامت هذه رغبة الزكرتاوي.

تخرج مريم السّودا وهي تخمع. تصفيق. صفير. ضحك. أصوات متداخلة. مطرقة الرّئيس. مريم السّودا تمدّ برأسها من بين الحاضرين. يشتدّ التّصفيق والصّفير. تعلو الأصوات وتتداخل. مطرقة رئيس المحكمة في قرعات متواصلة:

ـ سكوت! التزموا الهدوء، قلت لكم التزموا الهدوء.. لماذا رجعت يا مريم؟

ـ تنفيذاً للشّرط! أنا خرجت على شرط!

أصوات:

ـ هذا صحيح . . مريم خرجت على شرط العودة.

أصوات أخرى:

ـ مريم خرجت دون شرط، امنعوها من العودة.

أصوات:

ـ وضمانة الطروسي؟

أصوات أخرى:

ـ الطّروسي ليس رئيس المحكمة. . هناك قانون!

أصوات:

ـ الطّروسي صاحب حقّ التّرشيح بتخويل من المحكمة.

أصوات أخرى:

ـ إذن القرار للمحكمة.

مطرقة الرّئيس. تحذير. عودة الهدوء تدريجيّاً. مريم تخرج من بين الحاضرين وهي تخمع متقدّمة نحو مكانها في الادّعاء. رئيس المحكمة:

ـ إلى أين يا مريم؟ العمى! ألا تنتظرين قرار المحكمة؟

مريم السّودا تضع يديها على خاصرتيْها وتصرخ:

ـ وإلى متى أنتظر قرار المحكمة!؟

ـ إلى أن يصدر!

ـ وإذا لم يصدر!؟

ـ تبقين خارجاً؟

ـ مؤامرة! هذه مؤامرة!

ـ سدّي بوزك. . ليس هنا مؤامرة ولا متآمرون. اخرجي حتّى ينده عليك مُحضِر المحكمة.

صوت من بين الحاضرين:
ـ طظّ!

مريم السّودا تنبح:
ـ طظّ في شواربك يا عرص! أنـا هنا بـاسم القانـون، ولن أخرج إلّا على أسنّة الحراب!

ضحك في القاعة، تصفيق، صفير، مطرقة الرّئيس:
ـ من أين جئت بأسنّة الحراب هذه!؟
ـ من عند «لاندون»! نسيتم التّاريخ أيضاً؟

الادّعاء، كرم المجاهدي:
ـ دانتون سيّدي الرّئيس.. أحد زعماء الثّورة الفرنسيّة.

رئيس المحكمة:
ـ وما علاقة الثّورة الفرنسيّة بهذه القضيّة.. أنـا لم أسمع بـلاندون أو دانتون، هذا اسم غير موجود.

مريم السّودا:
ـ موجود وحياة شواربك يا أبو فارس، أنا «مسكّفة» وأنت جاهل!
ـ أنـا جاهـل وأنت مثقّفة يـا مريم!؟ من أين لـك الثّقافـة يا بنت أمّك!؟ هل عدت إلى الشّتائم و«أكـل الهوا»؟ طيّب، لن أسمـح لك بالعودة إلى مقاعد الادّعاء.

ـ والشّرط!؟ وضـمـان الـطّروسي!؟ والقـانـون!؟ ألا تتكلّم يـا زكرتاوي؟ خرستم جميعاً الآن!؟

الزكرتاوي:

ـ ضايقتم مريم فخرمشتكم بلسانها.. القـطّة نفسها تخـرمش، إذا تضايقت، بأظافرها. احمدوا ربّكم لأنّ مريم بغير أظافر..

مريم مقاطعة:

ـ من قـال إنّني بغير أظـافر!؟ أظـافري عـلى الطّبيعـة، لـذلـك لا ترونها، أنا لا أطلي أظافري بالأحمر مثل غيري، أنا امرأة شريفة!

الزكرتاوي:

ـ انتبهي يا مريم ولا تقاطعيني. دعي الشّرف جانبـاً لأنّه لا يتعلّق بِطَلْيِ الأظافر. أنا الّذي طلبت بقاءك في الادّعاء وأفتيت لهذا البقـاء. إذن كوني عند حسن ظنّي بك ويسّري سير المحـاكمة، بـل سرّعي به ما استطعت. أنت الآن ضدّي..

مريم السّودا مقاطعة:

ـ معاذ الله يا زكرتاوي! أنا أطلع ضدّك؟

ـ طلعتِ وانتهى الأمـر. الادّعـاء يكـون ضـدّ المتّهم، والـدّفـاع معه.. هذه هي الأصول.

ـ إذن أنا ضدّ الأصول. أنا مع الدّفاع إذا خرجت منه غادة الكينـا هذه الّتي..

ـ كفى! كفى يـا مـريم! تعلّمي الصّـبر قليـلاً. ضبّي لسـانـك في فمك. التّطاول غير لائق، والتّطاول على المحكمة عيب وفيه مسؤوليّة قانونيّة..

مريم مقاطعة:

ـ وحياة شرفك يا معلّمي أنا لست ضـدّ المحكمة، أنـا ضدّ غـادة الكينا..

الزكرتاوي:

ـ لا حول ولا قوة إلّا بالله. أين غادة كينا هذه يا جاهلة!؟

ـ بطلة اسكندر الفرنساوي يا معلّمي.

ـ أنت جاهلة يا معلّمتي. قلت لك لا توجد بطلة اسمها غادة الكينا. الأصحّ أن تقولي غادة الكاميليا، بطلة ألكسندر دوماس. إذا كنتِ لا تعرفين فلا تتظاهري بالمعرفة. التزمي حدودك، فهمت؟

ـ فهمت يا معلّمي.. عليّ أن ألزم اليمين!

ـ وهل أنت سيّارة أم طنبر!؟ حدود الكلام غير حدود السّير يا شاطرة..

مريم السّودا مقاطعة:

ـ يسلم فمك يا معلّمي. هذه أوّل كلمة حلوة أسمعها في هذه الحضرة.. أنا شاطرة فعلاً، ولكن من يقدّر؟ نايف المخصي؟

نايف الفحل:

ـ سجّلوا سيّدي الرّئيس هذه الكلمة.. سأرفع دعوى قدح وذمّ عليها.

مطرقة الرّئيس:

ـ من أَذِنَ لك يا نايف بالكلام؟ العمى! هذه قضيّة أم «شوربا»!؟

مريم السّودا:

ـ هذه «شوربا» وحياة شواربك يا أبو فارس، شوربة عدس!

ـ اللّعنة عليكِ وعلى الشّوربا والعدس يا أخت الشّياطين أنتِ.. هل يعجبك هذا «اللّت والعجن» يا زكرتاوي؟ تفضّل شيل «الزير من البير» يا جناب المحترم! أما كان أفضل للمحكمة، ولسير الدّعوى، ولك، ثمّ لنا جميعاً، أن نتخلّص من هذه الرّقيعة بنت الرقيعة!؟

مريم تضع يديها على خاصرتيْها وتصرخ:

ـ أنا رقيعة بنت رقيعة يا أبو فارس!؟ اشهدوا يا أوادم. اشهدوا على هذا القدح والذمّ بحقّي. والله ثمَّ والله، لو لم تكن على الدكّة يا أبو فارس..

الزكرتاوي:

ـ لا تصرخي يا مريم! الأصحّ أن تقولي على القوس..

ـ وما الفرق؟ الحال من بعضه. أنا أتكلّم باللّهجة الّتي يفهمها الحاضرون.. ألستم معي يا جماعة؟

أصوات:

ـ معك تماماً يا مريم، الدكّة هي القوس، والقوس هو الدكّة.

أصوات أخرى:

ـ الدكّة غير القوس، والقوس غير الدكّة.

مطرقة الرّئيس حتّى يعود الهدوء:

ـ اسمعي يا مريم! نحن لسنا ضدّك..

ـ عشت يا أبو فارس!

ـ لا عشت ولا متّ يا مريم..

ـ كيف إذن؟ ماذا عليّ أن أقول؟

ـ لا تقولي شيئاً.. المطلوب أن لا تقولي شيئاً..

ـ الدّور على مَنْ إذن؟

ـ المسألة ليست مسألة دور..

ـ مسألة أيش إذن؟

ـ مسألة سمع وبسّ! ﴿أعوذ بربّ الفلق من شرّ ما خلق﴾ هل يرضيك هذا يا زكرتاوي؟ إذا بقينا على هذه الحال فإنّ قضيّتك لن تخلص أبداً.

مريم:
ـ ومن قال إنّنا نريدها أن تخلص؟ هذه «كـومّيضة» ونحن نتسـلّى، ما رأيكم يا أوادم؟

أصوات:
ـ أنت على حقّ وهذه «كومّيضة» يا مريم!

أصوات أخرى:
ـ أنت على باطل وهذه محكمة يا مريم!

أصوات:
ـ لا! كومّيضة!

أصوات أخرى:
ـ لا! محكمة!

مطرقة الرّئيس بقوّة:
ـ صمت يـا أوبـاش! صمت! كنّـا في أيش وأصبحنـا في أيش! تفضّل حلّ هذه الشّربوكة يا زكرتاوي.

الزكرتاوي واقفاً:
ـ أعطيني أذنك يا مريم!

مريم تخمع وهي تتّجه إلى الزكرتاوي. رئيس المحكمة:
ـ إلى أين يا مريم!؟
ـ إلى الزكرتاوي كي يأخذ أذني!

رئيس المحكمة بنفاد صبر:
ـ اللّعنة!

الدّفاع مُرّان الطّوراني:
ـ سيّدي الرّئيس! مـريم السّودا هـذه ليست بلهاء بـل تتبالـه. إذا

استمرّت في لعبتها نصير في كوميديا حقيقيّة. الدّفاع يطالب بإخراجها من القاعة نهائيّاً، وإلاّ فإنّنا ندخل حلقة مفرغة. الحزم يا سيّدي الرّئيس، الحزم أو التنحّي، ولا خيار ثالثاً أمامنا.

الادّعاء كرم المجاهدي:

ـ سيّدي الرّئيس! زميلتي مريم السّودا ليست بلهاء ولا تتباله. كلّ ما في الأمر أنّها جريئة، والجرأة تُجزى ولا تقاصص. وإذا ما كان دور الادّعاء أن يكشف ما هو مستور، وأن يستحضر ما هو مغيّب، فإنّها هي، من بيننا جميعاً، مَنْ تقوم بهذا الدّور، بشهادة المتّهم الزكرتاوي، الّذي طالب، وهنا الغرابة، أن تبقى في الادّعاء، وهو يعلم أنّ الادّعاء ضدّه وليس معه. هناك، إذن، احتمالان: أوّلهما أن يكون الزكرتاوي ضدّ نفسه، وهذا مستبعد من رجل على هذا القدر من المعرفة والمكانة، وثانيهما أن يكون قد وجد في مريم السّودا ترجماناً لضميره المعذّب، يعبّر عمّا لم يستطع هو، لأسباب نجهلها، أن يعبّر عنه، والغاية من هذا التّعبير الكشف الّذي سيُستعلن أثناء السّير بالدّعوى، أو في ختامها. معنى هذا أنّنا إزاء مفاجأة منتظرة في كلّ لحظة، وهذا ما لاحظه الدّفاع أيضاً، في أقوال كاترين الحلوة، فهل من العدالة أن نقطع الطّريق على هذه المفاجأة إذا كانت في صالح المتّهم؟ إنّه لغبن صارخ لو وقع هذا، وعدالة المحكمة ترفضه. وإذا ما كان هناك اعتراض، بذريعة أنّ الدّفاع، لا الادّعاء، من يستولد هذه المفاجأة، فإنّ المؤدّى يقوم على استنتاج مفاده أنّ الدّفاع مقصّر بحقّ الموكّل الّذي يدافع عنه، لذلك اضطرّ هذا الموكّل إلى الاستنجاد بالادّعاء ليقوم بهذه المهمّة. فإذا قيل إنّ هذا مخالف للعرف، فإنّ اجتهادات المحاكم قد واجهت مثل هذه المخالفات للأعراف، وبنت عليها أحكامها الّتي تشكّل سابقة اجتهاديّة هي بمثابة وقائع قانونيّة يُقاس عليها، والقياس وارد في اللّغة كما هو وارد

في القانون، ولا سبيل إلى رفضه أو تجاهله، لأنّه يصبح قاعدة لا يضيرها الاستثناء بل يثبتها، ومحاضر المحاكم، في كلّ درجاتها، حافلة بالاجتهادات الّتي تغني القوانين ولا تنتقص منها، لأنّها تنأى بها عن التّفسير الحرفي المبتسر، ولأنّها تبقي باب الاجتهاد مفتوحاً، وفكرة التقدّم البشري، في صيرورتها فعلاً، تستند دائماً إلى بقاء باب الاجتهاد مفتوحاً، حتّى لا تتعطّل حركيّة الإبداع الفقهي، وتستنقع في حمأة السّكون والثّبات المنفيّين في مفهوم العلم والفلسفة، بعد أن دلّلت سيرورة الحياة على أنَّ التبدُّل سنّة، ولن يجد المرء لسنّة التّبديل تبديلاً، وإلاَّ راوحنا في مكاننا، وبقينا في ظلاميّة القرون الوسطى، أو ما شابهها من فترات القمع الدّامي في العهود التّاريخيّة الانحداريّة لهذه أو تلك من الأمم. وفي هذه النّقطة، يطلب الادّعاء رأي النّائب العام الأستاذ كامل، الّذي يتلخّص وجوده في رواية «الشّراع والعاصفة»، وتالياً في هذه المحكمة، بالدّور الفكري المادّي، المبني على الحركة لا السّكون، فالمادّيّة تنكر السّكونيّة وهي على حقّ في هذا، وتقرّ مبدأ الحركة في العلم والفلسفة والتّاريخ والمجتمع والطّبيعة على السّواء. الادّعاء ينبّه: هناك مفاجأة، والادّعاء يحذّر: لا تصادروا هذه المفاجأة، لأنّها ستحدث رغمنا جميعاً.

النّائب العام:

ـ ما قاله الادّعاء حول الحركة والسّكون صحيح. الحياة حركة والموت سكون، ولكن مبدأ نفي النّفي، القائم علميّاً، يثبت أنّ الموت ينفي الحياة، لتعود الحياة فتنفي الموت، وفي هذه الجدليّة تصبح الحركة، في وحدة المتناقضات، موجودة في سكون الموت نفسه، أي أنّها المعيار الأوّل والأخير للسّيرورة الّتي هي تقدّمية دائماً. ولئن كان الادّعاء يخدم الدّفاع أحياناً، فليس معنى هذا أنه يمكن لأيّ متّهم أن يعوِّل على الادّعاء، فهذا التّعويل باطل وإلاَّ انتفى دور الدّفاع كلّيّاً.

القاعدة تقول إنّ الخطأ هو الوجه الآخر للصحّ، فالمحكمة تخطئ، والنّيابة العامّة تخطئ، وكذلك الادّعاء والدّفاع، والاستفادة من الخطأ كائن في هذه الحال، وبالنسبة لكلّ مَنْ ذكرت، وربّما كان المتّهم الزكرتاوي، في حرصه على بقاء مريم السودا في الادّعاء، يأمل بالاستفادة منها في خطأ الدّفاع، وهذه فرضيّة ليس إلّا، لأنّ أحداً منّا لا يعرف ماذا يدور في رأس الزكرتاوي، ولا أيّة مفاجأة يعدّها لنا، غير أنّ مريم السّودا، حتّى ولو كانت ضمير المتّهم المعبِّر، حسب الادّعاء، فإنّها تقوم، وعن عمد، بتعطيل عمل المحكمة، لذلك تطلب النيابة العامّة إبقاءها خارجاً.

الدّفاع، راجعة المتبحر:

ـ بخلاف ما يطالب به النّائب العامّ، فإنّ الدّفاع إلى جانب عودة مريم السّودا إلى مكانها في الادّعاء، مادامت هذه رغبة المتّهم الزكرتاوي. ومهما يكن نوع المفاجأة المتوقّعة فإنّنا نرحّب بها، بل أكثر من ذلك، سنساعد في حدوثها إذا كان ذلك في إمكاننا، لأنّنا نحرص على أن تأخذ العدالة مجراها، وألّا يبقى هناك شيء طيّ الخفاء. ومع الموافقة على ما جاء في كلام الادّعاء والنّائب العام حول الحركة والسّكون، فإنّ مؤلّفات الزكرتاوي، في منحاها الفلسفي، لاتزال تحفل بالعديد من الفكرات العلميّة والفلسفيّة، لو أنّنا نحاكمه علميّاً وفلسفيّاً. الاستقراء، ههنا، يقود إلى أشياء خطيرة، نتمنّى على الدّفاع والادّعاء والنّيابة ألّا يقاربوها حتّى لا نقع في التّجريد الفكري، مع ملاحظة جديرة بالاعتبار، وهي أنّ الدّفاع مستعدّ، حتّى على مستوى التّجريد، أن يدحض الكثير من حجج الادّعاء الّتي نعرف إلى أين تؤدّي بنا. وفي هذا الصّدد، نرى توافقاً ليس غريباً، إلّا أنّه مشبوه، بين الادّعاء والنيابة، فبعد موضوعة الحركة والسّكون، سيطرح الادّعاء، وربّما النّيابة العامّة، موضوعة الرّوح والمادّة، وصولاً إلى

رمي المتّهم بالهرطقة، عن طريق تحريك مواضيع من هذا القبيل، والغاية من ذلك واحدة: استدراج المتّهم، وكذلك الدّفاع، إلى قضايا ذات حساسية بالنّسبة للرأي العام، لإثارة الشّغب ليس إلاّ. إنّ الدّفاع، سيّدي الرّئيس، لديه كلّ الدّفوع اللازمة بالنّسبة لهذه القضايا، ولكنّه يؤثّر عدم الخوض فيها، لأنّها قضايا شائكة، تتعلّق بما بين الإنسان ومعتقده، ونحن نفضّل أن يُخلى بين هذا الإنسان وعقيدته، لأنّ هذا شأن خاصّ، لا يجوز أن يعالج إلاّ عن طريق الفكر، وفي إطاره تحديداً، حيث للفلسفة صعيدها، وللإيمان صعيده، ومن المفيد، في هذه المحكمة، ألاّ نخلط الأمور، وأن نبقى في نطاق التّهم الموصوفة، ذات الوقائع، وما ينطبق عليها من مواد قانونيّة. إنّ النّاس لا يحاكَمون على معتقداتهم بل على أقوالهم وأفعالهم، ذلك أنّ ما في الضّمير هو علاقة المخلوق بما يعتقد، فمادام هذا الاعتقاد قائماً في السّريرة، ومادامت العقيدة الّتي نحترم هي مرحلة في تاريخ الفكر البشري، وهي استجابة لمساءلة مشروعة حول الوجود، ومادام العقل، وكذلك الفكر، ينظران إلى العقيدة في إطارها التّاريخي، ولا يريان فيها تعارضاً مع النّظر الفلسفي إلى أمور الدّنيا، فإنّ الأسئلة الّتي تُطرح عبر الدّلالات الحديثة في روايات المتّهم الزكرتاوي، هي أسئلة مشروعة، إطارها خارج إطار هذه القوانين الوضعيّة الّتي نحاكمه على أساسها. هذا مجرّد لفت نظر، قد يكون سابقاً لأوانه قليلاً، إلاّ أنّه ضروري في مجرى ما بدأنا نسمع به من طروحات فكريّة يُراد الزجّ بها دون مبرّر، في سياق الدّعوى الّتي تنظر فيها المحكمة.

الزكرتاوي واقفاً:

ـ أنا أطلب الكلام، سيّدي الرّئيس، دون حاجة للكلام في أكثر الأحيان.

رئيس المحكمة:

ـ كيف هذا يا زكرتاوي: تطلب الكلام دون حاجة للكلام؟ هل ما نحن فيه جدّ أم لَعِبٌ!؟

الزكرتاوي:

ـ لَعِبٌ يا محكمة، ومن النّوع البليد الّذي لا تسلية فيه. لولا مريم السّودا لكان الجوّ لا يُطاق من شدّة السّماجة. لماذا حلّت السّماجة عليكم بهذا القدر الكثيف؟ أخشى ما أخشاه أن تحكم عليّ محكمتكم بقراءة بعض الكتب السّمجة، أو اللّئيمة، أو الدّخيلة. في هذه الحال تصبح الأشغال الشّاقّة أهون على نفسي. هناك غلاظة لا تحتمل، هي غلاظة عديمي الموهبة. أنا لم أطلب الكلام لأقول مثل هذه الأشياء.

ـ ولماذا طلبت الكلام إذن!؟

ـ كي أستريح واقفاً! هكذا بكلّ بساطة!

ـ ابقَ واقفاً إذن، وهكذا بكلّ بساطة!

ـ الوقوف مثل الجلوس، كلاهما مبهظ إذا كان بالأمر.

ـ في هذه الحال قف أو اجلس، وقتما تريد وحيثما تريد. أنت حرّ.

ـ في قفص الاتّهام، صغيراً كان أم كبيراً، لا توجد حرّيّة.

ـ وهل الحرّيّة في أن ندعك تتمدّد وأنت تُحاكم!؟

ـ الحرّيّة في إلغاء فعل الأمر! يا إلّهي! لماذا لا يلغون فعل الأمر؟ هل هناك، يا محكمة، لغة بغير فعل الأمر؟

الكلام للنّائب العام:

ـ سيّدي الرّئيس! المتّهم الزكرتاوي يقول، دون أن يقول، شيئين خطيرين: أوّلهما السّخرية بنا، وثانيهما الاحتجاج علينا. المساءلة، ههنا، تبدو عبثيّة، وهي ليست كذلك. ففي العالم لا توجد لغة بغير فعل الأمر، وهو يعرف ذلك، والمطالبة بإلغاء فعل الأمر، يعني

المطالبة بإلغاء المحاكم والسّجون وأقفاص الاتّهام.. إلخ، فهل هذا أمنية أم تحريض؟ النّيابة العامّة تراه تحريضاً.

الزكرتاوي:

- وأنا أراه أمنية، إلاَّ إذا اعتبرنا الفارابي محرّضاً!

النّائب العام:

- نعم! الفارابي كان محرّضاً.. مجرّد الإشارة إلى المدينة الفاضلة هو تحريض!

الزكرتاوي:

- زمن الفارابي كان أرحم من زمننا هذا إذن!

النّائب العام:

- وهذا طعن سيّدي الرّئيس. إنّه طعن لا بالزّمن، بل بسلطة هذا الزّمن، وهذا تحريض يعاقب عليه القانون!

مُرّان الطّوراني يخرج من صفّ الدّفاع ويتوجّه إلى النّائب العام وبيده منديل.. رئيس المحكمة يقرع بالمطرقة:

- ما هذا!؟ ما هذا يا طوراني!؟ لماذا لم تستأذن المحكمة!؟

الطّوراني:

- لأنّ الزكرتاوي حرّضني على عدم الاستئذان. وأمّا الّذي في يدي فهو منديل، سأقدّمه إلى النّائب العام كي يعصب به فم موكّلي الزكرتاوي فيرتاح.

النّائب العام:

- أنا أقوم بواجبي.

الطّوراني وهو أمام القوس:

- القيام بالواجب غير توزيع التّهم يميناً ويساراً. إنّني، يا سيّدي النّائب العام، أراك أزرق، ولكن هل تذكر أمس.. كنت أحمر!.

الادّعاء، كرم المجاهدي:
ـ نحن نحتجّ، سيّدي الرّئيس، على تهمة الألوان هذه.. إنّه تطاول وتجريح بحقّ النّيابة العامّة.

الطّوراني وقد عاد إلى مكان الدّفاع:
ـ ونحن، سيّدي الرّئيس، نحتجّ على هذا الاحتجاج. تهمة الألوان المزعومة هذه باطلة. إنّنا نسلّم بأنّه من حقّ الادّعاء أن يتضامن مع النّائب العام، ولكن ليس من حقّه أن يُرهب المتّهم بالمزايدة في التّهم. الموكّل الزكرتاوي قال إنّه لا يحرّض بل يتمنّى، فهل ثمّة من قانون يمنع التمنّي!؟ أَنْ نسخر فهذا من حقّنا، لأنّ كلّ ما حولنا يدعو إلى السّخرية، وأن نطالب بإلغاء فعل الأمر وتوابعه فهذا من حقّنا أيضاً، لأنّنا نتكلّم بالأمر، ونصمت بالأمر، ونأكل ونشرب بالأمر أيضاً، فماذا تبقّى لنا؟

الزكرتاوي مقاطعاً:
ـ أن نقوم ونقعد وننام ونضاجع بالأمر أيضاً!
النّائب العام بحدّة:
ـ سيّدي الرّئيس! الفتنة نائمة وهناك من يوقظها. إنّ الفتنة أشدّ من القتل! فهل يعرف المتّهم والدّفاع ماذا يفعلان؟ إنّني أحذّر، وأكرّر التّحذير: دعوا الفتنة نائمة!

الزكرتاوي:
ـ وهل مضاجعة نسائنا بالحلال إيقاظ للفتنة أيضاً؟ إذا كان ذلك كذلك فطلّقوا نساءكم أيّها النّاس!
رئيس المحكمة:
ـ هذا خروج عن سياق الدّعوى. تحذير النّائب العام في موضعه

تماماً. الكلام على الفارابي والمدينة الفاضلة والزّمن والسّلطة تحريض مبطّن..

كرم المجاهدي:

ـ بل مكشوف سيّدي الرّئيس، مكشوف جدّاً.

الزكرتاوي:

ـ وبماذا نغطّيه؟ بالبطّانيّة؟ هناك أزمة بطّانيّات أيضاً...

مطرقة الرّئيس:

ـ الكلام ممنوع إلاّ بإذن المحكمة. العمى! هل هي فوضى!؟ ما دخل الفارابي بما نحن فيه؟

الزكرتاوي:

ـ دخله أنّه دعا إلى المدينة الفاضلة. ما رأيك، سيّدي الرّئيس، أن نستدعيه ونحاكمه؟

ـ تسخر يا زكرتاوي؟ سنستدعيه ونحاكمه إذا اقتضى الأمر. لا أحد بمنجاة من المحاكمة، مفهوم؟ والآن ماذا بشأن مريم السّودا؟ ترشّحها يا طروسي أم تبقى خارجاً؟

الطّروسي:

ـ أرشّحها (ينادي) مريم السّودا إلى مكانك في الادّعاء، إذا وافقت المحكمة!

رئيس المحكمة بعد التّشاور مع مستشاريه:

ـ المحكمة موافقة! لتعد مريم السّودا إلى الادّعاء، إنّما دون مشاغبات! الشّغب، يا مريم، ممنوع.. هذه محكمة!

مريم السّودا تخرج من بين الصّفوف وهي تخمع. تصفيق، هرج، أصوات متداخلة، مطرقة الرّئيس. مريم السّودا:

ـ شكراً يا أبو فارس. أنا، وحياة شواربك، غير مشاغبة. أنا

يُشاغَب عليّ ولا أشاغِب، ولكنّني أستأذن المحكمة في توجيه الشّكر لمن ناصروني، واللّعنة لمن أقصوني، وبعد. . .

رئيس المحكمة مقاطعاً:

- ولا قبل يا مريم. . الزمي الصّمت. . سمعت!؟

- أنا سمعت، ولكن ما حكاية هذا البندوق الّذي اسمه الفارابي؟

- انتهينا من قصّة الفارابي هذه يا مريم. . ثمّ لعلمك، الفارابي فيلسوف وموسيقي، ومن كبار الأوادم في تاريخنا، فلا تعودي إلى سيرته، بالخير أو بالشرّ على السّواء. . نعود الآن إلى النّظر في أمر المتّهمين: ابن الحمّال وابن برّو! نادِ عليهما يا محضر، يا زكريا المرسنلي!

- ابن الحمّال وابن برّو! إلى أمام المحكمة، وبكلّ أدب وإلاّ. . .

رئيس المحكمة مقاطعاً؛

- بسّ يا زكريا! إلاّ هذه بدونها، الزم حدودك، يعني سدّ بوزك!

زكريا:

- كيف أسدّ بوزي يا سيّدي الرّئيس وأنتم، عدم المؤاخذة «تطقّون الحنك» من الصّباح إلى الآن؟ أنا، وأعوذ بالله من كلمة أنا، الّذي ربط الحوت، فهل جزائي أن تربطوا لساني؟ ما رأيك يا زكرتاوي يا معلّمي!؟

الزكرتاوي:

- سدّ بوزك يا زكريا، الحكمة تقول: «لجمع الحجارة وقت ولتفريقها وقت»!

- ووقتي أنا!؟ متى يأتي وقتي أنا؟ زكريا، يا معلّمي، يبلع لسانه من أوّل هذه المحاكمة، فإلى متى أبلع لساني؟ أنا لديّ اقتراح، ولن أتراجع عنه، إمّا عبعوب معي أو أنّني أترك الوظيفة. . عبعوب، يا

إخـواني، وحده الّـذي يحـلّ هـذا المشكـل. كلمـة منـه بـألف منكم (ينادي) يا عبعوب، يا ابن أمّك، إلى أمام المحكمة، تعال وحيـاة أمّ زخردياس الّتي كانت تنام على ظهرها، و. . .

رئيس المحكمة مقاطعاً:

ـ هسّ، هس، اترك عبعوب، وزخـريادس وأمّـه، نحن في دوّيخة فلا تدخلنا بغيرها!

زكريا:

ـ إذن انصفوني! أنا لا أفهم نصف الّـذي يُقال في هـذه المحكمة. أنا، يا جناب الرّئيس، لا أفهم بالنّحوي. أريـد ترجمـاناً هـو عبعوب صديقي، هذا أفهم عليه من نصف كلمة، لأنّـه، حاشـاك، يعتبرني حمـاراً، إنّما غـير شَكْل عن الحمـير، حماراً عـلى قدمـين اثنتيْنْ، وإنّمـا محترم. وهذا هو المهمّ. الاحترام ضروري لي مثل المجدّرة، إنّما. . .

رئيس المحكمة:

ـ وبعد إنّما هذه!؟

ـ إنّما هذه محطّة كلام. لازمـة كما يقـولون، هـل هناك أغنيـة دون لازمة حتّى ولو كـانت على «دلعـونا»؟ إنّمـا، يا جنـاب الرّئيس، مـاذا كنت أقول. . .؟

ـ كنت تسدّ بوزك من أوّل المحاكمة إلى الآن، فما عدا ممّا بدا حتّى أصبت بهذا الإسهال الكلامي؟

مريم السّودا:

ـ رغم أنّني لا أعرف هذا الوحش الّذي اسمه زكريا المحضراوي، إلّا أنّني أنبّه المحكمة إلى عبارة «الإسهال الكـلامي» الّتي فيها رائحـة القدح والذمّ. الحياد مفروض في هيئـة المحكمة، وعليهـا أن تبقى في وضع الانتصاب، فلا تميل إلى اليسار أو إلى اليمين. .

نايف الفحل من بين الحاضرين:

ـ انتبه سيّدي الرّئيس إلى كلمة «الانتصاب» هذه! نحن في محكمة ولسنا في فراش، ثمَّ إنّني..

مطرقة الرّئيس:

ـ اللّعنة عليك وعلى من أسماك نايف الفحل.. ألا تخجل يا قليل الحياء!؟ مريم، يا أهبل، أرادت بكلمة الانتصاب الاستقامة، أليس كذلك يا مريم؟

ـ نعم يا أبو فارس.. الانتصاب هو الاستقامة، ألا يقولون: «انتصب واقفاً»؟ أنا غير قليلة باللّغة وحياة شواربك يا أبو فارس، ولكن المثل يقول: «الّذي فيه مسلّة يشعر بالنّخز، ونايف الرّخو هذا نخزته كلمة الانتصاب وفهمكم كفاية، ولكن المسألة..»

ـ عن أيّ مسألة تتحدّثين يا جنح الغراب أنتِ!؟

ـ عن مسألة الانتصاب يا أبو فارس.. ألا تحتاج مثل هذه المسألة إلى شرح!؟

رئيس المحكمة بحدّة:

ـ انقبري أنتِ وشرحك. العمى! لولا فصاحتك لمرّت الكلمة بسلام، أنتِ، يا بومة، مثل الدبّ الّذي أراد كشّ الذّبابة عن وجه صاحبه.. اسمعي! أنتِ قلتِ، أو أردتِ أن تقولي: الاستقامة، ولكن لسانك، قطعه الله، زلّ بالتّعبير، فجاءت كلمة محلّ أخرى.. أليس كذلك؟

مريم السّودا:

ـ لا! ليس كذلك. ومادامت السّيرة انفتحت، والمستور انكشف، فإنّني أصرّ على كلمة الانتصاب، لأنّها..

ـ كفى! لا تشرحي! قلت لك لا تشرحي..

ـ والعقدة؟

ـ أيّ عقدة هذه أيضاً؟

ـ عقدة الانتصاب!

ـ قلت لك لا تذكري هذه الكلمة مرّة أخرى. .

ـ كيف لا أذكرها ونصف رجال البلد مصابون بعقدتها!؟

ـ ومن أين علمت أنّهم كذلك؟ هل لديك عيادة نفسانيّة!؟

نايف الفحل من بين الحاضرين:

ـ من تجربتها سيّدي الرّئيس!

ـ مهما يكن فالأمر لا يعنينا. المحكمة ترفض احتجاج مريم السّودا وتحذّرها، كما ترفض استدعاء عبعوب، حتّى لو كان زكريا حماراً ويحتاج إلى من يفهم لغة الحمير. انتهينا من كلّ هذه الإشكالات والاعتراضات الجانبيّة. . السّؤال الآن موجّه إلى ابن برّو، لماذا أثرت الفتنة الّتي أفضت إلى معركة؟ وما علاقتك بالمتّهم ابن الحمّال؟

ابن برّو:

ـ علاقة أبناء بلد واحد وحيٍّ واحد، هو حيّ العوينة في اللاّذقيّة عروس السّاحل.

ـ نحن نسألك عن الفتنة لا عن العريس والعروس. . أنت حرّضت على الفتنة، نعم أو لا؟

ـ لا سيّدي الرّئيس، الفتنة حدثت لوحدها.

ـ والمعركة في قاعة المحكمة؟

ـ شرحه سيّدي الرّئيس؟

ـ هل لك ثأر مع الطّروسي؟

ـ لا أذكر سيّدي الرّئيس.

ـ أنت كذّاب يا سيّدي وسيّدي، تعترف بجرم إثارة الفتنة أم نسيت هذه أيضاً؟

ـ كلّا!

ـ أجب بشكل صريح ومحدّد: أثرت الفتنة أم لا؟

ـ كلّا!

ـ ودورك في المعركة، تعترف به أم لا؟

ـ كلّا!

ـ السّؤال موجّه إلى ابن الحمّال: ما علاقتك بابن برّو؟

ـ علاقة حرف الميم سيّدي الرّئيس.

ـ ودورك في الفتنة والمعركة؟

ـ شرحه!

ـ أريد جواباً واضحاً: لماذا أثرت الفتنة الّتي أدّت إلى معركة في قاعة المحكمة؟

ـ شرحه سيّدي الرّئيس.

ـ ما رأيك يا زكرتاوي؟

ـ شرحه أيضاً!

ـ وأنت يا طروسي؟ شرحه أيضاً وأيضاً؟

ـ لا سيّدي الرّئيس! شرحه هذه ملغومة. إنّهم يزرعون الألغام هؤلاء الأوغاد. كلمة «كلّا» لغم، وحرف «الميم» لغم، و«شرحه» لغم، وكلّ هذا من تدبير مدبّر في هذه القاعة!

ـ الكلمة للنّائب العامّ.

ـ النيابة العامّة تتبنّى ما قاله الطّروسي لجهة الألغام.

ـ والادّعاء؟

ـ الادّعاء بضع المسؤوليّة كلّها على الطّروسي، هناك رائحة ثارات قديمة. ونحن، في الوطن العربي الكبير، أي من المحيط الهادر إلى الخليج الثّائر، أكثر الشّعوب عراقة في مسألة الثّأر هذه. إنّها مثل الشّرف تماماً، بل هي الشّرف بعينه، والشّرف غالٍ «يُراق على

جوانبه الدّم» والبدوي، كما تقول حكاية ذات أسانيد، أخذ بثأره بعد أربعين عاماً فقال: «استعجلت!». باختصار: الطّروسي له ثأر قديم مع ابن برّو، والنّائب العامّ له ثأر قديم مع ابن الحمّال، والقضية كلّها «بولوتيكا»! . .

أصوات:

ـ تعيش «البولوتيكا»!

أصوات أخرى:

ـ تسقط «البولوتيكا»!

مطرقة الرّئيس في قرعات متواصلة:

ـ هدوء! هدوء يا بجم! ما هذه «البولوتيكا» يا أستاذ مجاهدي أنت!؟

مريم السّودا:

ـ أنا أجيبك باسم الادّعاء يا سيّدي الرّئيس! «البولوتيكا» هي «الرّبوبيكا!» اسألني أنا في هذا الموضوع، زوجي المرحوم كان. .

الرّئيس مقاطعاً بحدّة:

ـ أيّ زوج فيهم يا مريم؟ التّدقيق هنا واجب!

ـ وأنا مع الواجب يا أبو فارس، أنا أمّ الواجب وأخته وابنة عمّه أيضاً. المرحوم الّذي أعنيه يمكن أن يكون الأوّل أو الثاني أو الثالث، الله أعلم. .

نايف الفحل:

ـ الأزواج الثلاثة هؤلاء كانوا بالحلال، وأمّا أزواجها بالحرام فحدِّث ولا حرج، هذه القحبة. .

مريم السّودا تضرب على رأسها مولولة:

ـ واثأراه! واثأراه! الدّم يا أبو فارس، الدّم!

رئيس المحكمة:

ـ عن أيّ دم تتحدّثين يا بلهاء!؟

ـ الدّم الّذي يدهنون به جوانب الشّرف كما قال زميلي في الادّعاء، فأنا، ولعلم الجميع، من سلالة بدويّة قحّة، جذورها على سنّ الرّمح في تغريبة بني هلال نفسها، ثمّ إنّني..

رئيس المحكمة بحدّة:

ـ ثمّ ماذا يا خرقة مبلّلة أنتِ!؟ الكلام للدّفاع، وخير الكلام ما قلّ ودلّ، نريد، يا أوباش، أن ننتهي من قضيّة ابن برّو وابن الحمّال، حتّى نتفرّغ لاستجواب المتّهم عناد الزكرتاوي، أخينا في الإنسانيّة، الّذي كاد يكفر بالإنسانيّة بسببنا.

مريم السّودا:

ـ ومسألة «البولوتيكا» و«الربوبيكا»؟ نشمّر ونطف فوقها أم نشرحها؟ ووصمة العار التي ألحقها بي نايف الرّخو، هل تمرّ بغير ثأر ودم؟ لا تحرجوني فتخرجوني، أنا أنذركم، وقد أعذر من أنذر والسّلام.

رئيس المحكمة متوجّهاً بالكلام إلى كاتب المحكمة:

ـ يشطب من محضر الجلسة كلام مريم السّودا جملةً وتفصيلاً. الكلام للدّفاع.

مريم السّودا:

ـ أيّ دفاع وأيّ تفسير يا أبو فارس؟ تشطب كلامي وتبقي كلام نايف الرّخو؟ طيّب والعدالة؟ لماذا علّقنا ميزانها وراءك يا محترم؟ وطلب هذا الصمّ البكم الّذي اسمه زكريا الوحش؟ أنا، كما يُقال في الحارة عنّي، بنت أصول، وأتمسّك بالأصول، ومن الأصول أن تنتهي المحكمة من حلّ شربوكة ثمّ تنتقل إلى غيرها، نحن الآن في أيّ شربوكة!؟

رئيس المحكمة بسخرية:

ـ في شربوكة مريم السّودا الّتي قال عنها نايف الفحل عـاهرة وهـو على حقّ!!

ـ يـا ويـلاه! أنت تقـول هـذا يـا أبـو فـارس؟ مـاذا أبقيت لأولاد الأزقّة؟ ثمّ..

ـ ثمّ انكتمي يا بذيئة، يا سليلة..

ـ بني هلال!

ـ أنتِ سليلة بني هلال؟

ـ أي وشرفـك يـا أبـو فـارس، أنـا سليلة بني هـلال، ومن عـدّة أفخاذ، بينها فخذ العبسيّين، والمـريّين، والمنـاذرة، وجدّي الأكـبر هو التّبّع اليماني، وجدّتي..

ـ بس، بس، نحن لا نـطالبـك بشجـرة العـائلة، نـطالبـك فقط بالسّكوت! فهمت!؟ الكلام للدّفاع.

مران الطّوراني:

ـ لولا أنّني أعرفك يا سيّدي الرّئيس، أنت الـطّيب والحازم معـاً، لقلت إنّ طيبتـك تفتقر إلى شيء مـا، لعلّه الـزّجـر. نعم! أن تـزجـر بـالعقوبـة لا بالنّصـح، هؤلاء الّذين يسمعـون نصحـك الأبـوي ولا ينتصحون، لأنّهم، بالنّسبة إليك، أبناء عاقّون، وهذا ثـابت ومؤسف معاً. نحن نعرف، وأنت تعرف قبلنا، وقد قيل مـراراً: هذه محكمـة استثنائيّة للنّظر في قضية استثنائيّة، لم يُعرض مثلها على أيما محكمـة في الوطن العربي كلّه. إذن هي سابقة، وبصفتها هذه، تقترب أن تكون رائدة، وفي الرّيادة يقع تجاوز وخطأ وصواب، وهذا مفهوم، لأنّ هذا كلّه ينصلح بالتّدريج، عندما تصبح للرّيادة قاعدة وضوابط وأصول، فيكون ثمّة لاحق لسـابق، يتقفّى أثره في مـا أثبتت الأيّام أنّـه صحّ، ويكون اجتهاد هذه المحكمة الاستثنائيّة اجتهاداً مأخـوذاً في الاعتبار،

ينـدرج في مـا هـو طبيعي شيئـاً فشيئـاً، حتّى تحـلّ الـطّبيعيّـة محـلّ الاستثنائيّة.

«اخلص من هذه الفذلكة الّتي قد لا تكون ضروريّة..»

مريم السّودا مقاطعة:

ـ نعم! ليست ضروريّة!

رئيس المحكمة:

ـ اخرسي يا مريم!

كرم المجاهدي:

ـ الادّعـاء، سيّدي الـرّئيس، يحتجّ عـلى كلمة «اخـرسي» النّـابيـة هذه، تُقال لممثّل الادّعاء المحصَّن قانونيّاً، سواء كان امرأة أو رجلاً. الادّعاء يشتمّ رائحة تحريض على الزّجر قام بها الـدّفاع، فتـأثّرت بهـا المحكمة فوراً، إذا لم نقل أخذت بها.

رئيس المحكمة:

ـ اخرس أنت أيضاً، وعلى نعلي هذا الخراء الّذي اسمه احتجاج. أنـا لا أُحرَّض ولا أتـأثّر بـأيّ تحـريض، ولكن صـدري ضـاق بهـذه المهزلة الّتي لن أسمح لها بالاستمرار.

كرم المجاهدي:

ـ ماذا!؟ ماذا!؟ أكاد لا أصدّق.

رئيس المحكمة:

ـ بـل صـدِّق يـا حثـالـة الادّعـاء أنت، يـا مغتصب القـاصرات! اضبارتك عنـدي (يضرب على الاضبـارة) وسيكون حسـابك عسيـراً عندما يصل إليك الدّور.

كرم المجاهدي صارخاً:

ـ يا نيابة! يا ممثّل النيابـة! إنّني، مرّة أخـرى، أكاد لا أصـدّق ما أسمع: نعل وخراء وحثالة، في أيّ كرخانة نحن!؟

الزكرتاوي وهو جالس:

ـ في كرخانة دود الحرير!

ـ إذن الادّعاء ينسحب من الجلسة.. هيًّا يا مريم!

مريم لا تتحرّك من مكانها:

ـ إلى أين!؟

ـ إلى خارج هذه القاعة!

ـ لا يـا حبيبي! كـلّ شيء ولا هـذا.. المثـل يقـول «من لم يـذق الطّغراية لا يعرف أيش الحكاية» أنـا كنت خارج القـاعة وعـرفت.. المسألة وما فيها «فشّة خلق» أبو فارس ضاق صدره ففشٌ خلقه وهـذه هي كلّ الحكاية. (تمسك بكرم المجاهدي وتشدّ بـه ليعود إلى مكـانه) تعال! النيابة العامّة حدّ السّيف بـين الادّعاء والمحكمـة، ما رأيـك يا نيابة؟

النّائب العامّ:

ـ مؤسف جدّاً ما جرى وما يجري في قاعة هذه المحكمة!

الزكرتاوي وهو جالس:

ـ مرحباً محكمة!

النّائب العامّ:

ـ أحـذّر المتّهم الـزكـرتـاوي من التّعليق، ومن التّعليق السّـاخـر بخاصّة.. وبعد، اسمحوا لي، وللمرّة الأولى، أن أهنّئ مريم السّودا على موقفها المتعقّل والحكيم..

مريم السّودا مقاطعة:

ـ وأنا أهنّئ النيابة العامّة بدوري، الآن و..

رئيس المحكمة بحدّة:

ـ أيّ آن وأيّ أوان أنت الأخرى؟ قلت لكِ لا تقاطعي.. لا تتكلّمي إلّا بإذن من المحكمة!

ـ والحريقة!؟

الزكرتاوي جالساً:

ـ بوّلي عليها!

ـ يا ويلاه! اكتب يا كاتب المحكمة..

رئيس المحكمة ببرودة:

ـ لا تكتب شيئاً، هذه الشّمطاء رأس البليّة. . النّائب العامّ يتفضّل ويكمل كلامه، ودون مقاطعة من أحد.

ـ النيابة العامّة لا تستطيع، كما الادّعاء، أن تستمرّ في مهمّتها إذا لم تقدّم المحكمة اعتذاراً، ولو ضمنيّاً، عمّا صدر عنها من كلمات مرفوضة.

رئيس المحكمة:

ـ ألفت النّائب العامّ إلى أنّ المحكمة لا تقبل بأيّ حال هذا التّهديد بالمقاطعة أو الانسحاب. الّذي يريد أن ينسحب فليتفضّل غير مطرود. كفى بغددة علينا. الاعتذار غير وارد، العصا لمن عصا، والكلمة تقوم مقام العصا لوقف هذا الهذر، أو هذه الميوعة، وأخيراً هذه الفوضى. عن أيّ كلمات نابية يتحدّث الادّعاء والنّائب العامّ؟ أنا أبو فارس ولاه! أبو فارس الّذي، كما في «المصابيح الزّرق» لم تسقط من عينه دمعة طوال خمسين عاماً، لأنّه «للنّائبات حمول»، وقد مدّ بحبل الصّبر، للجميع، طويلاً وطويلاً جدّاً، فماذا كانت النّتيجة؟ فالصو! ثلاث جلسات ولم نبدأ بعد باستجواب المتّهم الزكرتاوي، فإلى متى؟ إلى متى يا نيابة ويا ادّعاء ويا مريم ونايف وكلّ الّذين على شاكلتكم؟ أنتم تريدون إغراق المحكمة في مستنقع من طحالب

التّفاهة بكلّ ما فيها من هذر ولتّ وعجن، حتّى كدنا نغرق في السّفه والسّخف معاً، وبلغ التّقزّز بنا درجة التّقيُّؤ، من دناءة ما نرى ونسمع. إذن حذار جميعاً. وفي وسع من يعترض أن يرفع الأمر إلى مرجعه الأعلى، وهذا ينسحب على الجميع، نيابةً وادّعاءً ودفاعاً ومتقاضين، نحن، هنا، نؤدّي واجباً، ولن نتنصّل من حمل المسؤوليّات والنّتائج.. انتهى دور النّائب العام في الكلام، فليتفضّل الدّفاع بمتابعة ما كان قد بدأه.

مران الطّوراني:

- الدّفاع يشارك المحكمة في ما ذهبت إليه من حزم وزجر. لقد أبنتُ، في فذلكة تمهيديّة، ما تمثّله هذه المحكمة الاستثنائيّة غير المسبوقة من ريادة..

مريم السّودا مقاطعة:

- ستوب! الادّعاء يستفسر: ما معنى كلمة «فذلكة» هذه، حتّى يستطيع الرّد.

مران الطّوراني:

- الفذلكة معناها مجمل أو خلاصة ما فُصِّل سابقاً، فهل نتكلّم، في هذه القاعة، اللّغة العربيّة أم الأورديّة؟

مريم السّودا:

- ستوب مرّة ثانية، ما معنى الأورديّة يا عزيز عيني؟

مران الطوراني:

- الأورديّة لغة ما بين السّند والهند، أي أفغانستان وباكستان ونيبال!

مريم السّودا:

- ستوب مرّة ثالثة، ما معنى السّند يا ضناي!؟

ـ معناها الاسم الّذي كان يطلق جغرافيّاً على باكستان اليوم.
ـ ستوب مرّة رابعة، متى..

رئيس المحكمة:
ـ يا مريم، يا أمّ استوب أفندي، تخرسين أو آمر بقطع لسانك!؟
مريم السّودا:
ـ لا هذا ولا ذاك يا عمّي أبو فارس!
ـ أوّلاً، يا مريم، أنا لست عمّك. أنا بريء إلى يوم القيامة من نسلك الشّيطاني. وثانياً أنا الآن رئيس المحكمة ولست أبو فارس الّذي تعرفين.
ـ في هذه الحالة أعتذر.
ـ وفي هذه الحالة، الخرس أفضل من الاعتذار. الدّفاع يتابع كلامه:

مران الطّوراني:
ـ الدّفاع، سيّدي الرّئيس، لا يستطيع في مثل هذا الجوّ من المماحكات أن يؤدّي واجبه.
ـ المحكمة تقرّ هذه الملاحظة، وتحذّر مريم السّودا، للمرّة الخمسين، من المقاطعة! تفضّل..
ـ شكراً سيّدي الرّئيس، ولكن الدّفاع، في ملاحظة هامشيّة، يستنكر كلمة «ستوب» السّوقيّة هذه. كلمة استوب تقال للسيّارة لا لمحامي الدّفاع.

الزكرتاوي جالساً:
ـ صحيح يا «فورد أبو دعسة»!

رئيس المحكمة:
ـ ما كنت أنتظر منك مثل هذا التّعليق السّخيف يا زكرتاوي.

الزكرتاوي:

ـ أنا ناطق باسم سيّده!

ـ ومن هو سيّدك!؟

ـ هذا العالم الّذي نعيش فيه.

ـ ولكن مران الطّوراني يدافع عنك!

ـ وأنا لا أقصده وحده!

ـ تقصدنا جميعاً إذن؟

ـ وأنا من ضمنكم!

ـ تكلّم إذن وأنت واقف، هذا من باب الاحترام للمحكمة.

ـ لم يبقَ في هذه الدّنيا من هو جدير بالاحترام.

ـ هكذا دفعة واحدة!؟

ـ نعم، هكذا دفعة واحدة!

ـ تقول هذا وأنت الأستاذ!؟

ـ أقوله دون أن أكون أستاذاً.. هذه كلمة ابتذلت مثل أختها كلمة الدّكتور، سمعت مرّة مَنْ يُنادي الزبّال: «يا أستاذ!» وسمعت أيضاً من ينادي الحمّال «يا دكتور!» طبعاً أنا أحترم الزبّال والحمّال، ولكنّني لا أحترم الألقاب. عندنا، وفي زمننا هذا، صارت الأستذة تُباع مثل الفجل بالكيلو، وأعرف دولة كانت عظمى، تمنح شهادة الدّكتوراه في شهر، ولمّا وجدت الشّهر طويلاً، اختصرته إلى عشرة أيّام!

ـ هذا تشنيع غير لائق يا زكرتاوي، انتبه!

ـ الزكرتاوي يتكلّم بموضوعيّة، وليس ذنبي إذا كان التّشنيع قد أصبح موضوعيّاً! اعطني صندوقاً من عرق «كبريتة» أعطك أستاذاً، وهات لي صندوقاً من الويسكي «صنع في قبرص» وخُذْ «دكتوراه» بطول اللّحاف وعرضه. أنا، يا محكمة، منتبهٌ جيّداً لما أقول، وبقي

عليكِ أن تفرّقي بين الخِلّ والخَلّ، كلّه، يا محكمة، صابون. . نعم! كلّه صابون ومن صنع الوطن!

النّائب العامّ:

ـ سيّدي الرّئيس! أطالب بوقف هذا «الدّيالوج»، فالمتّهم الزكرتاوي تحوّل، في السّنوات الأخيرة، إلى ساخر وبذيء، وهذه مؤلّفاته أدلّة دامغة. إنّه لا يحترم المحكمة، لذلك يتكلّم جالساً رغم التّنبيه، ولا يحترمنا لأنّه يطعن في ألقابنا، وكذلك لا يحترم العالم لأنّه يدير له، عدم المؤاخذة، مؤخّرته، فما نفع الحوار معه؟

زكريا المرسنلي:

ـ أستأذن، سيّدي الرّئيس، بتذكير المحكمة بطلبي، احضروا عبعوب كي يشرح لي، ولكم ربّما، ما معنى كلمات مثل «حرف الميم» و«شرحه» و«الدّيالوج» و«البوليتيكا» «والرّبوبيكا»، أنا، وأعوذ بالله من كلمة أنا، حمار! ولكن من حقّ الحمار أن يفهم أيضاً، أم أنّكم مثلي ولكن تفهمون لأنّكم أولاد مدارس!؟

رئيس المحكمة بعد التّشاور:

ـ يُرفض طلب زكريا الوحش، أو الحمار، لا فرق!

زكريا:

ـ والسّبب!؟

مريم السّودا:

ـ لأنّنا «كلّنا في الهوا سوا» والأفضل أن نترك غطاء الطّنجرة عليها.

الطّروسي بحدّة:

ـ أنا يا أبو فارس، يا رئيس المحكمة، ضاق صدري!

رئيس المحكمة:

ـ وأنا، أبو فارس، ورئيس المحكمة، ضاق صدري أكثر، لذلك أستعفي، أي أستقيل، ودبّروا رأسكم من بعدي.

. ينهض أبـو فارس. ينهض الجميـع. يقهقه الـزكرتـاوي ضـاحكـاً ضحكـاً هيستيريّـاً. القاعـة تضطرب. الأصـوات تتداخـل. هـرج. مرج. صوت الطّروسي صارخاً:

ـ ما هذا!؟ ما هذا يا أولاد الكلب، يا بجم! كلّ واحد مكانه. لا أحد يتحرّك. أنا من يقبل الاستقالة أو يرفضها، لأنّ هذا من حقّي.

أصوات:

ـ هذا ليس من حقّك!

أصوات أخرى:

ـ بلى! هذا من حقّه!

أصوات:

ـ ومن أعطاه هذا الحقّ؟

أصوات أخرى:

ـ نحن، نحن، نحن!

الطّروسي صارخاً صراخاً كالزّعيق:

ـ قلت لكم من حقّي يعني من حقّي، ولو بالقـوّة، ومن لـه كلمـة يبلعها، أو يحطّها في كذا..

الزكرتاوي جالساً:

ـ وصلنا إلى مرحلة الكذا.. والآتي أ، ن.. إلخ..

الطّروسي:

ـ لا ألف ولا نون! الاستقالة مرفوضة. أبـو فارس إلى مـوضعِك، أرجـوك، ليس بيننا مَنْ لـه صبرك، أو حكمتـك، أو شجاعتـك، أو قدرتك على الاحتمال! وأنا كفيل بهؤلاء الأوبـاش، أقول لـك أنا هـو الكفيل، فهل تخذلني؟

أبو فارس واقفاً في مكانه على قوس المحكمة:

ـ أنا لا أخذل ريّس الرّياس يا طروسي! أعرف أنّك قادر على مطاردة العاصفة، حتّى لو كان هؤلاء الأوغاد عاصفة، ولكن القرف..

الزكرتاوي مقاطعاً:

ـ الكلمة الأخيرة صحيحة: القرف! القرف ولا شيء سواه، القرف دودة وحيدة، وفي بطن كلّ واحد منّا دودة مثلها.

الطّروسي:

ـ ما تقوله يا أبو فارس صحيح، وصحيح أيضاً ما قاله الزكرتاوي، ولكن الحكمة..

الزكرتاوي مقاطعاً:

ـ اللّعنة على الحكمة!

الطّروسي:

ـ العنها كما تريد يا زكرتاوي، ولكن ساعدنا، أرجوك ساعدنا! ألا تثق بي؟

ـ أثق بما لا أثق!

ـ كيف تثق بما لا تثق!؟

ـ تخريف!

ـ ونحن!؟

ـ فيكم الخصام وأنتم الخصم والحكم.

ـ ورأيك؟

ـ لا رأي لحاقن!

ـ نرفع الجلسة إذن!؟

ـ ارفعوها أو حطّوها، لا فرق.

ـ الطّروسي:

ـ ترفع الجلسة للتّشاور.

الزكرتاوي:

ـ لا! للكوْلَسَةْ!

مريم السّودا:

ـ وما معنى الكولسة يا زكرتاوي؟

ـ معناها إدخال الخيط في خرم الإبرة، ولكن في الخفاء.

ـ لم أفهم!

الطّروسي:

ـ لا ضرورة للفهم يا غبيّة! قلنا ترفع الجلسة يعني ترفع الجلسة والسّلام.

الجلسة الرابعة

«علاَمَ تضحك من الجميع يازكرتاوي!؟»

«لأنَّ الضَّحك إحدى علامات الصِّحَّة، وهو مجلبة لها».

«أنت لا تضحك لتقنع نفسك أنَّك في صحَّة تامَّة».

«وأنا، كذلك، لا أضحك استجلاباً للصحَّة».

«إذن السّؤال نفسه: علاَمَ تضحك!؟»

«لأنّني أريد مقابلاً لما دفعت».

«مقايضة!!؟»

«ليس بالمعنى المبتذل للكلمة. العطاء والأخذ شرعة الدّنيا».

«وأنت أعطيت وتريد أن تأخذ!؟»

«بدأت تفهم يا قريني».

«قرينك يفهم كما تفهم: هو أنت، وأنت هو!»

«أنا لست ديمتريو الّذي أراد نقض ناموس الحبّ».

«ديمتريو تكلّم مع ديمتريو الّذي هو في المرآة».

«وأنا أتكلّم مع أنا في مرآة متعدّدة الزّوايا».

«تريد أن تقول إنّك تتكلّم مع نفسك؟»

«وأضحك منها وعليها في شخوصكم غير الكريمة».

«إذا كنّا نحن أنت، فإنّك غير كريم أيضاً».

«أنت قلت! إنّي أكرهكم جميعاً، لأنّني أكره نفسي فيكم».

«ولكن الكره هو الوجه الآخر للحبّ».

«أنا مثل النّاس جميعاً، أكره وأحبّ في وقت واحد، وليس في هذا جديد».

«وما هو الجديد في رأيك؟»

«الضّحك! أن تضحك من الدّنيا وعليها معاً، وهذا ما أفعله».

«وبه تأخذ ما أعطيت، أو ما يقابله؟»

«من يدفع لمشاهدة مسرحيّة مضحكة، يستردّ ما دفع بالضّحك؟»
«أنا لست مشاهداً في هذه المسرحيّة بل مشارك فيها».
«أنا شاهد ساخر عليها، لأنّ السّخرية تجانب الحيدة. إنّها فعل تغيير».
«تسخر منّا لتغيّرنا؟»

«تماماً كما قلت!»
«تسخر من عالم أنت خلقته!؟»
«عالمي هو نموذج مصغّر للعالم من حولي».
«أنت تدين نفسك بنفسك في هذه الحال، ومحاكمتك كانت ضروريّة».
«نعم ضروريّة، ولكن بالنّسبة لمن؟ وعلى أيّ شيء؟»
«بالنّسبة لك كمؤلّف، وبالنّسبة للشّخصيات في مؤلّفاتك».
«ولكن شخصيّاتي هي الّتي تحاكمني، ولا أدري على ماذا».
«لا تتباله! أنت تدري وتدري وتدري!»
«هذا صحيح! أدري وأدري، ولكنّني أتباله».
«تسخر منّي أنا قرينك؟»
«أسخر منك فيك يا قريني، حتّى لا أبقى في العاطلين».
«السّخرية ليست عملاً!»
«بل هي العمل الوحيد المفيد في زمننا هذا، كي لا أُجزي على ابتسامٍ بابتسامٍ».
«أنت انحدرت إلى حضيض الّذي لا يؤمن بشيء».
«أنا ارتفعت الآن، والآن فقط، إلى ذروة من يؤمن بشيء وحيد».
««ما هو!؟»
«حقيقة وجودي الموضوعي في قفص الاتّهام هذا!»
«ها أنت تعود إلى السخرية!»

«أعترف. السّخرية ملح الأرض.. أليس كذلك يا طوراني؟»

مرّان الطّوراني:

ـ لكن «إذا فسد الملح فبماذا يملّح الطّعام» يا زكرتاوي؟ لماذا تقود نفسك، وتقودنا معك، إلى الهاوية؟

ـ الأمر خلاف ما تقول.. أنا أصعد بكم من الهاوية.

ـ هذا ما يُقال له دهاء!

ـ الدّهاء ضروريّ، لأنّه نوع آخر من الملح..

ـ ملّح الله جلدك يا زكرتاوي، جزاء ما فعلته بي.

ـ «وهل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان» يا مريم؟ لماذا تتعمّدين إطالة المحاكمة؟

ـ كي أطيل عذابك!

ـ ولماذا جئت إليّ؟

ـ لأنّ العادة تقضي بذلك. حين ترفع الجلسة للاستراحة يأتي أهل المجرم والمحامون ليتكلّموا معه.

ـ أنا مجرم إذن في نظرك!؟

ـ في نظر الوقائع لا في نظري.

ـ حسبتك مشوّهة من الخارج فقط، والآن أكتشف أنّك مشوّهة من الدّاخل بقدر أكبر. ما أفظع ما أرى وأسمع!

مرّان الطّوراني:

ـ دعك من هذه الخرقة يا زكرتاوي، أنت بريء.

الزكرتاوي:

ـ لست بريئاً أو مجرماً. أنا لا أعرف ماذا أنا.

ـ أنت من صنف الّذين زرعوا الخير وحصدوا الشرّ. ليس من

السّهل أن يكون الإنسان عظيماً في هذا العـالم. عليه، مقـابل ذلـك، أن يمشي حافياً في حقل من المسامير.

ـ وإلى أين يؤدّي حقل المسامير هذا؟

ـ إلى حيث تخرج منتصراً ولو كنت مدمّى.

ـ وإذا كنت لا أريد الانتصار لنفسي بل للآخرين؟

ـ تكون منتصراً مرّتين. ترتفع فـوق مهزلـة هذه المحـاكمة ونـذالة هذه الأيام.

ـ نعم! صحيـح! نذالـة هذه الأيّـام، تلك هي المسألـة. ولكن ما بال الأستاذ كامل، النّائب العام كلّي الاحترام؟

ـ ليس أكثر من مرتدّ.. الخوف، يا زكرتاوي، يكون من المـرتدّين دائـماً. هـذا واحــد من الّـذين رأوا السّفينــة تغـرق، فقفــزوا منهـا كـالجرذان، ولكن إلى أين؟ من تقـاليد البحـر أن يغـرق الـرّيّس مـع مركبه، ولكنّنا في زمن آخر، لئيم، يقفز فيه الريّس من المركب إذا ما واجه اضطراب البحر، لا الغرق وحده.. لديّ كثير ممّا أقوله، ولكن ها هي كاترين الحلوة، سيّدة النّساء، وها هي راجعـة، القدّيسـة بين النّساء. يكفيك، يا زكرتاوي، أنّك رسمت، وبريشة حـاذقة جـدّاً، أمثالها.

ـ لكنّني رسمت، وبنفس الرّيشة، مريم السّودا أيضاً.

ـ لـو وُجد صـالح واحـد في سـدوم وعمـورة لمـا أُحـرقت.. أنت لديك، ها هنا، أكثر من صالحة وصالـح، وفي هذا وحـده عزاء كبـير لك.

ـ أجل! أجل! في هذا عزاء كبير جدّاً.. ولكن انظر! ها هي هيئة المحكمة تعود. انتهت الكَوْلَسَة، وتمّ إدخال الخيط في خرم الإبرة!

زكريا المرسنلي بصوت جهوري:

ـ محكمة!

الجميع وقوفاً. الطّروسي يقف في الفسحة أمام قوس المحكمة، يتكلّم بحزم ولكن بصوت هادئ وواثق:

ـ رَفْعُ الجلسة، هذه المرّة، لم يكن للاستراحة بل للمشاورة، و...

الزكرتاوي مقاطعاً:

ـ للكَوْلَسَة يا طروسي.. سمّ الأشياء بأسمائها، وأفدنا بالنتيجة. «قمحة أم شعيرة»؟

ـ قمحة بإذن الله. ليس من عادة أبي فارس أن يتخلّى عنّا في الشّدائد، ولكنّه يقترح ترشيحاً جديداً، ثقة جديدة، وأنا أرشّحه لرئاسة هذه المحكمة، الأصحّ أرجوه أن يبقى رئيساً لها، فهل من معترض؟

النّائب العام:

ـ النّيابة العامّة تطعن، من جهة الكفاءة، بهذا التّرشيح. قد يكون أبو فارس، في مثل سنّه، نافعاً لرئاسة عشيرة، وفضّ الخلافات بين أبنائها، ولكن هذه محكمة، ومحكمة استثنائيّة، ورئيسها ليس رئيس عشيرة.

كرم المجاهدي:

ـ الادّعاء يؤيّد النّائب العام. أبو فارس رجل متّزن، ولكنّه جاهل، فكيف يحاكم الجهلةُ المتعلّمين!؟

مريم السّودا:

ـ أشهد أنّ أبا فارس، رجل طيّب، ومن دلائل طيبته أنّه يأخذ المتّهم الزكرتاوي بلطف، بل أكثرُ من اللّطف، بالمحاباة، أبو فارس، أيّها الأوادم الحاضرون، ليس أهلاً لأن يحكم على هذا المجرم الّذي اسمه عناد الزكرتاوي، حكماً جزاء وفاقاً على جريمته. هذا أوّلاً، وثانياً أبو فارس عجوز يتصابى، يميع، كما الشّمعة أمام الحرارة، إذا

ما رأى وجهاً جميلاً، وليس مصادفة إذن أن تكون في الدّفاع كاترين الحلوة، وهي من تعرفون أخلاقاً وسلوكاً، وأن تكون معها راجعة، هذه الّتي خانت زوجها، ولو بالفكر، مع ديمتريو اليوناني. وأمّا ثالثاً فإنّه غير نزيه، غير محايد، يميل إلى الدّفاع ويفسح له في الكلام، بينما يحجبه عن النّيابة العامّة والادّعاء، ورابعاً يكنّ لي العداء، لسبب أجهله، أو أنّني أعرفه، وقد لّمحت إليه تلميحاً في السّابق، ومادام التّصريح، لا التّلميح، هو المطلوب في هذه المحكمة، وفي كلّ محكمة، فإنّني أعلن أنّه يراودني عن نفسي، أنا الّتي أخفّ دماً من فراشة، وأطهر من زنبقة!

أصوات:

- نرفض هذه الإساءة إلى الفراشة والزّنبقة، مريم السّودا منافقة.

أصوات أخرى:

- مريم السّودا فراشة وزنبقة، وهي عنوان الاستقامة!

الطّروسي بحدّة:

- كفّوا جميعاً عن الهتاف، هذا الّذي لا يضرّ ولا ينفع، ولكنّه يضيع الوقت. الكلام للدّفاع.

أصوات:

- هتافنا، يا طروسي، إنقاذ لشرف الفراشة والزّنبقة.

أصوات أخرى:

- هتافكم إنقاذ لماء وجوهكم، لا أكثر ولا أقلّ.

الطّروسي صائحاً:

- اخرسوا يا نسل العقارب وإلاّ أخرجتكم جرّاً على أقفيتكم من القاعة.. أكرّر: الكلمة للدّفاع، الأستاذ مران الطّوراني.

- الدّفاع، يا طروسي، يُبدي أسفه على هذه الغوغائيّة الّتي صارت

إليها الأشياء، والّتي أدّت إلى استقالة رجل كبير وجليل من رئاسة المحكمة. إنّنا لا ندعوه، بل نرجوه، أن يتجاوز بنا، وبالمتّهم، المحنة، وأن يتمسّك بسماحته المعهودة، فينسى بعض الإساءات، لأنّه لا فائدة من تذكّرها. نحن أمام واقع له خياران: أن يعود أبو فارس إلى رئاسة المحكمة، أو أن نُلغي هذه المحكمة ونطلق سراح الزكرتاوي، فماذا تريدون، أنتم المدّعين الّذين تخلّقتم من النّار، هذه الّتي مازال يتخلّق منها، في كلّ دقيقة، مدّعٍ جديد، له قضيّة جديدة؟.

أصوات الجميع:

- أن تستمرّ المحاكمة وأن يعود أبو فارس إلى رئاستها.

الطّروسي:

- هذا إجماع لم يحصل في هذه المحاكمة من قبل. ففي السّابق كان أبو فارس رئيساً للمحكمة بالتّزكية، والآن يعود إليها بالاستفتاء. إنّه اختيار موفّق وموضوعي، بل إنّه ضرورة قضائيّة لا كوْلسة كما يدّعي الزكرتاوي.

الزكرتاوي:

- هذا ما يسمّونه دقّ الماء وهو ماء!

الطّروسي:

- ﴿.. وخلقنا من الماء كلّ شيء حيّ﴾ صدق الله العظيم.

النّائب العام:

- ولكن بهذا تكتّفنا تكتيفاً!

- وهو المطلوب!

- إذن أستنكفُ عن التّصويت.

- التّصويت حدث وبالإجماع، هذا يكفي.

مريم السّودا:
- ومعارضة الادّعاء والنّيابة؟
الطّروسي:
- اكتبيها على ورقة، ولفّي الورقة على شكل اسطوانة، ثمّ ضعيها حيث تعرفين!
- تشتمني!؟
- أنت وبش لا يستحقّ حتّى الشّتم!
- يا ويلتاه!!
- ولْوِلي ما شئتِ يا مريم، ولكن تذكّري أنّ قطع لسانك سيكون على يدي عندئذٍ. انتهينا من الكلام على الموضوع. أبو فارس هو من اخترناه ثانية لرئاسة هذه المحكمة، فليتفضّل ويأخذ مكانه مشكوراً.
أبو فارس:
- إنّني أتقبّل ما اختاروني له على مضض، نزولاً عند الإرادة الجماعيّة، ولكن ليعلم الجميع أنّهم سيرون أمامهم رئيساً آخر، رجلاً آخر، من طينة أخرى. لقد كنت طيّباً، ولكن الطّيبة تحتاج إلى حماية هي الحزم، وهذا لا ينقصني. وأمّا اعتراض النّائب العام، والادّعاء، والزكرتاوي نفسه، فإنّه مرفوض بحكم الديمقراطيّة الّتي تخضع بموجبها الأقلّيّة للأكثريّة، مع ملاحظة أخرى، هي أنّني سأكون، كما كنت دائماً، عادلاً، ومنصفاً في عدلي. شكراً لثقتكم.
الادّعاء:
- عن أي ديمقراطيّة يتحدّث رئيس المحكمة؟
رئيس المحكمة:
- عن الدّيمقراطيّة الّتي هي المبتدأ والخبر، ودونها لا حياة للحياة نفسها.

ـ هذا جيّد، ولكن ديمقراطيّة القول غير ديمقراطيّة الفعل.

ـ لو كنت ذكيّاً بما يكفي لفهمت أنّني أقصد ديمقراطيّة الفعل، والفعل وحده، وتطبيقاً لهذه الديمقراطيّة أطلب منك وقف هذا الحوار الخبيء الّذي يهدف إلى الإساءة إليها. . الآن نستأنف محاكمة ابن الحمّال وابن برّو، وعلى المتّهمينْ أن يكونا جادّيْن، وأن يكون جوابهما على قدر السّؤال الموجّه إلى كلّ منهما. . لماذا، يا ابن الحمّال، أثرت الفتنة؟

ابن الحمّال:

ـ أنا لم أثر أيّ فتنة سيّدي الرّئيس!

رئيس المحكمة:

ـ السّؤال نفسه موجّه إلى ابن برّو. . لماذ أثرت الفتنة!؟

ابن برّو:

ـ أنا لم أثر أيّ فتنة سيّدي الرّئيس!

ـ إذن تقدير هذا يعود إلى المحكمة. . الكلمة للنّائب العام.

ـ النّيابة العامّة تطرح سؤالاً واحداً: هل هذان المتّهمان هما وحدهما اللّذان أثارا الفتنة، وما هو الدّافع إليها؟

ـ الجواب سيكون في حيثيّات الحكم. الكلمة للادّعاء.

ـ الادّعاء يطرح سؤالاً واحداً أيضاً: ما هو دور الطّروسي في هذه الفتنة؟

ـ الجواب على هذا سيكون في حيثيّات الحكم أيضاً. . الكلمة للدفاع.

مرّان الطّوراني:

ـ الدّفاع، سيّدي الرّئيس، ليس موكّلاً عن هذين المتّهمينْ.

رئيس المحكمة:

ـ في هـذه الحال، ولأجـل اختصار الشّكليّـات، تنتـدب المحكمـة عبعوب ليكون محامياً مسخّراً.

زكريا المرسنلي:

ـ يحيا العدل!

رئيس المحكمة:

ـ الهتاف ممنوع، بالنّسبة للجميع.

زكريا المرسنلي:

ـ هتاف الابتهاج ليس ممنوعاً يـا معلّمي. سروري برؤيـة عبعوب أطار صوابي!

ـ أرجـع صوابـك إلى مكانـه، أنت هنا مُحضِر، ومُحضِر فقط، فـلا تتخطّ حدودوك.

الطّروسي:

ـ أنا أوكّل المحامي الأستاذ مران الطّوراني للدّفاع عنّي، إذا كان لي علاقة بالقضيّة.

رئيس المحكمة بعد التشاور:

ـ المحكمة تقبل طلب الطّروسي، إذا وافق الأستاذ الطّوراني.

ـ أنا موافق سيّدي الرّئيس، وسعيد بهذه المهمّة.

رئيس المحكمة:

ـ نادِ يا زكريا، يا مُحضِر، على عبعوب، كي نسأله رأيه. الـترشيح من المحكمة، ولكن الموافقة منه.

زكريا:

ـ عبعوب! يا عبعوب، يا ابن الإبـرة، إلى أمام المحكمـة بسرعة، اعترفوا بك، يا ابن أمّك، خبيراً، بعد أن خبّطت، لأجلك، ولبّطت الأرض، مثل البغل التركماني.

يظهر عبعوب مجدّداً من بين الصفوف. يتقدّم صوب قوس المحكمة. رجل قصير، نحيل، على رأسه لبدة صيّاد، ثيابه مرقّعة، تتألّف من شروال أسود، وقميص كان أبيض، وصدريّة بحريّة بغير أكمام، وفي عينيه حَوَل، كأنّما هو مشوّه ولادة. ينحني للمحكمة احتراماً، ويقف وقفة فيها استرخاء.

رئيس المحكمة:

ـ هل أنت عبعوب ابن يعقوب؟

زكريا:

ـ هو بعينه يا معلّمي. كان، حاشاك، يعاملني كحمار، وكنت استحقّ، فهو، وأقسمُ بالله، يفهم الكلمة على الطائر كما يقولون، أديب، لبيب، ولكنّه صموت، لا يتكلّم، إذا تكلّم، إلاّ بالحكمة، ولديك، وفي رواية «الياطر»، قصّته معي من الباب إلى المحراب.

رئيس المحكمة:

ـ نحن، يا زكريا، نسأله هو لا أنت. لذلك ابتعد عنه، وكفّ عن الكلام.

زكريا:

ـ ولكن ليس قبل أن أقبّله. السوق، يا معلّمي، برّاني. هذا هو التحفة الّتي حدّثتكم عنها، وهو، كما يقولون، إبليس ملفلف. لديه لكلّ سؤال جواب، ولكلّ علّة دواء و. .

رئيس المحكمة مقاطعاً:

ـ والباقي نعرفه. اخرس أنت. عد إلى مكانك ولا تحشر نفسك في ما لا يعنيك، فهمت؟

عبعوب:

ـ لم يفهم سيّدي. هذا كركدن، إذا قطعت قرنه الوحيد اليوم يفرع غداً، إنّه الوحش الّذي صيّرته شكيبة إنساناً. بماذا تأمرونني؟

رئيس المحكمة:

ـ بالدّفاع عن هذين المتّهمين: ابن الحمّال وابن برّو، ولكن دون أجر، أنت محام مسخّر، فهل تقبل؟

ـ أقبل على العين والرّأس، ولكن لماذا كلّ هذه العجقة!؟

الزكرتاوي:

ـ وهل هناك محكمة دون عجقة يا عبعوب!؟

مطرقة الرّئيس:

ـ بغير تعليق يا زكرتاوي.

الزكرتاوي:

ـ هل سمعت يا عبعوب!؟ يحاكمونني دون أن يسمحوا لي بالكلام! لماذا تأخّرت يا حبّة عيني؟ وهل تابعت هذه المهزلة من أوّلها!؟

ـ بوذا الصّامت غير صامت.. اسأل أذنيّ الكبيرتين.

مطرقة الرّئيس:

ـ الديالوغ الثنائي ممنوع.. خذ مكانك إلى جانب هيئة الدّفاع يا عبعوب، ثمّ قل لنا ما رأيك في التّهمة الموجّهة إلى هذين المتّهمين بإثارة الفتنة؟ أم تريد الاطّلاع على الإضبارة أوّلاً؟

ـ الاطّلاع على الإضبارة، قبل مباشرة الدّفاع، من الأصول، ولكنّني أتخطّى الأصول. أنا كنت هناك، في المؤخّرة، أسمع وأراقب، وهذه هي هوايتي في الحياة، ولكنّني لست من أصحاب الخطّ الجميل!

النّائب العام:

ـ النيابة تعترض على هذا الترميز. حكاية «الخطّ الجميل» أكمة لها ما وراءها. نحن، في «هذه المملكة» ليس عندنا خطوط جميلة!

عبعوب:

ـ هل النّائب العام واثق ممّا يقول؟ إنّه يدّعي الوثوق بحكم وظيفته، وهذا من طبيعة الأشياء، ولكن من طبيعة الأشياء أيضاً، وإذا سمحت لي المحكمة الموقّرة، أن أخرج من تحت قميصي بعض الأوراق، كنماذج، وفيها «خطوط جميلة» جدّاً، حتّى بحقّ المتّهم الزكرتاوي نفسه..

مريم السّودا:

ـ الادّعاء بشوق للاطّلاع على هذه الأوراق، ومعرفة ما هو رمز «الخطّ الجميل».

رئيس المحكمة:

ـ طلب الادّعاء، مرفوض.. لا نريد إثارة فضائح.

الزكرتاوي:

ـ نعم يا محكمة، لا ضرورة لإثارة الفضائح.

مريم السّودا:

ـ لكنّني أنا..

رئيس المحكمة مقاطعاً:

ـ أنتِ فضيحة الفضائح، اخرسي! ليدخل عبعوب في صلب الموضوع.

عبعوب:

ـ إذا سمحت لي المحكمة، سأتكلّم في الشكل أوّلاً. سمعت وأنا قابع في مؤخّرة الحشد، كلّ ما دار في هذه المحكمة. أنا موافق على أنّها محكمة استثنائيّة، في قضيّة استثنائيّة، يريد فيها المتّهم عناد الزكرتاوي أن ينتحر على أيدي السّادة القضاة، فلماذا تمنعونه من ذلك إذا كان هو يريده؟ سيُقال، في الجواب، لينتحر إذا طاب له ذلك،

ولكن ليس على أيدينا. أتّفق معكم في هذا، ولكن هذا المتّهم الّذي «طارد الحياة ويأبى أن تطارده الحياة» حسب تعبيره، اختار أن ينتحر بهذه الطريقة لا بغيرها، لذلك اعترف بأنّه مذنب وهو ليس بمذنب..

رئيس المحكمة:

ـ الوقائع ستقرّر ما إذا كان مذنباً أم لا!

عبعوب:

ـ هذا صحيح مبدئيّاً، إنّما هناك سؤال: إذا كان كلّ مخلوق في الرّوايات سيحاكم خالقه فيها، فهل تقدّرون ما يترتّب على ذلك؟

رئيس المحكمة:

ـ التعميم هنا غير جائز، بل هو مرفوض. هذا خالق أدبي ليس أكثر.

ـ وما الفرق؟

ـ الفرق الكبير. المحكمة تطلب من الدّفاع أن يحدّد كلماته بدقّة دفعاً للالتباس.

ـ ألا ترى المحكمة معي أنّ ملاحظتها هي الّتي تثير الانتباه، وأنّها، عن عمد أو غير عمد، تجعل ما هو غير ملتبس ملتبساً؟ مع ذلك لا بأس. سأحدّد الكلمات بدقّة. يقول المتّهم الزكرتاوي، في كتابه «هواجس في التجربة الرّوائيّة» إنّ نجيب محفوظ وهو، وحدهما فقط، قد خلقا عالماً روائيّاً، فهل هذا واقع أم لا؟

ـ اسأل نقّاد الأدب!

ـ سألتهم فأجابوا بنعم، أو بتوضيح أكثر، قرأت ما كُتِب في هذا الموضوع في الصّحف فتبيّن لي أنّ هذا واقع تماماً.

رئيس المحكمة:

ـ إلى أين تريد أن تصل!؟

ـ إلى حيث وصلتم أنتم. المتّهم الزكرتـاوي خلق عالماً كامـلاً هو الّذي يحتشد في هذه القاعة.

ـ هذا ما يُقال له «تفسير الماء بالماء!»

ـ لكن المـاء الّـذي أعنيـه لـه تفســير آخـر هــو: المصـادرة! أنتم تصادرون حقّ هذا العالم في أن يقول ما يريد، خشية إثارة الفضائح، مع علمكم بأنّ هـذا العالم هـو الفضيحة نفسهـا، حين تُقـال الأشياء دون غمغمة أو جمجمة، والزكرتاوي، وكثير من أمثاله، لا يستطيعون أن يقـولوا الأشيـاء بغير غمغمـة أو جمجمة، وهـذا ما يـدفـع بهم إلى التخلّص من الشرطي الّـذي يقبـع في كـلّ رأس من رؤوسهم، ولا يجدون سبيلاً إلى الخلاص منـه إلاّ بالانتحـار، مدفـوعين بـالاكتئاب الّـذي غلبهم على أمـرهم، فإذا كـان هذا صحيحـاً، وهو صحيـح، فـاصدروا قـراراً بإخـراج الشرطة من رؤوس الكتـاب، وهـذا مـا لا تجرؤون عليه، فإذا ملكتم الجرأة وأصدرتم مثل هـذا القرار، فـإنّه لا ينفَّذ، لأنّ الشرطي الّذي تسلّل إلى رؤوس الجميع، هو حالة نفسيّـة اسمها مراقبة الذّات، وعدم الاقتراب من «المناطق المحرّمـة»، ومقتل الأدب، بل مقتل إنسانيّة الإنسان، يكمن هنا، في هذا الخوف الّـذي وجد المناخ الملائم للتفشّي فتفشّى، وشمل الجميع، في الوطن العـربي كلّه، أو معظمه، واسمـه معروف: القمـع، ترهيبـاً وترغيبـاً، القمع العلني أو السّرّي، لا فـرق. وأمام وضـعٍ كهذا فضّـل الـزكـرتـاوي الانتحـار على أيـديكم، كطريقـة من طرق الانتحـار العديـدة، ومنها الانتحار بالمجدّرة، فهل سمعتم أنّ مخلوقاً انتحر بـالمجدّرة؟ كـلاّ؟ أنا أفيدكم: كان لنا جار، في إحدى المدن، يتألّم من قرحـة أو سرطان في المعـدة، وقد اتّبـع الحمية، نـزولاً عند نصـائـح الأطبّـاء، ولكن الألم ازداد، فماذا يفعل؟ صبر شهراً وشهـراً وشهوراً، وبعـد ذلك اهتـدى إلى الطريقة الناجعة، فـطلب من زوجته أن تـطبخ لـه مجدّرة، وأكـل

منها حتّى التّخمة، وعندئذ حصل الانفجار في معدته فمات، وبذلك انتحر وتخلّص من العذاب. وأماً ما أريده أنا فإنّه بسيط: الحكم على الزكرتاوي بالإعدام، بعد أن اعترف أنّه مذنب، وبذلك تنهون عجقة هذه المحكمة، وتنتهي محاكمة الزكرتاوي، وتالياً محاكمة موكّليَّ، أي أنّ «المجدّرة» يكون قد سوّي أمرها!

هذا في الشّكل، وأمّا في المضمون فلا يمكن أن نحاكم ابن الحمّال وابن برّو، قبل الانتهاء من محاكمة المتّهم الرئيسي، فقد يكون هناك عطف جرمي، يؤدّي إلى العقاب أو البراءة، من خلال سير المحاكمة. شكراً.

هدوء. صمت. دهشة، رئيس المحكمة يتشاور مع مستشاريه ويعلن:
- ترى المحكمة، في الشّكل، خروجاً على أساس الدّعوى، ولا جديد في هذا المجال، لذلك ترفض الدّفع، إلاّ أنّها، في المضمون، ترى أنّ الدّفاع على حقّ، وتطلب من النيابة العامّة إصدار مذكّرة توقيف بحقّ المتّهمينْ ابن الحمّال وابن برّو، ووضعهما في قفص الاتّهام مع الزكرتاوي، حتّى يشهدا المحاكمة، وإبقاء عبعوب في الدّفاع، لأنّ قضيّة موكّليه لم تنته، بسبب من أن عطفاً جرميّاً قد يكون هناك فعلاً، في أقوال المتّهم أو الشهود.

النّائب العام:
- النيابة تطلب حجز المتّهمين إنفاذاً لقرار المحكمة، وستصدر قرار التوقيف الاحترازي فوراً.

زكريا المرسنلي صائحاً:
- ابن الحمّال وابن برّو إلى قفص الاتّهام، وإيّاكما والمقاومة! الطّروسي جاهز.

ابن برّو بنزق:

ـ وهل الطّروسي بعبع!؟

مفيد الوحش ساخراً:

ـ أنت أدرى يا عزيز عيني!

ابن برّو:

ـ مادمت أدرى فلن أطيع، ولن أدخل قفص الاتهام!

يمسك به مفيد الوحش من زنده بقوّة، ويمسك بابن الحمّال باليد الأخرى، ويسير بهما إلى قفص الاتّهام وهو يقول:

ـ هذا هو بيتكما «الحقاني»، ومنه إلى المشنقة بإذن واحدٍ أحد.

الزكرتاوي موسّعاً لهما في قفص الاتّهام:

ـ أهلاً أهلاً، على الرّحب والسّعة!

ابن الحمّال:

ـ وهل ندخل جنّة رضوان لترحّب بنا هذا الترحيب، أنت يا رأس البلاء؟

ـ جنّة رضوان، يا ابني، في الباقية، وأنت الآن في الفانية، فلا تتعجّل الرحيل إلى هناك، الجحيم تتّسع لنا جميعاً، وسيكون سفرنا إليها مريحاً بإذن الله.

مطرقة الرّئيس:

ـ سكوت يا زكرتاوي، ودون تعليق أو شغب..

الزكرتاوي:

ـ لا تعليق ولا شغب يا محكمة! ترحيب فقط، هل الترحيب ممنوع أيضاً؟ في هذه الحال أطلب قائمة بالممنوعات، حتّى لا أقع في المحظور!

ـ ليس عندنا قائمة بالممنوعات، وهي غير موجودة أيضاً!

ـ بلى! موجودة يا محكمة، ولكن لا تتسع لها هذه القاعة، والعـورة لا تغطّى بأصبع!

مريم السّودا:

ـ الادّعاء يلفت نظر المحكمة إلى كلمة «عورة» النّابية هذه!

ـ أنا لا أقصد عورتك يا مريم.. هذه تحتاج إلى «شادر»!

ضحك في القاعة. مريم تصرخ:

ـ ما هذا؟ «عورتي» و«شادر» وصلت الأمور إلى هذا الحدّ!؟

الزكرتاوي بهدوء:

ـ وصلت إلى هذا الحدّ وتجاوزته يا قهرمانة!

ـ قهرمانة!؟ يا ويلاه! اكتب يا كاتب المحكمة!

رئيس المحكمة:

ـ لا تكتب شيئاً، الكلمة لوكيل الدّفاع عن الطّروسي.

مران الطّوراني:

ـ الطّروسي، سيّدي الـرّئيس، غير متّهم بـواقعة عليهـا بيّنة. ابن الحمّال وابن برّو، اللّذان أثـارا الفتنة ومـا أدّت إليه من معـركة، همـا اللّذان اتّهما الطّروسي بالتّسبُّب في ذلك، لا شراكـة في القضيّة زوراً، وهذا الاتّهام عطف جرمي لا يُؤخـذ به، لـذلك يـطالب الدّفـاع بمنع المحاكمة بالنّسبة للموكّل.

رئيس المحكمة بعد التشاور:

ـ المحكمـة تأخـذ بوجهـة نظر الـدّفاع عن الـطّروسي وتقضي بمنع المحاكمة بالنّسبة إليه.

كرم المجاهدي:

ـ الادّعـاء يطالب إذن بمحـاكمة الـطّروسي بجـرم التسبُّب في قتـل البحّارة الأربعة خلال العاصفة.

رئيس المحكمة:
- البحّارة الأربعة المشار إليهم لم يتّهموا الطّروسي بمثل هذه الجناية.

كرم المجاهدي:
- كيف يتّهمونه وهم غير موجودين؟ رواية «الشّراع والعاصفة» تقول إنّهم ماتوا، فيكف نستعيدهم إلى الحياة؟

رئيس المحكمة:
- كلّنا هنا أموات أحياء استثنائيّاً، كيف غابت عنك هذه البدهيّة؟
- لكنّنا نعيش في الكتب، أو في رأس المؤلّف عناد الزكرتاوي. اسمحوا لي، سيّدي الرّئيس، أن أوجّه هذا السّؤال إلى المتّهم: هل نحن الموجودون في هذه، أو في رأسك، أموات أم أحياء؟

الزكرتاوي:
- أنتم جميعاً، كما قال رئيس المحكمة، أموات أحياء، أنتم وَهْمٌ وأنا وحدي الحقيقة.

مريم السّودا:
- هذا تواطؤ!

رئيس المحكمة:
- لا تواطؤ مع الحقيقة.
- ومن يقرّر هذه الحقيقة؟
- المرجع. عناد الزكرتاوي. أما سمعت جوابه!؟ أم في أذنيك وقر!؟

الزكرتاوي:
- الّذي في أذنيها هو قطن يا محكمة! هناك أشخاص يولدون وفي آذانهم قطن، ويموتون وفي..

رئيس المحكمة:

ـ كفى يا زكرتاوي! لا تكن خبيثاً إلى هذا الحدّ.

ـ وعلى فرض أنّني خبيث، فهل سمعت أنّ للخبث حدوداً!؟ ومَن رسمها!؟

ـ الّذي رسمك ورسمنا ورسم الأشياء جميعاً! والآن أغلق فمك، يكفي ما ثرثرت، المحكمة ترفض ادّعاء الادّعاء. الطّروسي لم يقتل أحداً، وهو غير متّهم. إذن لا قضيّة!

مريم السّودا:

ـ هذا ما يسمُّونه الزجر! لا حقّ للمحكمة بزجر أصحاب الحقّ في الكلام.

رئيس المحكمة:

ـ الزجر واقع على اللّغو، على الثرثرة، لا على الكلام.

عبعوب:

ـ ليسمح لي، سيّدي الرّئيس، بلفته إلى أن اللّغو والثرثرة كلام من الكلام، والخشية أن تعتبر المحكمة أنّ كلّ ما لا يروق لها لغو وثرثرة، وعندئذٍ تكون الطّامّة الكبرى، لذلك، وضماناً للعدالة، ينبغي التفريق، عند الزجر، بين ما هو تفصيلات صغيرة، أو أسئلة جانبيّة، أو إيضاحات لابدّ منها، مهما تكن قليلة القيمة، وبين اللّغو أو الثرثرة، درءاً للمصادرة الّتي أصبحت، في حياتنا، قاعدة، وأصبح السّماح استثناء.

مريم السّودا:

ـ أؤيّد ما جاء به عبعوب، فقد أفصح عمّا في نفوسنا جميعاً.

رئيس المحكمة:

ـ افصحي عمّا في نفسك أنتِ، ولكن مَنْ أنتِ، بعد كلّ شيء؟ موكّلة ادّعاء، تأخذ دورها ودور الدّفاع والنيابة والمحكمة، فتسأل

أسئلة بـائخة، وتعلّق تعليقـات سخيفة، معـوّقة بـطريقة متعمّـدة سير الدّعوى. . الزجر، إذن، هو لمثل هذه المحاولات السوقيّة، فحش في الكلام، وتهريج في مواقف الجدّ، لذلك ترغب المحكمة في أن يطمئنّ عبعوب، فالزجر، حين يكون، يأخذ في حسابه ما حذّرت منـه، وأمّا المصـادرة على لغـو كلغو مـريم السّودا، فـإنّها ضروريّة، ونحن مثـل عبعوب، لا نريدها قاعدة بل استثناء، إلاّ أنّ الاستمـرار في الاستثناء يجعله قـاعـدة، ومن هنـا، ربّمـا، المـلاحـظة الّتي سمعنـاهـا، ولكن المسـألة، في الحـال الّتي نحن فيها مـع مريم السّـودا، هي استثنائيّـة بحتة.

عبعوب:

ـ هــل هـذه الحــال الاستثنـائيّــة مـع مــريم، لكــونها امــرأة لا رجلاً، أم ثمّة تبرير!؟

رئيس المحكمة بغضب:

ـ امرأة ورجل!؟ أيّ كلام هذا؟ نحن في أيّ مجتمع!؟

ـ بالنّسبة لنا، في الشرق بعامّة، والوطن العـربي بخاصّـة، لانزال في المجتمع الذكوري، وهذا اجتماعيّاً من البدهيّات.

النّائب العام:

ـ هذا تفريع لا نوافق عليه. النيابة العامّة ترجو المحكمة أن توقف تفريعاً كهذا، لأنّه يصرفنا عن القضيّة الأساسيّة.

مرّان الطّوراني:

ـ إذا نحّينا الكلام على مريم السّودا جانباً، فإنّ مـا يقولـه عبعوب صحيح. نحن في مجتمع ذكوري، المرأة فيه مقموعـة، حتّى لو كـانت في أعـلى درجات التحصيـل العلمي، أو في أعلى المنـاصب، سياسيّـاً وإداريّاً. أنا مثلاً! أنا أزعم أنّني تقـدُّمي، وأبالـغ في تقدُّميّتي كـلاماً، وأمّا إذا تعلّق الأمر بـزوجتي أو أختي أو ابنتي فإنّني رجعي، شنيـع في

رجعيّتي، فما السّبب؟ السّبب، ودون مواربة، أنّني أعيش في مجتمع ذكوريّ، وأن نسغ الذّكوريّة يجري في دمي، وأنّني أعيشه، أتنفّسه، أسلك مسلكه بدفعٍ خفيّ من عقليّة تربّت وتركّبت نفسيّاً وجسديّاً على أساس منه.

النّائب العام:

ـ هذه شنشنة نعرفها.. كفى مزايدات!

مران الطّوراني:

ـ هذه ليست مزايدات، هذه حقائق، وذات علاقة وثيقة بالمتّهم الزكرتاوي، فهو، في ما نعلم، من الّذين يعبدون الرّجولة، أفليس في عبادة الرّجولة انتقاص من الأنوثة، أو افتئات عليها؟ نحن إذن في صلب القضيّة، وهذه التوطئة، من النّاحية النفسيّة، تفسّر الكثير من تصرُّفات المتّهم الزكرتاوي، مؤلّفاً وإنساناً، أو إنساناً ومؤلّفاً، وهو الأصحّ، أي أنّه رجل في المآل! الدّفاع، سيّدي الرّئيس، يرغب في أن يكون المنطلق، في نفي هذه التّهمة عن المتّهم، شروعاً في استجوابه، ولكن قبل ذلك، يعرض نموذجاً من الفهم الخاطئ لموقفه من المرأة، هو المفتاح الّذي نفتح به قفلاً صدئاً، كي ندخل إلى عالمه الدّاخلي النّقي، وهذا النموذج الحدث، تجدونه في روايته «مأساة ديمتريو» والشخص الرّئيسي فيها هو السيّد واصل الدلجي، الموجود معنا في هذه القاعة، وهو زوج زميلتي في الدّفاع، السيّدة راجعة.

عبعوب:

ـ المنطلق ملائم، وهو ضروري، وإضاءة هذه النّقطة في فكر المتّهم الزكرتاوي ضروريّة أيضاً، فما دمنا، كلّنا، أمواتاً أحياءً، فمعنى هذا أنّنا نستدعي أنفسنا، أو أنّ الّذي جاء بنا إلى الوجود قد استدعانا، وهو، هنا، الخالق، المؤلّف.

صوت:

ـ ونحن!؟ أعني الّذين لم نأتِ إلى الوجود بعد، لأنّنا لانزال في رأس المؤلّف، من الّذي استدعانا؟ ولماذا تتجاهلوننا، عند الكلام على مخلوقات هذا المؤلّف، أو الخالق، المتّهم الزكرتاوي، وتنسوننا؟ إنّني، باسم كلّ من هم من أمثالي، أطالب بأن يكون لنا من يدافع عن حقوقنا، وحتّى لا نعجق المحكمة بأكثر ممّا هي معجوقة كما قال الزكرتاوي، أقترح عبعوب وكيلاً عنّا، ففيه، كما سمعنا من زكريا المرسنلي، تتوفّر صفات فكريّة، خلقيّة، فلسفيّة، قانونيّة، ومؤهّلات دفاعيّة تجعله جديراً بالثّقة.

صوت آخر:

ـ إنّني أؤيّد طلب توكيل عبعوب عنّا، وباسم جماعتي كلّهم.

رئيس المحكمة:

ـ ولكن من أنتِ أوّلاً؟

ـ أنا شكوس العاقلة، من «حارة الشّحّادين»، الرّواية الّتي وعد الزكرتاوي بكتابتها وأخلف.

ـ أوضحي أكثر!

ـ وهل هناك حاجة للإيضاح يا محكمة؟ أقول «حارة الشّحّادين» يعني «حارة الشّحّادين»، ألا تعرفون اللاّذقيّة؟ كيف تحاكمون هذا الجمع، ونصفه من اللاّذقيّة إذن؟

ـ ترميننا بالجهل أنتِ!؟ تشتمين المحكمة في وجهها؟ وماذا بعد؟ ألا ترغبين في أن تكوني في الدّفاع كما هي مريم السّودا في الادّعاء؟

ـ أنا ومريم السّودا توأمان!

ـ تشرّفنا!

ـ ونحن تشرّفنا!

ـ وزدنا في الطنبور نغماً!

ـ طنبورنا، في حيّ الشّحّادين، فيه جميع الأنغام، إذن لا زيادة ولا

نقصان، شكوس العاقلة، امرأة الفاضل ابن الأفاضل، خيبر الشرشور، بائع الأشياء العتيقة، تقف أمامكم مرفوعة الرّأس، لأنّه لم يمسسها سوى زوجها، وبالحلال، وبعد..

رئيس المحكمة مقاطعاً:
ـ كفى! كفى! أخذت المحكمة علماً وخبراً بأصلك وفصلك، وأنت، و«حارة الشحّادين» معك، على العين والرّأس، فهل أرضاك هذا أم نزيد في تبجيلك يا مبجّلة!؟.. أما أنتَ، يا من فتحت علينا هذا الباب الّذي كان ناقصاً، من تكون يا محترم!؟

ـ أنا وسيم الرّيحان، مهندس معماري، ومسؤول الإعلام في «شركة الأحلام للمقاولات» من رواية «معصوم النّاحل» الّتي مصيرها كمصير «حارة الشّحّادين» مازال مجهولاً، لأنّها لا تبرح في تلافيف دماغ المتّهم عناد الزكرتاوي، لا عافاه، ولا كافاه، الله. وليست لنا إلّا علاقة المصير الواحد، وهو النّسيان، مع هذه الفاضلة الّتي تدعى شكوس العاقلة، والسبّب في ذلك بسيط، هو أنّ رواية «معصوم النّاحل» معلّمنا، تدور أحداثها في باريس، بينما تدور أحداث رواية «حارة الشحّادين» في اللّاذقيّة، والبون شاسع كما لا يخفى على مقامكم الرّفيع.

رئيس المحكمة:
ـ الآن توضّحت الأمور. أنتم من المنسيّين الّذين لا حقّ لكم ولا دفاع عنكم، والآن، عندما بدأنا في صلب القضيّة، نبقتم كالشّوك البرّي، في أرض غير طيّبة، وخرطتم أنفسكم، أو انخرطتم بأنفسكم، لا فرق، في سير الدّعوى، فسمعت المحكمة، مسرورة وشاكرة، إلى فصاحة السيّد وسيم الرّيحان، وإلى سفاهة، أو ما يشبه سفاهة، شكوس العاقلة، والطلب واحد: توكيل عبعوب للدّفاع

عنكم، فما رأيك يا سندنا القانوني، يا عبعوب بن يعقوب، في هذا الطلب؟

عبعوب:
- ليس لديّ مانع، سيّدي الرّئيس، في القيام بهذه المهمّة الخفيفة الظلّ، إذا لم يكن هناك عطف جرمي بين القضيّتين اللّتين أتوكّل فيهما، والجواب، حتّى أكفي المحكمة الكريمة مؤونته، هو ليس من عطف جرمي بينهما، فالقضيّة الأولى موجودة في القاعة، والقضيّة الثانية في رأس المتّهم، إذن لا اتّصال، ولا عطف، ولا من يحزنون، أو من يسخرون، مثل السيّد المحترم رئيس هذه المحكمة الموقّرة، الّتي أزعم، وأستسمح في زعمي، وكذلك أستغفر ربّي، أنّها ستضيع وقارها إذا أمعنت، أو أوغلت، أو استنقعت في مسلكها السّاخر الهازل..

مطرقة الرّئيس:
- تأدّب يا عبعوب!
- عبعوب مؤدّب سيّدي الرّئيس، واسألوا عنّي صديقي، وزميلي، وحماري زكريا المرسنلي.
- أنت غير مؤدّب يا عبعوب، ونحن لا نسأل الحمير أمثال زكريا، أو أمثالك، انتبه جيّداً لما تقول، فنحن نعرفك بأكثر ممّا تعرف نفسك، وهذه (يضرب على الكتاب) رواية «الياطر» أمامنا.
زكريا المرسنلي:
- واعبعوباه، يا صديقي الطيّب، أنا آسف، هذه المرّة، لأجلك، لماذا هذه المماحكة!؟

الزكرتاوي:
- هذه يسمّونها معاظلة!
- وما الفرق بين المماحكة والمعاظلة؟

ـ الفرق بينهما كما الفرق بين الإنسان والحمار!

رئيس المحكمة:

ـ لا حوار ثنائيّ، ولا كلام دون إذن. التعليق، من أيّ نوع، ممنوع يا زكرتاوي.

عبعوب:

ـ ولماذا هذا المنع القاطع الجامع؟ ثمّ لماذا تُهان الحمير ولها نفوس مثل نفوسنا جميعاً؟ فإذا قيل لي إنّ الحمار حيوان، أجبت: كلّنا حيوانات، ولكن اجتماعيّة، وهنا ينبق سؤال: ما أدرانا أنّ مجتمع الحمير أقلّ شأناً من مجتمع النّاس؟ توفيق الحكيم نفسه، سيّدي الرّئيس، كان يستشير حماره، فلماذا أُلام أنا إذا طلبت منكم أن تسألوا حماري زكريا المرسلي؟ أنا لم أقل استشيروه، قلت اسألوه، ولأنّكم ترفضون فإنّني أسأله نيابة عنكم: هل كنت حماري، أو في مقام حماري يا زكريا؟ نعم، أم لا؟

ـ نعم ولا!

ـ كيف!؟

ـ كنت حماراً في وقت الشّدّة، أرخي أذنيّ إلى تحت، مثل كلّ الحمير، أي مثل كلّ النّاس، وتفسير الباقي عليك يا عبعوب، يا حبيبي، وحكيمي في الدنيا والآخرة!

عبعوب:

ـ سمعتم سيّدي الرّئيس؟ إنّني على حقّ، ومع ذلك اعتذر، لأنّ المتّهم الزكرتاوي علّمني الجلافة ولم يعلّمني اللّطافة، وحسناً فعل، فاللّطف أفعى، وأنا لا أحبّ الأفاعي ولا حكمتها، فإذا قُبل اعتذاري، وهو مقبول..

رئيس المحكمة:

ـ من قال لك إنّه مقبول؟ اسمع يا عبعوب! كنّا في بليّة فصرنا في

ثلاث بلايا: مريم السّودا وشكوس العاقلة، وأنت. . كنّا نلملم القضيّة فجئت أنت وفلشتها، هل هذه مهمّة وكيل الدّفاع!؟

الزكرتاوي:

ـ هذه مهمّة الجميع! اسألوني أنا! كلّنا نزعم لملمة القضايا وكلّنا نفلشها، كلّنا ندّعي التستّر على الفضائح وكلّنا ننشرها، وهذا ليس شيئاً، فليس من مخفي إلاّ ويظهر. . .

مطرقة الرّئيس:

ـ انتهت محاضرتك يا زكرتاوي؟

ـ لّما تبدأ. . ولكنّني أُغضي ويُغضي. . وتعرفون بقيّة البيت.

رئيس المحكمة يتشاور ويعلن:

ـ مادام عبعوب قد قبل مهمّة الدّفاع عن المنسيّين، فليس لدى المحكمة اعتراض، على شرط واحد: أن ينقع لسانه بالخلّ، حتّى لا يُراق على جوانبه الدّم!

أصوات:

ـ يحيا العدل!

أصوات أخرى:

ـ يحيا ويحيا ويحيا!

مطرقة الرّئيس:

ـ العدل حيّ دون إحياء من أحد. قلت وأُعيد: التعليقات ممنوعة ولا تأثير لها علينا كقضاة. . ماذا تريد أيضاً يا عبعوب؟

ـ الكلام، سيّدي الرّئيس، طبعاً!

ـ هذا مفهوم، ولكن كثرة الكلام مثل قلّته، في أيّ شيء تريد أن تتكلّم!؟ في الأساس أم في الفرع!؟

ـ أنا لا أتكلّم إلاّ في الأساس.

ـ سنرى! تفضّل ولكن اختصر.

ـ سأختصر بقدر ما أستطيع، وشكراً، مع ذلك، على التنبيه. هناك قضيّتان: الأولى قضيّة شكوس العاقلة ووسيم الريحان، ومن يمثّلان من المنسيّين، هؤلاء الّذين تألّموا ويتألّمون، لا لأنّ الانتظار صعب فقط، بل لأنّهم سجناء أيضاً، وفي مكان ضيّق، ويمكن القول إنّه أضيق مكان بالنّسبة لأيّ سجين، في كلّ أنحاء العالم. هذا السجن هو طاسة رأس المؤلّف، الّذي تزدحم، سجينةً فيه، مخلوقات لا حصر لعددها. إلاّ أنّ هؤلاء الّذين انتظروا طويلاً، في وسعهم، أو لابدّ لهم، من الانتظار قليلاً أيضاً، إلى حين استجواب المتّهم الزكرتاوي، وهذا في صالحهم. القضيّة الثانية، وكي نلملم الموضوع، نحصرها في الآتي: موقف المتّهم، باعتباره مؤلّفاً خالقاً، من مخلوقاته المؤلّفة من رجال ونساء. إنّه موقف، فيه تمايز صارخ، فأنت يا زكرتاوي مع الرّجال، الّذين عبدتهم أيضاً، بالمعنى الدنيوي للكلمة، وعبادة الرّجولة، كما سمعتم وسمعنا، تُضار منها الأنوثة، حتّى إنّ النّقّاد يأخذون عليك موقفك من المرأة، الّذي هو مأخذ يتروّاح بين مؤيّد ومعارض، مع أنّ الزكرتاوي يؤكّد، ونحن معه، أنّ صورة المرأة في رواياته إلى بهاء، رغم اجترائه على الجنس، هذا الاجتراء الضروري، في عالم صار فيه الجنس يدرَّس كمادة أساسيّة في المدارس الإعداديّة والثانويّة، بله الجامعات وكلّياتها، بينما لايزال محرّماً عندنا تحريماً شكليّاً، غير صحّي وضارّاً، لأنّه ما من طالب أو طالبة، إلاّ وتحت وسادته أو وسادتها كتب جنسيّة من النّوع الرّخيص، المبتذل، الّذي يفسد الأخلاق، ويسيء إلى موضوعة الجنس، قاهر الموت هذا، بالإضافة إلى الأفلام الجنسيّة، والأفلام الرّديئة، والمجلاّت الّتي تنشر مواد وصوراً مسيئةً جدّاً للناشئة.

لذلك أؤيّد طلب زميلي في الدّفاع، مران الطّوراني، في تقديم

رواية «مأساة ديمتريو» للتدليل على أنّ موقف المتّهم من المرأة لا شائبة فيه، وأنّ النّظرة التحريميّة إلى الحبّ، والخلط بينه وبين الجنس، يؤدِّي كلّ ذلك إلى المآسي، بينما تختفي تحت عباءة «الرّجولة المزعومة» أكثر نقائص الرّجال، ومنه واصل الدلجي كنموذج.

النّائب العام الأستاذ كامل:

ـ النّيابة العامّة، سيّدي الرّئيس، تعترض على هذا التفريع الّذي حذّرت منه، والّذي يطالب الدّفاع بجعله منطلقاً إلى استجواب المتّهم الزكرتاوي، كما تعترض على تولّي، عبعوب، أو اشتراكه في الدّفاع عن المتّهم، لأنّه ليس وكيله.

مران الطّوراني:

ـ الدّفاع يرجو المحكمة أن تعتبر جهة الدّفاع وحدة متكاملة، مادام ليس هناك عطف جرمي، ولا تداخل أو تقاطع، ومادام الاستثناء، في هذه المحاكمة كلّها، يتجاوز الشكليّات الإجرائيّة المعتادة، وأنّ هذا الاجتهاد القانوني قد أصبح من الأصول المعمول بها. وردّاً على النّائب العام، الّذي يعتبر منطلق الاستجواب المقترح تفريعاً للقضيّة، ويعترض عليه، فإنّنا نعتبر هذا التفريع، في حالة ثبوته، تمهيداً ضروريّاً للاستجواب، قبل المباشرة به.

النّائب العام:

ـ تصرّ النيابة العامّة على موقفها، وعلى اعتراضها، وترفض التجريح الاستثنائي غير المبرّر، وهي ترى، استقراءً، أنّ هناك محاولات من الدّفاع للتكتّل، غايته إنقاذ رأس المتّهم الزكرتاوي، من إدانة الأدلّة الجرميّة الدّامغة، أو بتعبير آخر، تسعى لغسل هذا المجرم، وتبييض صفحته، وتلميعها وتجميلها، وفي هذا خطر على العدالة، لكونه انزياحاً عن سياقها.

راجعة:

ـ بأيّ حقّ، سيّدي الرّئيس، يصف النّائب العام الزكرتاوي بالمجرم، والمتّهم بريء حتّى يُدان؟

الزكرتاوي:

ـ بحقّ الرّدة!

النّائب العام:

ـ النيابة العامّة تحتجّ على تعليق الزكرتاوي، وتطلب شطبه من المحضر، فالرّدة تهمّة خطيرة.

الزكرتاوي:

ـ رأسي، يا جناب النّائب العام، ليس رأساً من اللّفت حتّى تقطعه بهذه السّهولة، مع أنّني أريد ذلك. وأمّا كلمة الرّدّة فهي صفة لائقة وصادقة للمرتدّ من أمثالك.

النّائب العام بحدّة:

ـ اخرس!

الزكرتاوي بهدوء:

ـ سأخرس، ولكن تذكّر أمس.. كنت أحمر!

النّائب العام:

ـ وقاحة!

رئيس المحكمة:

ـ لا لزوم للكلمات النّابية. ليلتزم كلّ طرف حدوده.

النّائب العام:

ـ هل يرضيك، سيّدي الرّئيس، أن تُرمى النيابة العامّة بالافتراءات الكاذبة، الجارحة والحاقدة؟

رئيس المحكمة:

ـ طبعاً لا يرضيني هذا ولا ذاك. المحكمة تأسف لإلهائها بمثل هذه التّرهات، الزكرتاوي تكلّم عن الألوان، فماذا في الكلام عليها؟

الزكرتاوي:

ـ سله فهو يعرف!

رئيس المحكمة:

ـ الزم حدودك يا زكرتاوي. لن أسأل أحداً، نحن، هنا، لا نحاكم الألوان بل الوقائع.

النّائب العام:

ـ وتهمة المرتدّ؟

رئيس المحكمة:

ـ وتهمة المجرم؟ راجعة كانت على حقّ: المتّهم بريء حتّى يُدان، هذه هي القاعدة الفقهيّة.

مريم السّودا:

ـ الادّعاء يؤيد النّائب العام. هناك افتراءات ظالمة، والافتراء قدح وذم، يعاقب عليه القانون. نحن، في مملكتنا، كلّ إنسان مدان حتى تثبت براءته، ولم تثبت براءة الزكرتاوي بعد، لذلك فإنّ وصفه بالمجرم، في موضعه تماماً. الزكرتاوي مجرم، وإلاّ لماذا هذه المحاكمة؟ ثمّ إنّ القضيّة، كما يطرحها الدّفاع، فيها تفريع، والادّعاء يؤيّد النّائب العام في اعتراضه عليه، وكذلك الأمر في تقديم السيّد واصل الدلجي نموذجاً، وهو، كما تعرفون، زوج السيّدة راجعة، فهل رأيتم امرأة شريفة تؤيّد اتّهام زوجها ومقاضاته؟ عليها أن تتحمّل، فأنا أتحمّل، عدم المؤاخذة، «خَرْيَنَات» زوجي نايف الرّخو، رغم أنّه نذل، وقد طالب افتراءً بعزلي من الادّعاء.

مطرقة الرّئيس:

ـ يا مريم! يا مريم، يا جنح الغراب، أما حذّرتك من التّلفظ بالكلمات السّوقيّة!؟

ـ سوقيّة!؟ أيّ سوقيّة هذه؟ أنا يا أبو فارس تعلّمتها، وحياة شواربك، من الحارة لا من السّوق.

ـ أنت غبيّة يا مريم، غبيّة وسوقيّة، فماذا أفعل بك؟

ـ تأخذ بكلامي مراعاة للقانون.

رئيس المحكمة يتشاور مع مستشاريه ويعلن:

ـ قرّرت المحكمة حذف كلّ الكلمات السّوقيّة من محضر الجلسة، وهذا من حيث الشّكل، وأمّا في المضمون فإنّ اعتراض النّائب العام والادّعاء، حتّى مع وجاهته، مرفوض ترجيحاً، لأنّ موقف المتّهم من المرأة مهمّ في القضيّة، والتّفريع هنا لا تفريع، بل تمهيد للاستجواب، أو منطلق إليه كما قال الدّفاع، ويحسن بنا أن نجلو هذه النّاحية مسبقاً، تجنّباً لكثير من الأخذ والردّ، كلّما نظرنا في دعوى تخصّ النّساء، وهنّ كثيرات في هذه القاعة، ضدّ المتّهم الزكرتاوي، بذريعة أنّه أهان المرأة، أو شوّه صورتها، أو رسمها على نحو مغاير للواقع الّذي هي عليه، أو أنّه وقف مع الرّجل ضدّها، مدفوعاً بعبادة الرّجولة، كما جاء في كتاب «الرّجولة وإيديولوجيّة الرّجولة» الّذي أفاض في الكلام على هذه النّاحية، كما أنّ المحكمة لا ترى مانعاً من سؤال المتّهم وكذلك صالح الدّلجي، عمّا ورد في رواية «مأساة ديمتريو» والنّهاية الفاجعة لديمتريو، ومعرفة ما إذا كان مات قتيلاً أو منتحراً أو قضاءً وقدراً، وهذا كلّه في صلب القضية وليس تفريعاً لها.

شكوس العاقلة:

ـ و«حارة الشّحّادين» يا محكمة؟ تنسونها؟ تتركونها للعتّ يقرضها على مهل؟ ولماذا هي، بالله عليكم، في ذيل القضيّة، مهملة على هذا الشّكل؟

وسيم الرّيحان:

ـ وقضية «معصوم النّاحل» الّتي طال عليها الزّمان وطال، بأيّ حقّ تؤجّلونها هذا التّأجيل المزري؟ إنّنا، نحن المنسيّين، نحتجّ على نظرة «ابن السّت وابن الجارية» وسنقاتل دفاعاً عن حقّنا!

رئيس المحكمة:

ـ تقاتلون!؟ أيّ تهديد هذا؟ وهل تعرف عقوبة تهديد المحكمة يا وسيم الرّيحان أنت؟ تحسبون أنفسكم في ساحة معركة؟

شكوس العاقلة:

ـ في ساحة معركة ونصّ. أنت، يا محكمة، لا تعرفين ماذا تعني «حارة الشّحّادين»، ومن هم أهلها، إنّهم يأكلون رأس الأفعى نيئاً، فحذار ثمّ حذار، وقد أعذر من أنذر والسّلام.

ـ وأنت تهدّدين المحكمة يا شكوس؟ تحسبيننا لا نعرف «حارة الشّحّادين» وأهلها؟

ـ أنتم تعرفونها كزوّار، ونحن نعرفها كسكّان. الزّائر غير السّاكن. «حارة الشّحّادين» اسم على مسمّى، فهل عرفتم الشّحادة يوماً؟ هل رقّصتم دبّاً؟ هل أخرجتم الحيّة من وكرها؟ هل زنّرتم البرغوث؟ وأخيراً، هل قبضتم على العاصفة وهي تعصف؟ نحن فعلنا كلّ ذلك وأكثر: عصينا «الرّيجي» و «الجندرمة» والحكومة وفرنسا معها، تمرّدنا على الجميع، تحدّينا الجميع، انتصرنا على الجميع، وهل هناك نصر دون قتال؟ وإذا كان هناك قتال، إن لم يكن مع الغير فمع أنفسنا، وبصورة يوميّة، فهل يجري قتال في الهواء أم على الأرض؟ على الأرض طبعاً، وعندئذ تكون الأرض ساحة معركة، فلماذا تستغربون، وتستكبرون، إذا جعلنا قاعة هذه المحكمة ساحة معركة؟ القتيل، في «حارة الشّحّادين» بشربة ماء. أنا أعرف رجلاً قتل جاره لأنّه شرب قبله، وأعرف امرأة خنقت ضرّتها لأجل فجلة، والمحكمة

لا شغل لها عندنا. نحن الحكومة والمحكمة، والحارة معصى، والعاصون لا يستسلمون، يموتون وأنوفهم إلى فوق، وبعد هذا تقولون إنّكم تعرفون «حارة الشّحّادين» وأنّكم تستهينون بها، وتضحكون على شكوس العاقلة إذا حذّرت وأنذرت باسمها؟

رئيس المحكمة:

ـ الآن تشرّفنا وعرفنا يا شكوس يا عاقلة، ولكن ما هي مهنتك بعد أن عرفنا اسمك؟ وهل أنت امرأة أم رجل؟ وهل وراءك عصابة أم تشتغلين بمفردك ولحسابك؟ وفي أيّ معمل ما شاء الله وكان!؟

ـ هذه الأسئلة، بهذه النّغمة، لا تعجبني. إذا استمرًّ الحال على هذا المنوال «سأدبّ الصّوت»! وحين «أدبّ الصّوت» تصبح الأشياء هنا مثل الدّبس والطّحينة، يعني مخلوطة!

ـ وإذا سألناك بجدّ؟

ـ أجيب بجدّ، وأوّل شيء اسمي ليس شكوس العاقلة، العاقلة هذه كلمة تعني ضدّها، أي المجنونة، وفي الحارة كانوا ينادونني شكوس الشّريرة، وشكوس أمّ زنبور، وهذا غير لائق، والوسيلة معروفة: استعملت السّكّين أو الطّبنجة، ثمّ سال الدّم يا سيّدنا القاضي، وبعدها تأدّب الجميع، نساء ورجالاً، وأما مهنتي فهي التّهريب، من التّتن إلى السّلاح، وأنا رجل وامرأة، ففي «حارة الشّحّادين» لا توجد نساء، النساء هناك رجال، وأنا واحدة من هؤلاء، أقتل دون أن يرفّ لي جفن، لكنّني، والحمد لله، لم أقتل إلاّ الفرنسيّين، أعداء الوطن، وهكذا صرت رئيسة عصابة تدعى «فم البارودة»، وعنّا أخذ الزحاولة أغنيتهم المشهورة، وفي الحارة لا نتعامل، عند «كبسات» الورديانيّة بمفردنا أو لحسابنا، لذلك حرّمنا على «جماعة الرّيجي» أن تدوس أرضنا، لأنّنا كنّا، ومازلنا، نلقى من يتجرّأ علينا صفّاً واحداً، والمعمل الّذي أشتغل فيه عنده خمسة هاونات.

رئيس المحكمة:

ـ يعني خمسة مدافع!؟

ـ أما قلت لكم إنّكم لا تعرفون «حارة الشّحّادين»؟ الهاون يعني عندنا فرّامة التّتن، وللفرّامة شفرة تفرم رقبة الخنزير عند الحاجة، فماذا تريدون بعد؟ «أدبّ الصّوت» أم تنظرون في مسألة حارتنا!؟

ـ ما رأيك يا طروسي بهذا التّهديد، باعتبارك رئيس الحرس؟

ـ رأيي أنّ كلّ ما قالته صحيح، ولكن تهديد. شكوس فقاعة صابون، فإذا لم تصدّق فلتسأل ابن برّو مثلاً، إنّه من حارتها.. ولكن هذا يطيل «حبل البير» دون فائدة. «بير» شكوس جفّ من زمان، وهذا لا يعني عدم تقدير «حارة الشّحّادين»، فنصف عمّال الميناء والبحّارة من هذه الحارة العجيبة الغريبة.. ولكن عتبي على الزكرتاوي، فلماذا، يا خال، لم تكتب قصّة «حارة الشّحّادين» بعد؟

الزكرتاوي:

ـ لأنّها حارة عجيبة غريبة يا ابن أختي، يا طروسي، كما قلت أنت، ومع ذلك أعِدُ.. سأضعها كبند أوّل في قائمة أعمالي إذا انتهت هذه المحاكمة على خير، وأنا لا أريدها أن تنتهي على خير بل على شرّ.

رئيس المحكمة:

ـ سمعت يا شكوس يا بنت الأوادم؟ الزكرتاوي وعد، وهذا رجل، والرّجل عند وعده، وأمّا لماذا القضيّة في الذيل لا في الوسط فاسألي عنها محاميك عبعوب.

عبعوب:

ـ أنا، يا ست السّتات، يا أختي شكوس، أعمل لمصلحة المنسيّين، و«حارة الشّحّادين» حارة منسيّة، لا أدري لماذا، مع أنّ قصّتها تشبه قصص «روكامبول». انتصحي تنجحي، وأنا ضامن هذا

النّجاح. . رجاءً، يا محكمة، تابعي، ما كنّا فيه، ودون تفريع آخر مشابه.

رئيس المحكمة:

ـ حدّثنا، يا زكرتاوي، عن مأساة ديمتريو، وما إذا كان قد مات قتيلاً أو منتحراً أو قضاءً وقدراً؟ ولكن قف أوّلاً، فقد بدأ استجوابك.

الزكرتاوي:

ـ الحمد لله! فقد انتظرت هذه اللّحظة طويلاً.

كاترين الحلوة:

ـ الدّفاع يلتمس من محكمتكم الموقّرة أن يُستجوب المتّهم الزكرتاوي وهو جالس، نظراً لشيخوخته، وضعفه، وما أصابه من إرهاق. طبعاً سيقف الآن، امتثالاً واحتراماً للمحكمة، لكنّه، وهو في هذا الونى، قد لا يستطيع الوقوف طوال مدّة الاستجواب، فيضطرّ إلى الجلوس، حين يعجز عن الاستمرار في الوقوف، وأترك تقدير ذلك لعدالتكم.

الزكرتاوي يقف وهو يمسك بيديه الاثنتين بقضبان قفص الاتّهام:

ـ أنا جاهز يا محكمة. شكراً لكم وللدّفاع، إذا ما سمحتم لي بالجلوس حين أتعب، ولكنّني أقول لكم، إنّني لن أتعب حتّى وأنا في هذه السّن، ومع كلّ هذا التّعذيب الّذي طال حتّى أنهكني. . يبدو أنّكم لا تعرفون من هو عناد الزكرتاوي.

رئيس المحكمة:

ـ هذه بداية طيّبة يا زكرتاوي. تعاونك مع المحكمة نافع لك، وقول الحقيقة، وباختصار، أكثر نفعاً، وأمّا من أنت فنحن نعرف تماماً، وكذلك نقدّر، إلاّ أنّ هذا لا يمنع أن تأخذ العدالة مجراها، حدّثنا عن «مأساة ديمتريو».

الزكرتاوي:

ـ أنا مستعدّ لذلك، إلاّ أنّ وجود ديمتريو بيننا، وكذلك الآخرين، يقتضي أن يتكلّموا على قصصهم بانفسهم، ودوري أنا ينحصر في التّدخل عند الضّرورة، لتأكيد واقعة، أو نفيها، أو تصحيحها، وكذلك الرّد على أسئلة المحكمة والنيابة والادّعاء والدّفاع، وهذا أجدى في ما أرى.

ـ لكن المتّهم هو أنت لا هم.. لماذا قتلت ديمتريو!؟

مريم السّودا:

ـ الّذي قتل ديمتريو هو عشيقته راجعة!

مران الطّوراني:

ـ الدّفاع، سيّدي الرّئيس، يحتجّ، وبشدّة، على هذا الاستنتاج المسبق، كما يحتجّ على وصم الزميلة راجعة بأنّها كانت عشيقة ديمتريو. أطالب بردع أمثال هذه التّخرُّصات، والموافقة على اقتراح المتّهم الزكرتاوي.

النّائب العام:

ـ النيابة العامّة تؤيِّد المحكمة في ما ذهبت إليه. المتّهم هو الزكرتاوي لا ديمتريو والآخرون، والسّؤال في محلّه تماماً: لماذا قتل الزكرتاوي ديمتريو!؟ هنا بيت القصيد!

كرم المجاهدي:

ـ الادّعاء يؤيِّد النيابة العامّة: لماذا قتل الزكرتاوي ديمتريو!؟

مران الطّوراني:

ـ الدّفاع، سيّدي الرّئيس، يرى السّؤال في غير محلّه، فالمحكمة، في سؤالها هذا، تحكم ضمناً بأنَّ الزكرتاوي قتل ديمتريو، وهذا لم يحصل، وسنبيّن في دفاعنا كيف لم يحصل. ذلك أنّ الكتاب يُقرأ، عادة، من الصّفحة الأولى، والنيابة العامّة والادّعاء يقرآنه من

الصّفحة الأخيرة، وهذا خطأ! إنّنا نعترض على السّؤال، ولا نرى موجباً للردّ عليه من قبل المتّهم، ونطلب موافقة المحكمة على استدعاء ديمتريو، كي يروي لنا قصّته بلسانه هو، لسبب بسيط، يتلخّص بأنّه هو، ديمتريو، صاحب القصّة وليس الزكرتاوي، وصاحب الشيء أدرى به، وما عدا ذلك فنحن لن نتنازل لنفي كذبة مريم السّودا، فهذه كذوب بالفطرة أو التّربية، والزميلة راجعة أحبّت ديمتريو، لا ندري في أيّ زمن، ولكنّها لم تتجاوز هذا الحبّ الطّهور، وهذا ثابت في الرّواية.

رئيس المحكمة بعد المشاورة:

ـ المحكمة تقرّر إعفاء المتّهم الزكرتاوي من الجواب على السّؤال، كما تقرّر استحضار ديمتريو ليروي لنا كيف حدثت الواقعة، وبالتّسلسل. نادِ يا زكريا، يا مُحضِر، على ديمتريو.

زكريا:

ـ المتّهم ديمتريو إلى أمام المحكمة!

ـ ديمتريو غير متّهم يا زكريا. قلت لك: نادِ على ديمتريو، فقط.

ـ ولماذا نحضره إذا لم يكن متّهماً!؟

ـ لأنّه غير متّهم! أنت مُحضِر أم نائب عامّ!؟

ـ ولساني الّذي جفّ في حلقي؟ ألا تدافع عنّي يا صديقي عبعوب؟

عبعوب:

ـ لا تتحمرن يا زكريا، سيأتي دورك وتفتح دفترك الوسخ. ها هو ديمتريو.

يتقدّم ديمتريو إلى أمام قوس المحكمة عجوزاً، أحدب، مبرنطاً، يرتدي معطفاً مهترئاً، ويحمل بيده اليسرى كمانه، وبيده اليمنى قوس الكمان. ينحني باحترام، ويقول:

ـ كلاميرا!.

الزكرتاوي:

ـ كلاسبيرا يا ديمتريو، كيف أنت يا صديقي القديم؟ هل جئت لتشارك في المهزلة!؟ هذا الّذي تراه «سيرك»، ونحن البهلوانات أو الحيوانات فيه... توقّعت يوماً شيئاً كهذا!!؟

مطرقة الرّئيس:

ـ لا تعليق يا زكرتاوي.. اسمك وكنيتك ومهنتك يا ديمتريو؟

ـ ديمتريو فاسيلیادس ديمتريادس، مهنتي موسيقي، أيّ مقطوعة موسيقيّة تريدونني أن أعزف؟

أصوات:

ـ المقطوعة الموسيقيّة المجهولة المؤلّف!

أصوات أخرى:

ـ والمجهولة الزّمان والمكان!

أصوات:

ـ تلك الّتي مُتَّ لأجلها!

أصوات أخرى:

ـ وتلك الّتي أنت خالد لأجلها!

مطرقة الرّئيس:

ـ هدوء! نحن أمام فنّان، أمام ضحيّة من ضحايا الفنّ!

ربيع الرّسّام:

ـ لنَنحنِ إذن أمام الفنّ الّذي وحده لا يموت، بل ينتقل من جيل إلى جيل.

الجميع ينحنون، فيبادلهم ديمتريو الانحناء، ويشرع بعزف المقطوعة الموسيقيّة الخالدة، وسط همهمة تتلاشى تدريجيّاً، وتدريجيّاً

يسود الصّمت، فالسّكينة التّامّـة، فصلاة الـوتر، ودمـوع راجعة الّتي تتساقط عـلى وجنتيهـا الخفـرتـين، والنّغم الّـذي ينـداح، يتعـالى، يتهادى، يتطامن، ينخفض، يتلاشى، وتبقى الأصداء وحدها رنّانة، كرجع الصّـدى في الوادي المقـدّس، الوادي الـذي يزدان بـالخضرة، ويتموسق في خشوع وجلال، وفي قلب هذه المهابة تأتي سحبة القوس الأخيرة على وتـر القرار، وينحني ديمـتريو فيعلو التّصفيق جمعيّـاً وقويّـاً ولاهباً.

رئيس المحكمة:

ـ أحسنت يا ديمتريو!

أصوات:

ـ لتعش طـويلاً يـا ديمتريـو، حرام عـلى هذه الأصـابع أن يـأكلها التّراب.

أصوات أخرى:

ـ أكلها وانتهى الأمر. أكلها وانتهى الأمر!

الزكرتاوي ناشجاً:

ـ أوقفوا الاستجواب! أوقفوه! أنا الّذي قتلت ديمتريو ديمترياديس!

راجعة وهي تجفّف دموعها:

ـ لا! لا تـوقفـوا الاستجـواب، الـزكـرتـاوي لم يقتـل ديمـتريـو ديمترياديس.

الزكرتاوي بصوت أجشّ، عميق وهادئ:

ـ بلى! بلى! أنا الّذي قتلت ديمتريو، فلا فائدة من الكلام.

راجعة:

ـ الكلام ضروري ومنه تعرفون الحقيقة، الزكـرتاوي يعـذّب نفسه

تارة، ويعظِّمها طوراً، يريد أن يقنعنا أنّه أمات ديمتريو لأنّه هـو الّذي خلقه، هذه هي عقدة الذنب والعظمة معاً.

رئيس المحكمة:

ـ سنرى، وسنعرف كلّ شيء.. هل تتكلّم العربيّة يا ديمتريو؟

ـ تعلّمتها سيّدي.

ـ ما هي، إذن قصّتك من البدء، وباختصار؟

ـ قصّتي، سيّدي الرّئيس، ومأساتي، مكتوبة في الرّواية.. اطلبوها من الزكرتاوي.

ـ لا داعي لطلبها، إنّها موجودةٌ أمامنا، وقد قرأناها، ولكنّنا نريد أن نسمعها منك. تكلّم بالرّاحة، وبصدق تامّ.. هل هناك ديمتريو آخر غيرك أنت!؟

ـ نعم هناك ديمتريو آخر، كان في المرآة، وكلّمني كما أكلّمك الآن. قلت له «لا يمكن». ردّدتها ثلاث مرّات، عشرات المرّات، على مدى شهور، وكان يقول لي، في كلّ مرّة: «أنت تكذب أيّها الوغد، يا جوّاب الآفاق، تكذب وتعلم أنّك تكذب، فلماذا تتظاهر بما لا تؤمن!؟»

ـ وعلامَ كان الخلاف؟

ـ على الحبّ! قلت له «لا يمكن!» وأجابني: «يمكن» وعندئذ سمعت خشخشة في الجانب الأيسر من الصّدر، فمددت يدي وانتزعت من صدري لفافة ورقيّة على شكل قلب، ورأيتها هي هناك، على الورقة.. كانت ابتسامتها الماسيّة واضحة، فصحت: «إنّها هي! إنّها هي!» واتّهمت قريني، ديمتريو الآخر، بأنّه هو الّذي رسمها، لكنّه أقسم أنّه لم يفعل، فجئت بممحاة، ورحت أحاول، دون نجاح، محو تلك الابتسامة، وقريني يضحك من فعلتي، لأنّ ما رُسم في الورقة كان قد رُسم وانتهى الأمر، ولم أستطع أن أمحو

الابتسامة أبداً. . . عندئذٍ صاح بي «ألقِ بالممحاة من يدك، ألقها وامضِ غداً، كاليوم، كالأمس، في سلوكك المألوف العاجز، التّابع، فالّذين يمحون افترار البسمات والعبرات، يملكون أصابع غير أصابعهم».

رئيس المحكمة:

ـ اسمع يا ديمتريو، أنت وأنا وجميع الموجودين هنا، لسنا أحياءً ولسنا أمواتاً. ليس هذا افتراضاً، بل هو حقيقة.

ديمتريو:

ـ أعرف هذا، فقد كنت في القاعة، في أقصى القاعة، ولكنّني كنت أنصت، وقد سمعت وفهمت أنّنا لسنا أحياءً ولسنا أمواتاً، فمن نكون إذن!؟

راجعة:

ـ زنابق نار!

رئيس المحكمة:

ـ هذا هو! كما قالت راجعة تماماً: زنابق نار! زنابق نار تخلّقت على شكل بشر مؤقّتاً.

ديمتريو:

ـ ولماذا مؤقّتاً؟ لنطلب من النّار أن تبقينا كما نحن، فهذا جيّد جدّاً.

مريم السّودا:

ـ وما هو الجيّد فيه!؟ راجعة!؟ قلها إذن واسترح، قلها للمحكمة، كي تعرف أنّ الماء يجري من تحت كراسيها، وأنّ علينا، إذا ما أردنا أن نعرف من الّذي قتلك، أن نبحث في قفص الاتّهام لا في حكاية حبّ ملفّقة. ولو سُئلتُ أين التّلفيق، لأجبتُ من فوري:

في هـذا الهذر عن محـو الابتسامـة! ديمترِيـو هـذا، سيّـدي الـرّئيس، ساحر، وقد رأينا كيف سحرنا بعـزفه ، وسيسحـرنا جميعـاً بقصّته الّتي تشبه قصص الجنّ!

النّائب العام:

ـ أؤيِّد كلام الادّعاء. هذا المـاثل أمـام المحكمة لـديه قـدرة رهيبة على الإغواء، وما الإغواء، في المحصِّلة؟ إنّه السّحر! إنّـه فِعْلة جنّ، فهل نؤمن بالجنّ فنكفر؟

مران الطّوراني:

ـ كنت أفضّل، سيّدي الرّئيس، لو أغلقت المحكمـة الكريمـة باب التّعليقـات، هذه الّتي تقـطع سياق أغـرب قصّة سمعنـا بها. لنـدع، إذن، ديمترِيو يتكلّم، وفي ضوء كلامه نرى إلى الخيوط، ونميّز الأبيض من الأسود بينها. إنّني أقول هذا دفاعاً عن موكّلي، لأنّ النيابة العـامّة والادّعاء يسعيان إلى شيء واحد: إثبات تهمة القتل على الزكرتاوي!! والدّفاع لـديه الأدلّـة على بـراءته، إذا مـا نحّينا الكـلام على السّحـر والجنّ جـانبـاً. عن أيّ سحـــر وأيّ جنّ يتكلّم النّـائب العـــام؟ إنّـه ينـطلق، افتراءً، من الادّعـاء بأن المعـزوفة الّتي عـزفهـا ديمـتريـو قـد سحرتنا، وهذا فعلة جنّ كما قال، وردّ هذه التّهمة بسيط جدّاً، ففي الفنّ سحـر، وفي البيان سحـر، وكلّنـا يعـرف، ويؤمن «أنّ من البيـان لسحراً» فلماذا لا يكون في مقدور ديمترِيـو أن يفعل مـا فعله فيلسوفنـا العربي الفارابي؟ فقد كان موسيقيّاً، وبلغ بمـوسيقاه أنّـه عزف لجـماعة فأنامهم كلّهم، وعندئذ تـركهم نيامـاً وخرج، فهـل الفارابي ســاحر؟ نعم! وهل الفارابي جنّي؟ كلاّ.. وهذا ينطبق على ديمـتريو، والـدّفاع يـرجـو المحكمـة أن تستمـع إلى كـامـل قصّتـه، وبعـد ذلـك يكـون التّعليق، ويكون التّفريق بـين سحر الفنّ وسحـر الجنّ، وتفوز مـريم بجواب حاسم عـلى غيرتهـا المسمومـة، وهذا الجـواب أنّ راجعة هي

راجعة، وعنها تتحدّث القصّة، وأنّ ديمتريو يفضّل أن يبقى كما هو، كي تبقى راجعة كما هي، فلا يعودان، ولا نعود جميعاً، زنابق نار. وأمّا الإيمان بالجنّ فغير وارد، وتالياً فإنّ الكفر بسبب من ذلك غير وارد أيضاً.

راجعة:

ـ أطلب من المحكمة أن تسمح لي بالانسحاب من هيئة الدّفاع، ريثما ينتهي ديمتريو من كلامه. إنّ في قصّته شيئاً كثيراً أو قليلاً عني، وكلامه، في شأن يخصّني، لابدّ أن يسبّب حرجاً له ولكم، وربما اضطرّه إلى إخفاء بعض التّفصيلات، أو إلى تغييب بعض الحقائق، وهذا مضرّ في سير الدّعوى الّتي تنظرون فيها، ومن الأفضل أن ندرأ هذا الإضرار، وأن أنسحب أنا مؤقّتاً.

رئيس المحكمة بعد التّشاور:

ـ طلب الانسحاب الّذي تقدّمت به راجعة مقبول مبدئيّاً. ولكنّنا قد نحتاجها كشاهدة لا كمحامية، وفي هذه الحال نندهها لنستمع إلى أقوالها، فهل هناك اعتراض؟ لا؟ لتخرج إذن راجعة.

راجعة:

ـ مادام ليس هناك اعتراض فإنّني أشكر المحكمة الكريمة، والزّملاء جميعاً، وأنسحب ليتابع ديمتريو كلامه.

تخرج من مكانها، تنحني احتراماً، تغادر بخطى وئيدة. تصفيق من كل جوانب القاعة، يتواصل حتّى تغيب عن الأنظار، ديمتريو يبكي وهو ينظر إليها تختفي. يُطرق الزكرتاوي كأنّ عزيزاً قد فارقه بعد لقاء ميئوس منه. تقول مريم السودا لزميلها كرم المجاهدي بصوت خافت: «أحسنت راجعة تمثيل دور الفاضلة فربحت جولة». يقول مران الطّوراني لكاترين الحلوة وفي عينيه يشعّ الإعجاب:

«كانت راجعة فائقة الذّكاء والكرم النّفسي بانسحابها، لذلك ربح الدّفاع تأييد أكثر الحاضرين».

رئيس المحكمة:

ـ أصغِ يا ديمتريو! بعد انسحاب راجعة تستطيع الآن أن تتكلّم دون حرج، هل الابتسامة الّتي كانت في الورقة هي ابتسامة راجعة؟

ـ نعم!

ـ ولماذا أردت محوها؟

ـ كي أمحو تأثيرها عليّ.

ـ وهل بلغت ما تريد؟

ـ لا فما كتبه القدر لا تمحوه الأصابع. وهذا ما قاله، وما سمعته، من قريني، ديمتريو الآخر. ولكنّني كنت كمن يبني الهيكل في المساء وينقضه في الصّباح. وفي سرّي كان هذا الهتاف: «آه يا آلهة اليونان، أصخرة سيزيف أرفع؟ أنا لم أفشِ سرّ النّار، ولم أعشق آلهة الأولمب، وما أنشده بسيط: قضاء ما تبقّى من رحلة العمر في هدوء وسلام، بعد أن ودّعت الصّبا وحسبت ألاّ مَعاد، فالشّجرة قد دبّ فيها اليباس. لست بستانيّاً، ولا أعرف أنّ الشّجرة تخضرّ بعد يباس، وها هي الشّجرة تخضرّ بعد يباس».

رئيس المحكمة:

ـ ولكن هذا الّذي تقوله معجزة، ونحن لسنا في زمن المعجزات، فماذا تقصد؟ عودة الشّباب؟ الشّباب الّذي مضى وانقضى لا يعود، إلاّ إذا كنت تخرّف!

ديمتريو:

ـ الحبّ، سيّدي الرّئيس، هو المعجزة، ولأنّ الحبّ يصير، في كلّ وقت وكلّ عمر، فإنّ معجزته تحدث، كذلك، في كلّ وقت وكلّ عمر، وهذا ما رفضته أنا، ومن هنا مأساتي. وأمّا الشّجرة فإنّها

تخضرّ، حين نريدها نحن أن تخضرّ، وأن تبقى خضراء ما بقينا أحياء.. إليكم هذه القصّة: ذات يوم، وعلى فراش الموت، قبل الغروب الأبديّ، دعاني رجل وقال لي: «اعزف شيئاً من ألحانك يا ديمتريو، أحسّ أنّ زهرة جديدة تتفتّح على غصني»؛ قلت: «سمعاً يا سيّدي» ولم أعزف. حسبته في هذيان النّزع، وتهيّبت دموع الأهل، ولكنّه مدّ يده النّحيلة، الصّفراء، المعروقة الأصابع، وأمسك بيدي وقال: «ديمتريو! الحطّاب آتٍ لقطع الشّجرة. أسرع. ساعد زهرتي الأخيرة على التفتّح قبل أن يفوت الأوان. أنا سعيد يا ديمتريو لأنّ شجرتي ستقطع وهي خضراء. كذلك أردتها وكذلك كانت، وأتمنّى لشجرتك أن تكون مثلها، كما أتمنّى لك، من بعدي، طول البقاء، ولكن أتمنّى لك بقاء أخضر، يزهر حتّى النّهاية، فهل تعزف قليلاً كرمى لخاطري؟»

رئيس المحكمة دهشاً:

ـ وهل عزفت!؟

ديمتريو:

ـ عزفت سيّدي الرّئيس، عزفت كرمى لرجل يموت. كماني تبلّل بدموعي. ترطّب الخشب وصار أرخم، صار أعمق، وازهر الغصن، واللّحن أزهر، ومضيت أعزف، دون انتقاء، دون عناء. أحسست أنّ زهرةً ما، في داخلي، تتفتّح أيضاً، وأنّ الرّبيع قد ألغى الشّتاء، وأنّه يجري في يدي وقوسي وكماني. وجدت في نفسي شجاعة فائقة على مقاربة الموت، على ملاقاته. صار الموت أنعم، مخمليّ الملمس، ومرّ بقربي، وحطّ على صدر صاحبي، وتسلّل إليه رفيقاً، هادئاً، كالنّوم عقب النّعاس، ولم أشعر بشيء، ولم أعِ ما حدث إلاّ عندما تقدّمت زوجته وربتت على كتفي قائلة: «توقّف يا ديمتريو. قُضي الأمر». نظرت إلى الرّجل.. كان يبتسم وقد مات. الشّجرة الخضراء ظلّت خضراء حتّى قطعت.

كان كلّ مَنْ في قاعة المحكمة يصغي بانتباه تامّ. بعض الأفواه فغرت من دهشة. سادت السّكينة. زاغت العيون. دبّ الخدر في الأعصاب، وتنبّه رئيس المحكمة، أخيراً، إلى أنّ القصّة الغريبة انتهت، وباشمئزاز نظر الجميع إلى النّائب العامّ الّذي وقف وقال:

ـ النّيابة العامّة ترجو إيقاف هذا الشيطان عن الكلام وترحيله بعيداً. إنّني أعرف أنّ ما يقوله تخريف، إلاّ أنّ في هذا التخريف قدراً من السّحر، لا يمكننا أن نمارس أدوارنا ونحن تحت وطأته. هذا كذب سيّدي الرّئيس. لا يمكن أيّ إنسان أن يرى الموت، ولا طاقة للموسيقا أن تجعل الأغصان تزهر. لقد عاد ديمتريو من جهنّم كي يزيّنها لنا. إنّه يهوّن الموت المجوسي علينا، لأنّ المؤمن يتلو الصّلاة، إن استطاع، وهو يحتضر، لا يطلب سماع الموسيقا كما يزعم هذا المتشرّد البائس.

الزكرتاوي:

ـ وأنت أيّها المرتدّ، عدت إلينا من الجنّة!؟

النّائب العام:

ـ اخرس!

الزكرتاوي:

ـ وهل يلغي الخرس ارتدادك!؟

مطرقة رئيس المحكمة:

ـ كفى سجالاً كلاميّاً. عبعوب يتكلّم.

ـ كانت العرب تعتقد بوادي عبقر، فما هو وادي عبقر وأين يقع، هذا السّؤال موجّه إلى النّائب العام، الّذي خرج عن طوره بسبب فهمه للموسيقا أو جهله بها. أمّا وادي عبقر، جغرافيّاً، فيمكن تحديد مكانه في بقعة ما من الجزيرة العربيّة، ولكن شياطين الشعراء، الّتي كانت تلهمهم قصائدهم، فإنّها في باب الخرافات، والآن ماتت

الخرافة، أو كادت، وما تبقّى منها، في وادي عبقر أو غيره، هو الصّدى الّذي يترجّع مع الزمن، من خلال هذه القصائد. إنَّ عَبْقَرَ مات، ولكن الأشعار باقية، وإذا افترضنا أنّ ما قاله ديمتريو خرافة، فإن الموسيقى الّتي عزفها باقية، ولي رجاء موجّه إلى المحكمة، أن تطلب من ديمتريو إسماعنا إيّاها.

تابع عبعوب:

«ومع أنّي أخشى أن تتبدّد روعة القصّة الّتي رواها ديمتريو، فإنّني، عمداً هذه المرّة، أحيلكم عليها في رواية «مأساة ديمتريو». . اقرأوا ما كتب هناك. وقارنوا مع ما سمعتم هنا، وعندئذٍ تعرفون أن سحر البيان، في الواقعة المرويّة، هو سحر الفنّ، هو عبقر ذاته، لأنَّ الموسيقا، في إيحائها الفاتن والمدهش، هي الأصل، هي أمّ الفنون جميعاً، والشعر من بينها، لهذا ألفت نظر جميع الّذين هم في هذه القاعة، إلى أنّ ديمتريو ليس ساحراً ولا شيطاناً، وبخلاف ما ادّعاه النّائب العام، فإنّ هذا الفنّان العازف هو عبقري من طراز رفيع.

«هذا من حيث الشّكل، وما فيه من إيقاع وتشويق، وأمّا من حيث المضمون، فإنّ القصّة حقيقيّة وصادقة. تسألون كيف؟ والسّؤال، هنا، مشروع تماماً، فإنّ رؤية الموت ممكنة جدّاً، إذا ما عاش الإنسان على حافّة الخطر، وهذا هو الجواب. كلّ الّذين يغامرون يعيشون على حافّة الخطر، وفي هذا العيش الممتع لهم يرون الموت، يحدّقون فيه، ويحدّق فيهم، يغرزون نظراتهم الحارّة في عينيه الباردتين، ويغرز نظراته الأفعوانيّة في أعينهم المتحدّية. هذا هو التقابل الأسطوري بين الموت الّذي هو فعل فناء، وبين الإنسان الّذي هو فعل بقاء، والنّصر دائماً للإنسان، مادام الموت ينفي الحياة، والحياة، بدورها، تنفي الموت، من خلال التواصل الرّحِمِي، واستمراريّة البشر عبر الذراري. الإنسان إذن لا يموت في حالتين:

الأولى استمراره في نسله من بعده، والثّانية في التقمّص من خلال الرّجوع، وهذا ما كان يعتقده فهيم المتبحّر، عندما أطلق على ابنته الوحيدة اسم راجعة. تبقى مسألة العيش على حافّة الخطر، وهذه مبدأ بالنّسبة للزكرتاوي، في قصّته «الأبنوسة البيضاء» ورواياته البحريّة، الّتي تحفل بالمغامرات. إنّني، ختاماً، أنصح النّائب العام أن يدرس الفلسفة، يقرأها على الأقلّ، ليكون قادراً على فهم العمق الفلسفي في «مأساة ديمتريو» وفي طلب ذلك المحتضر الّذي أصرّ، عند احتضاره، على سماع الموسيقى، كي تبقى شجرته خضراء أبداً.

النّائب العام:

ـ أطلب من عبعوب أن يجيب على هذا السّؤال: في أيّ جامعة تعلّمت الفلسفة!؟

عبعوب:

ـ وأنا أطلب من النّائب العام أن يسمع جوابي: الفلسفة تنام في سرير التّجارب تحت أظافري!

رئيس المحكمة:

ـ المحكمة تردّ طلب عبعوب في سماع معزوفة الموت الّتي تحدّث عنها ديمتريو. نحن في صدد الممكن وغير الممكن، بين ديمتريو وقرينه، والمطلوب هو الإيضاح، وباختصار، تكلّم يا ديمتريو!

ـ الممكن، سيّدي الرّئيس، هو الحبّ، وغير الممكن هو الحبّ أيضاً، ومن هنا منبع المأساة!

ـ كيف هذا: الحبّ هو الممكن وغير الممكن في وقت واحد!؟ إلى أيّ متاهة تأخذنا يا ديمتريو؟

الزكرتاوي:

ـ أرجعهم من المتاهة الفكريّة يا ديمتريو، لأنّك تتكلّم لغة أعلى من مستوى فهمهم!

كرم المجاهدي:

ـ أنت على خطأ يا زكرتاوي، واتّهامك مردود عليك، لأنّنا أكثر فهماً منك ومن ديمتريو نفسه.

مريم السّودا:

ـ أنا أتضامن مع زميلي في الادّعاء كرم المجاهدي، ولكنّني، بصراحة، لا أفهم حزّورة الممكن وغير الممكن هذه، كما لم أفهم نصف ما قاله عبعوب على الأقلّ.

رئيس المحكمة:

ـ هذا أفضل لك يا مريم! أنتِ بغنى عن وجع الرّأس.

ـ تستهزئ بي يا أبو فارس؟ أنا، وحياة شواربك، ألقطها على الطائر، ولكن الرّموز والألغاز لا قدرة لي عليها.

ـ لهذا قلت لك: أنتِ بغنى عن وجع الرّأس يا مريم!

الزكرتاوي:

ـ أنا أترجم لك يا مريم يا سودا. الممكن وغير الممكن، مثل الرّخو والقوي عند زوجك نايف الفحل!

ـ ماذا تقصد يا زكرتاوي، يا شيبة الكلب!؟

ـ أقصد أنّ الكلب لا يشيب، والصّبغة الّتي على شعرك زادتك جمالاً.

مطرقة الرّئيس:

ـ هدوء! الكلام للدّفاع، وبعده لا تعليق، سيتابع ديمتريو قصّته.

مران الطّوراني:

ـ إيضاح بسيط سيّدي الرّئيس.. الممكن هو الطبيعي وغير الممكن هو اللاّطبيعي. ديمتريو يصرّ على معارضة الطبيعة البشريّة في أنبل نواميسها وهو الحبّ، ومن هنا منشأ الصّراع بين إمكانه وعدم إمكانه. ولكن قرين ديمتريو يحسم هذا الصّراع، عندما يخبرنا أنّ غير

الممكن قد أصبح ممكناً وانتهى الأمر. الحبّ دائماً هو الأقوى، ولا فائدة في مقاومته، وهذا ملخّص ما سمعناه حتّى الآن.

رئيس المحكمة:

ـ ما قولك يا ديمتريو بالّذي سمعته؟

ـ الممكن، بالنّسبة إليّ، لم يصبح ممكناً أبداً. أنا لم أكن صانع معجزات، ولا ساعدت، مرّة، معجزة على الحدوث، وحكاية الاخضرار بعد يباس لم أحفظها، لم تكن لي علاقة بها، أنا الّذي عرف الهوى حتّى ملّه، لأنّه لم يروّضني أبداً، لم يحتفظ بي أسيراً في قبضته، ولا جعلني أتألّم حتّى البكاء!

ـ هل نفهم من كلامك أنّك نبذت الحبّ لأنّك محروم من نعمة الألم!؟

ـ هذا ما أريد قوله.

ـ ألا تعتقد أنّ هذا مخالف لطبيعة الأشياء!؟

ـ نعم! قصّتي تتلخّص في أنّني، سواء في الحبّ أو الألم، خالفت طبيعة الأشياء.

ـ لماذا؟

ـ لأنّني لا أريد هذا الحبّ!

رئيس المحكمة.

ـ ما رأيك يا زكرتاوي، أنت الّذي وضعت هذا المسكين في هذا الموضع الصّعب!

ـ أنا لم أضع أحداً في أيّ موقف. هم، كلّ هؤلاء الّذين يحاكمونني، وضعوا أنفسهم في المواقف الّتي كانوا فيها، وجاءوا الآن يتّهمونني، أليس في هذا ما يدعو إلى الغرابة، وحتّى إلى الضحك!؟

كرم المجاهدي:

ـ أتنكر أنّك الّذي خلقتهم أدبيّاً!؟

- لا أنكــر، ولكنّني لست محـرّك دمى، بخيــوط مــربــوطــة في أصابعي. . أنا كاتب ولست ممثّل عرائس!

- وما الفرق!؟

- أنت جادّ في هذا السّؤال!؟

رئيس المحكمة:

- لا ضرورة لهذا السّؤال الّذي يحيلَ على سؤال مماثل. نحن نحاكم الـزكرتـاوي ولا نـطلب منـه أن يشرح لنـا كيف أبـدع مَن أبـدع من شخصياته.

النّائب العام:

- هل يريد الزكرتاوي أن يقنعنا أنّ هؤلاء الموجودين في هذه القاعة تخلّقوا على النّحو الّذي أرادوا؟ وفي هذه الحال ما دوره هو؟

- دوري هو رسم هؤلاء الموجودين وفق أقدارهم. بكلمـة أخرى: وفق نمـوّ الحدث والشخصيّـات نموّاً طبيعيـاً، دون قسر أو افتعال. لا مجال، في الإبداع، لغير الفهم والصّدق.

- تريد أن تقول إنّك بريء من «مأساة ديمتريو»!؟

- ديمتريو هو الّذي صنع مأساته. لماذا أراد مخالفة الطّبيعـة كما قـال الدّفاع!؟

- تتنصّل من الجريمة إذن، وبمثل هذا الاستغباء لنا جميعاً!؟

مران الطّوراني:

- ليس هنـاك، سيّدي الـرّئيس، أيّ استغباء. . وأمّـا التنصّل من الجريمة فإنّه يكون حين تكون هناك جريمة، والقضيّة الّتي تنظرون فيها لا تقع تبعتها على الزكرتاوي. إنّه لم يقتل ديمتريو!

النّائب العام:

- ومَن الّذي قتل ديمتريو إذن!؟

مران الطّوراني:

ـ لست أنا من يجيب على هذا السّؤال بل الوقائع، لنتابع الوقائع!

رئيس المحكمة:

ـ نعم! لنتابع الوقائع!

مريم السّودا:

ـ عن أيّ وقائع تتحدَّثون!؟

ـ عن وقائع مقتل ديمتريو طبعاً!! هل كنتِ نائمة أم أنتِ غبيّة!؟

ـ لا هذا ولا هذا يا أبو فارس، يا رئيس المحكمة، أنت، وهذا واضح، مع الدّفاع دائماً، وضدّ النّيابة والادّعاء دائماً، فلماذا؟

ـ لأنّ رئيس المحكمة يدير جلسة المحاكمة وفق ما يراه متلائماً مع الأصول.

ـ وأين الأصول في محكمة استثنائيّة، تقولون إنّها تنظر في قضيّة استثنائيّة!؟

ـ الأصول في الكلام الّذي يتّفق والمنطق.. أم أنّك لا تعرفين ما هو المنطق؟

ـ وهل تعرف المنطق أنت يا «أبو فارس»؟ أقسم أنّك لا تعرف «الطين من العجين»؟

ـ ماذا؟

ـ أعتذر!

ـ إذن لنتابع وقائع الجلسة.. من المسؤول عن مأساتك يا ديمتريو!!؟

ـ الممكن وغير الممكن!

الزكرتاوي:

ـ حلو يا ديمتريو! كلّما تقدّمنا خطوة إلى أمام تعيدنا خطوتين إلى وراء! قل من الّذي قتلك؟

كاترين الحلوة:

ـ الدّفاع يعترض على السّؤال شكلاً.

رئيس المحكمة:

ـ الاعتراض مقبول.. تابع يا ديمتريو: هل توصّلت إلى محو الابتسامة الّتي في الورقة؟ ثمّ هل يمكن أن تكون مكان القلب ورقة، نستخرجها حين نريد؟

ـ عجزت، سيّدي الرّئيس، عن محو الابتسامة، لذلك ظللت متأرجحاً بين الممكن وغير الممكن، وكلّ ما أعرفه، عدا ذلك، أنّه كانت هناك، مكان القلب، ورقة، استخرجتها وحاولت محو الابتسامة الّتي عليها فلم أفلح.

كرم المجاهدي:

ـ الادّعاء يرى في هذا القول خرافة!

مران الطّوراني:

ـ والدّفاع يرى في هذه الخرافة إحالة على الحكاية، فما هي هذه الحكاية؟ السّؤال موجّه إلى الزكرتاوي.

رئيس المحكمة:

ـ لا ضرورة لهذا السّؤال، مادامت الحكاية هنا، في الرّواية.

ـ الادّعاء لا يرى في الرّواية إلاّ خرافة.

ـ والدّفاع يرى أنّ في كلّ خرافة إحالة على حكاية.

الزكرتاوي:

ـ هذا، من وجهة نظري، صحيح.. الخرافة، إذا ما سلّمنا بها جدلاً مع الادّعاء، هي إحالة على حكاية، وفي هذه الحكاية وقائع تثبت أنّني لست القاتل.. مع أنّني أريد، بل أطلب من المحكمة، إدانتي كقاتل، وعن سابق تصوّر وتصميم!

ـ الادّعاء يرى أنّ الاعتراف سيّد الأدلّة.

ـ والدّفاع يرى أن اعتراف الزكرتاوي لا يستند إلى أيّة أدلّة.

عبعوب:

ـ سيّدي الرّئيس، حضرات المستشارين، كلّ ما سمعتوه وسمعناه ملتبس. التجريم غير ممكن بالاعتراف وحده، والزكرتاوي لم يعترف. أكثر من ذلك، إنّه ينكر، فقد قال صراحة: «إنّني لست القاتل!» وهذا القول يجبُّ ما قبله. إنّ الدّفاع يعرف من هو القاتل، ولكنّه بانتظار أن تتكشّف قصّة ديمتريو عن أدلّة يستند إليها. وهذه الأدلّة موجودة هنا! (يرفع رواية مأساة ديمتريو) موجودة في هذه الرّواية، فلماذا استباق الأمور؟ ولماذا يحاول الادّعاء حرف القضيّة عن خط سيرها؟ إنّني أزعم أنّ الغاية من ذلك واضحة، ولكنّني لن أكشفها، وهذا لصالح المتّهم.

الزكرتاوي مقاطعاً:

ـ صالح المتّهم في أن تكشفها! إذا كنت تعرفها فاكشفها، أيّها الإبليس المتخفّي في ثياب رجل، فرض نفسه على الدّفاع فرضاً.

زكريا المرسنلي:

ـ باطل! عبعوب رجل ابن رجل يا زكرتاوي، وهو يفهم أكثر من كلّ الّذين في هذه القاعة.

مريم السّودا:

ـ يفهم أكثر منك باعتبارك حماراً يا زكريا!

ـ ويفهم أكثر منك باعتبارك ست الحسن يا مريم!

مطرقة الرّئيس:

ـ وبعد!؟ مَنْ أَذِنَ لك بالكلام يا زكريا!؟ ولماذا نبقت كشتلة بطيخ في الشتاء يا مريم!؟ وأنت يا زكرتاوي، منذ متى تعرف صالحك من طالحك!؟

الزكرتاوي:
ـ أعرفه منذ جلست أنت على هذا الكرسي الهزّاز يا محترم!
مريم السّودا:
ـ هذا تحقير يا أبو فارس! الزكرتاوي يسخر منك، فكيف تسمح له؟ وإذا سمحت له فكيف نحترمك بعد ذلك؟ اقطع لسانه أو اترك هذا الكرسي الهزّاز يا محترم، كما قال!
رئيس المحكمة بهدوء:
ـ ولسانك يا مريم يا محترمة! نقطعه أم نجعله في موضع . .
نايف الفحل:
ـ اجعله في موضع كذا يا أبو فارس! هذه العائبة لا تتوب إلاّ على يديّ . . اتركوها لي!
ـ اخرس! هل أنهيت كلامك يا عبعوب؟
ـ عبعوب يأسف لما يسمع! كيف أُقاطَع، سيّدي الرّئيس، على هذا النّحو!؟
ـ هذا النّحو هو هذه الديمقراطيّة يا عبعوب! بعضهم يريدها كذلك، وبعضهم يريدها غير ذلك، فكيف تريدها أنت!؟
ـ أريدها «مظبوطة» سيّدي الرّئيس، أعني القهوة!
ـ في هذه الحال نرفع الجلسة لنشرب القهوة «المظبوطة»، ما رأيك يا زكرتاوي؟
ـ رأيي أنّني «محشور»!
زكريا المرسنلي بصوت عالٍ:
ـ إذن ترفع الجلسة حتّى «يفكّ» الزكرتاوي «حشرته»، والحاضر يعلم الغايب!
كرم المجاهدي محتجّاً:

ـ الادّعاء، سيّدي الرّئيس، لا يعترض على رفع الجسلة، فهذا من حقّكم، ولكن من حقّنا أن نعرف، بعد أن أوشكنا أن نعرف، من هو قاتل ديمتريو!؟

رئيس المحكمة واقفاً:

ـ ونحن مثلك، نريد أن نعرف من هو هذا القاتل، ولكنّنا نختلف معك في أنّنا أوشكنا أن نعرفه، فهل لديك حلّ جاهز لهذا اللّغز!؟

ـ لا! ليس لديّ مثل هذا الحلّ، غير أنّ رفع الجلسة، على هذا النّحو الّذي يقطع استجواب ديمتريو، يتيح الاتّصال المباشر بين الدّفاع وبينه، حيث يجري التلقين لإنقاذ رأس المتّهم الزكرتاوي من حبل المشنقة!

رئيس المحكمة بحدّة:

ـ عن أيّ حل وأيّة مشنقة يتحدّث الادّعاء!؟ هناك سؤال واحد، يتطلّب جواباً واحداً: من قتل ديمتريو!؟ أمّا ماعدا ذلك فهو لغو.

انتهى الحوار ورفعت الجلسة رسميّاً.

١٦ كانون الثاني ١٩٩٣

يلي جزء ثانٍ بعنوان «القمر في المحاق».

عنوان المؤلّف دمشق ـ الجمهوريّة العربيّة السوريّة، ص. ب: ٣٠٣٩٣

Adress of the auther: Damascus .S.A.R. P.O.B 30393.



مؤلّفات حنّا مينة

* المصابيح الزرق
* الشراع والعاصفة
* الثلج يأتي من النافذة
* الشمس في يوم غائم
* الياطر
* بقايا صور
* المستنقع
* القطاف
* الأبنوسة البيضاء
* المرصد
* حكاية بحّار
* الدقل
* المرفأ البعيد
* الربيع والخريف
* مأساة ديمتريو
* حمامة زرقاء في السحب
* نهاية رجل شجاع
* الولاّعة
* فوق الجبل وتحت الثلج
* الرّحيل عند الغروب
* النجوم تحاكم القمر
* القمر في المحاق
* حدث في بيتاخو
* المرأة ذات الثوب الأسود
* عروس الموجة السوداء
* ناظم حكمت: السجن، المرأة، الحياة
* ناظم حكمت ثائراً
* هواجس في التجربة الروائيّة
* كيف حملت القلم؟

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١١٦٣
ص.ب ١١ - ٤١٢٣ بيروت

تصميم الغلاف نجاح طاهر